

وَرَارَة الثَّقَافَة

أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الصَّيَّافِ

أَحْفَافُ الزَّمَانِ  
بِأَخْبَارِهِمْ  
وَعَهْدُ الْأَمَانِ

تَحْقِيقُ لَجَنَةِ مَنْ وَرَارَةِ الشُّؤُونِ الثَّقَافِيَّةِ

بِنَصِيدِ  
الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ الْكَأَبِ





البَابُ السَّادِسُ  
فِي دَوَائِهِ

البائس المشير إلى العبد الجاني

أَبُو الْبَيْضِ طَيْفِي أَبُو إِسْحَاقَ الشَّامِيُّ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَمْرٍاءَ بْنِ عَلِيٍّ







## • المشير أحمد باشا بابي

- الأكثار من الجند
- انشاء للدرسة الحربية بباردو
- تأسيس « المكتبة الأحمديّة »
- ترتيب التدريس بجامع الزيتونة
- عتق المماليك
- الرحلة الى فرنسا
- الاعانة الحربية للدولة العثمانية

## • المشير محمد باشا بابي

- تنظيم المحاكم الشرعية
- منشور الصلحة
- قانون عهد الأمان
- التفتيش من العسكر







مولد هذا الباى في الحادى والعشرين من رمضان سنة 1221 ، احدى وعشرين ومائتين وألف (الثلاثاء 2 ديسمبر 1806) . وأمه جارية من سبي سنيرة (1) ، جاءت صغيرة مع أمها وأختها ، وتربّت بدار جدّه لاييه المتقدم ذكرها .

واعتنى أبوه بتربيته وتهذيبه على ما يقتضيه حال الوقت يومئذ . فقرأ القرآن على الشيخ الصالح الفقيه الخطيب أبى العباس أحمد السنّان . وتعلم اللغة التركية نطقاً وشيئاً من الكتابة ، وتعلّم لغة ايطاليا نطقاً فقط (2) . ولازم الشيخ الفقيه الاديب ابا عبد الله محمد الحكيم سيالة (3) . وخالط غيره من الناس .

وكان في عنفوان شبابه يتزيّياً في عمامته بزّيّ الترك ، والمهابة مع ذلك لا تفارقه في سائر أحواله ، وتخلق بها من صغره .

وأبو تربيته الوزير الناصح الخير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع لا يفارقه .

وكان في سياسة تربيته يجالسه مجالسة الاصحاب ، وفي خلال ذلك يفيدّه ويخبره بحالات أوائله وما نشأ عنها ، ويحدثه بمحامد الاخلاق ومذامتها ، الى غير ذلك مما يلقيه أهل الكمال الى الفطرة السليمة ، حتّى تخلق بذلك .

ببيع ضحى يوم الثلاثاء عاشر شهر الله رجب سنة 1253 ، ثلاث وخمسين (الثلاثاء 10 أكتوبر 1837) ، اثر وفاة أبيه . وأول من بايعه ابن عمه وولي عهده وآل بيته ، ثم الوزير الكبير أبو الربيع سليمان كاهية ، ثم الوزير مصطفى صاحب الطابع ، ثم بقية الخواص والحاضرين .

ومن الغد بيع البيعة العامة على العادة .

(1) هي جزيرة St. Prietro في الجنوب الغربى من سرداليا .

(2) كذا في ع و ق ، وفي خ : « وتعلم اللغة التركية والطينانية » .

(3) انظر ترجمته في عنوان الاريب ج 2 : 76 .

وافتح أمره بأن قال لخاصة رجال دولته : « قد ظهر لكم تقليدي على عادة بلادنا ، ومنزلتكم عندي هي منزلتكم عند أبي وعمتي وأسلافي . ولا معنى للدولة إلا الرجال ، فإذا لم تكونوا معي كما كنتم مع من قبلي ، فلا ملك ولا دولة » .

وأقر الناس على مراتبهم وأعمالهم . وتيمّن بقدوم عالم العصر وبركة المصر الشيخ أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، رابع أيام ولايته ، بعد حجّه نيابةً عن والده . واهتزّ لمقدّمه ، وبكى لما رآه ، وقال له : « كان أبي يتمنى أن يراك قبل وفاته » . ووالاه جزيل الحظوة والمبرّة .

ولا شمر عن ساعد المباشرة ، قال للوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع : « ان هذا الامر يشغلني عن مباشرة أحوال إخوتي ، وهم صغار ، وأنت بمنزلة أينا . وقد سلّمت لهم في (1) نصيبي من إرث والدي ، فاقسمه بينهم على ما تراه من مصالح ألفتهم وصلاح بيّتهم ، وباشر نظرهم حتى يبلّغوا الأشدّ ، وأختهم الكبرى القائمة مقام أمّهم في عصمتك » . وقد فعل فوق الظن ، وكان من الوفاء بالمكان الذي لا يُجهل .

واقبلت وفود البلدان ونواجع (2) العربان للبيعة فأفعم بهم سيل (3) الحاضرة .

وجه أبا النخبة مصطفى البلهوان باش حانية الى الدولة العلية العثمانية لطلب الفّرمان والعناية السلطانية ، وكاتبها باللسان التركي . وجه عرض محضر في الرضى بولايته على العادة .

وجمع المجلس الشرعي على العادة زمنا يسيرا .

واعترضه بابن عمّه واستكفى به في سفر المحالّ لتهنئة (4) الوطن وأمن السبل واستيفاء الجباية .

واستكفى في الوزارة بمربيّه زعيم الدولة أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع . واصطفى لسره وبث نجواه والاحتفاظ بمال الدولة ابن تربته الوزير أبا النخبة مصطفى خزنه دار ، وكان عنده بهذه الرتبة قبل تقدّمه للملك . واستكفى في امور العسكر وما

(1) سلم له في : تمازل له عن .

(2) النواجع : القبائل الرحل .

(3) في خ : م سيل ، وفي ع : « سيول » وقد سقطت من ق .

(4) التهنئة : التهذئة ، التامين .



يتعلق بهم بصاحبه ومعاصره الوزير أبي النخبة مصطفى آغة ، وثلاثتهم أصهاره على أخواته [ لا يه ] . واستدنى الوزير أبا عبد الله محمد [ ابن الوزير أبي عبد الله محمد ] الاصرم رئيس الكتبة ، وقربه نجياً ، وفتح أذنه لتدبيره ، واستعان برأيه في سائر أمور الدولة ، وكان يده قلم جبايتها وحساب عمّالها . واعتمد أبا عبد الله محمد بن حميدة ابن عياد ، وقرب ابنته محمودا (1) .

وفي آخر شهر ولايته وصل الخبر بأخذ الفرنسيين لقسنطينة وهروب صاحبها احمد باي ، وأتى من عسكره جمع من الترك اثبتهم في جند تونس ، وجعل منهم حوائب ، وأحسن قيراهم وأنس وحشتهم ، تألفا لقلوب من بالبلاد من الترك .



وفي الشهر كاتب السلطنة الشريفة بالمغرب ، على سنن آله من حجة آل البيت ، من انشاء العبد الفقير ، ونصه : « المقام الذي نتسلى عن المفقود بوجوده ، وتأسى بالاشراف آبائه وجدوده ، مقام الملك المطاع ، الساري ذكره في البقاع ، المنعقد على فضله الإجماع ، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع ، فريدة الاصداف ، وسر آل المصطفى الاشراف ، والمحيط بالمعالي إحاطة [ جبل ] (2) قاف ، مخدوم الاقلام والاسياف ، ومحبي مآثر الاسلاف ، ومن حبه دين وإنصاف . وبماذا ينطق اللسان ويعرب ، عن محاسن مقام والدنا مولانا عبد الرحمان ، سلطان المغرب .

الامر جكل ، والشمس تكسبر عن الحلل . أيده الله بنصر يسهل الصعاب ويُدنيها ، وعز يشيد معالم الفخر ويبنيها ، وسعد يهصر أفئنان الاماني ويحجنيها ، تنال به الملة الخفيفة أقصى أمانها ، ويكون غرة في وجه الدنيا وبنيها .

اما بعد سلام تهب بساحتكم نواسمه ، وتفتقر عن تغر الداد مباسمه ، كلما سطعت في غياهب الشدة أنوار الفرج ، وهبت نواسم اللطاف عاطرة الأرج ، فالمنهي الى حضرتكم الشريفة ، ولكم طول العمر ودوام الامر ، أن والدنا سيدي مصطفى باشا باي صار الى عفو الله عاشر هذا الشهر المحرم (3) ، وأي سلك لا يتصرم .

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من ن ، مثبت في ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) يعني رجب ، أول الأشهر الحرم .

فيا له من مصاب نبتة عيوننا من سينة غرورها ، وذكر نفوسنا بهمهم أمورها ، ضاقت به الصدور عن زفرائها ، والعيون عن عبراتهما ، ويين أن شراب الامال سراب ، وكل الذي فوق التراب تراب .

فاننا لله وإنا اليه راجعون . قبلنا القضا ، بالتسليم والرضا ، ولو قيل داعي الموت الفيدا ، أجابته أرواحنا قبل النداء . نسأله سبحانه الصبر ، والاجر والجر ، وإن يتقبله بالغفران ، ويسكنه فسيح الجنان .

فلقد كان للمستجير أجيرا (1) ، وللمظلوم وليا ونصيرا ، وللشريعة حارسا وظهيرا . يسر بذلك لسفره زادا ، ووطئا ما استطاع بالنصح للمؤمنين مهادا ، وطوق أهل الإيالة عدلا وإمدادا ، حتى فتت فراقه قلوبا وأكبادا ، وألقوا إلينا حين انتقاله قيادا ، وتسارعوا الى الدخول في طاعتنا جموعا وأفرادا ، وأجمعوا على بيعتنا وأصفقوا ، والى جمع العصابة تسابقوا ، وبدا ما في قلوبهم من محبتنا التي بها خلِقوا وتخلَقوا .

ولم يسئل القلب عن المفقود ، بافقياد الوطن والوفود ، والعساكر والجنود ، وقيامنا مقام الآباء والجلود ، وبرزو المقلد للوجود . إلا أننا فعلنا ما وجب علينا في هذا القطر من جمع كلمة الاسلام ، والله يحرسها على الدوام . وشرعنا باعانة الله في مصالح رعيتنا ، على حسب قلوبنا ، واعتضدنا باخوتنا ، ونحوها أسرتنا ، وبررنا الوالد بجمع كلمة جماعتنا ، وبره جميعهم بطاعتنا .

والمبادرة لإعلامكم فرض أكيد ، وقصد حميد ، إذ الوداد بيننا تألق نوره ، وثبت في صحف الخلوص مسطوره ، وصفت من الشوائب بحوره . كيف وهو بالإرث والاكتساب ، يتجدد بتجدد الاحقاب ، وحبكم آل البيت فرض ، على أهل الارض ، نسأله سبحانه ان يجعله حبا باقيا ، وسعيها الى درجة القبول راقيا ، وحصنا من المكاه واقيا ، وإن يمد لنا ببركة سلفكم الطاهر الحميد ، بالإعانة والتأييد .

والسلام من معظم قلوبكم العالي احمد باشا باي وفقه الله .

وكُتِبَ في رجب سنة 1253 ، .

(1) كذا في خ و ع و ق ، ولعل المراد : مجيرا .

فاجاب الشريف [بما] نصّه : من عبد الله تعالى المتوكل عليه المعتصم بالله أمير المؤمنين ابن امير المؤمنين الشريف العلوي الحسيني (1) أيّده الله ونصره . إلى المقام الذي تتضاءل بوجوده الآرزاء ، وتحصل بسلامة كماله الكفاية والإجزاء ، وتؤذن بتهنئته الرؤساء ، وإن أصابها بفقد والده البأساء ، وتعم بطلعته البشرية حال التأساء ، مقام محلّ ولدنا الشاب الانجب الارشد ، وبيت القصيد الذي يُحفظ ويُشَدّ ، من قلّته الرئاسة عقدها ، وأعطته السياسة عهدا ، طالع الامن ، ومُقرّ قواعد البركة واليمن ، صاحب الإوصاف الزكية والنهج الاحمد ، الباشا الاجل السيد أحمد ، إبقاك الله محييا للمراسم ، متنسما من رياح النصر أعطر النواسم ، مشيدا لدعائم الدين ، مقتديا بالايمة المهتدين ، سلام أعطر من النسيم ، وأحلى من التسنيم ، ورحمات من الله وبركات ، تعم السكنات والحركات .

أما بعد حمد الله على كل حال ، والصلاة والسلام على النبي والآل ، فقد وصلنا كتابكم بخبر الحادث الذي رَوَّع السُّرْب ، والخطب الذي كدَّر السُّرْب ، وهو خبر وفاة والدكم المبرور ، صاحب السعي المشكور ، والثناء الطيب المذكور ، والفضل المشهود المشهور . فانا لله وإنا اليه راجعون ، تقبلا لسنن الشريعة ، وتوجها للرزقة القطيعة . فياله من فقيد شكت فقده العلياء ، وبكته الخاصة والدهماء ، ورَد الحوض الذي لا بد من وروده .

ولو أن حيّا خالداً لجلاله لهُنَّت من بين الورى بخلوده

ولكن الله سبحانه وتعالى تدارك مُصَابَه بولايتك ، ونسخ آيته بلمحكّام آيتك ، فنظم لك شمل الامة ، وجلّا بك عن هذا (2) القطر الخطوب المدلهمة ، وأطلع فجرك في ظلماته ، وأكمل بلدك في سمائه ، فانشرح بذلك الصدور ، وهشّت لطلعتك (3) الاعيان والصدور . فهنأ الله مقامكم بهذه الصنعة العظيمة ، والموهبة الجسيمة ، وأجزل ثوابكم في عظم ذلك المصاب ، وجعله تيمّة الفجائع وخاتمة الاوصاب ، وأعقبه بتأييد يُدني القاصي ، وتمكين يرشد العاصي ، ونصر يُترّل العُصم من الصيّاصي ، ويقود

(1) في ع : « الحسيني » ، وفي خ و ق : « الحسيني » .

(2) في خ : « هذا » ، وفي ع و ق : « ذلك » .

(3) في خ : « لطلعت » ، وفي ع و ق : « لطلعتك » .

اليكم كلَّ جبار بالنواصي ، فانه وإن عظم المصائب الحادث ، والخطب الكارث ،  
فالبشرى المقترة به على الاسف تقضي ، والنفوس توكل بالادنى وان جلَّ ما يمضي ،  
مع أنه لم يمت مَن مثلك وارث خلاله ، ولم يمض مَن أنت سبيل جلاله .

ولقد أخذنا من التوجع للزينة ، والابتهاج بما خولتُم من الهبة السنية ، ما يأخذ  
حبيب من مساهمة الاحباب ، ويقاسم فيما يعرض العوارض والاسباب ، اذ المحبة بين  
الدولتين صحيحة المتون عالية الإسناد ، والمودة (1) بيت الإيالتين مرفوعة الاحاديث عن  
الآباء والاجداد ، قد تفتح في رياض الدول زهر كيمامة ، وفاح بين الانام مسك ختامه .  
والله يحرس مجدكم ، ويعينكم على ما قلّدكم ، ويعرفكم من نصره أضعاف ما  
عوّدكم ، بمنّه وفضله وبأعلاه ختمه الشريف .



وفي شعبان من السنة (نوفمبر 1837 م.) شرع الباى في بناء قصره الحافل الانيق  
المشرف بباردو ، وحث العملة على السرعة في إتمامه [وكان يأتيهم كل يوم] (2) .

وفي رمضان السنة 1253 (ديسمبر 1837 م) قدّم الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد الخضّار  
مفتيا ، وقد كان قاضيا بالمحلة ، وقدم عرضه الشيخ الفقيه أبا عبد الله محمد ابن سلامة .

وفي السنة وقع بينه وبين قنصل الفرنسيين كلام في نهّد ، وذلك ان هذه القبيلة  
من اهل جبل باجة تنقسم الى فخذين ، فخذ من توابع الجزائر وفخذ من توابع تونس  
وهم نهّد ، ومترلتهم قرب برج القالة ، فظهر لعامل (3) الفرنسيين به ضمّهم والاستيلاء  
عليهم وعلى أرضهم لتجتمع القبيلة . وشدّد الباى في الوقوف عند حده . [وتكررت  
المحادثة (4) بينه وبين القنصل] (5) .

وكاتب القنصل طالبا منه لإنهاء ذلك لدولته ، فأجابه القنصل بمضمون جواب دولته،  
وهو ان الدولة الفرنسية تعطي لتونس أرضا عوض أرض نهّد ، بعد تحقيق الحدّ بين

(1) كذا في ع و ق ، ولي خ : « والمحبة » .

(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(3) ظهر له : ارتأى ، اراد ، خطر له .

(4) كذا في ق ، وفي ع : « المجادلة » .

(5) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

الجزائر وتونس . ولما رآه جواب قوي لضعيف سجل حقه وأجاب بما نصه : « اما بعد فإنه بلغنا مکتوبکم بالإذن الذي اتاكم من جناب الدولة الفرنسية في شأن نهدي ، وذكرتم ان الجزائر لما استقرت بيد الفرنسيين رجع لهم جميع ما لها من الحقوق ، الى آخر ما ذكرتم ... تصفحناه وعلمناه ، والجواب : ان هؤلاء نهدي لم قتلهم رعاية (1) الجزائر سابقا ، ولا وقع من دولة الترك بالجزائر كلام مع تونس في شأنهم ، مع ما كان بينهم من الحروب ، وانما هم في رعاية تونس ، وملوكها يتداولون التصرف فيهم والخلاص (2) منهم خلفا عن سلف ، كما عرفناكم بذلك سابقا . وحدود عمالتنا هي التي نتصرف فيها كما وجدنا من قبلنا ، لم نتجاوزها . واما تجديد التحديد أو إبدال بعض العمالة بجزء من غيرها ، فمعلوم اننا نتوقف فيه على المشورة من جهة الدولة العثمانية .

وان كان لنا التصرف العام في الإيالة بما يقتضيه اجتهادنا من المصلحة . اما التقيص منها أو إبدال بعضها فلا يحسن منّا بغير إعلام مولانا السلطان ، وتقرير ما ينشأ لنا من المضرات بسبب ذلك لجنابه العلي . ولا زائد الا الخير والعافية . وكتب في 8 ذي الحجة (3) الحرام سنة 1253 (الاثنين 5 مارس 1838 م) .

وفي العشرين (4) من صفر سنة 1254 ، اربع وخمسين ، (الاثنين 14 ماي 1838 م) قدم مصطفى البلهوان [ باش حانبه من اسلامبول ] (5) وقدم معه من الاعيان ريانة (6) باي واسمه عثمان في فرقاطة عثمانية . وأتى بنيشان وسيف مرصع وعشرة مدافع برية بخزائنها (7) وجميع لوازمها ، عدا الخيل . واحتفل الباي لتلقيه احتفالا لم يُعهد مثله في تونس .

وذلك انه أوقف سائر الفرسان من أوجاق الصبايحية والحوانب وسائر المزارقية وفرسان العروش الذين قدموا للبيعة ، من باب حلق الوادي إلى باب الخضراء ، كل واحد على فرسه [ بسلاحه ] وثياب زينته . وأركب لتلقيه وزيره ابا النخبة مصطفى آغة ، في اعيان

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ولاية الجزائر » .

(2) الخلاص : استخلاص الجباية .

(3) كذا في خ و ع ، وفي ق : « في 8 ذي القعدة » .

(4) اي في 19 صفر (حسب التقويم) .

(5) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(6) كذا في خ ، وفي ع و ق : « اريالة » ، ولفظ ريانة في الاصطلاح العسكري العثماني معناه نائب أمير البحر .

(7) الخزائن : صناديق البارود .

من الخواص . ولبس الباي النيشان والسيف يوم الاحد السادس والعشرين (1) من الشهر ، في موكب حافل برجال الدولة والعلماء والداي واعيان العسكر ، على العادة . وبالغ في اكرام الرسول عثمان ريانة باي على قدر مقامه . ثم أدّى الرسول المذكور رسالته في طلب الدولة مقدارا معيناً من المال في كسل سنة ، وبالغ في تقليل كميته مع تحذير . فأجابه الباي بعدم الامكان لوجوه ، منها ان الذين تعرضوا لك في الطريق لكل واحد منهم مرتب على قدر الانتفاع به ، وقوام المملكة بهم . ومنها ان المملكة في نفسها فقيرة ، لقلة وجود مواد الثروة من الصناعات والتجارات وامثالهما ، حتى انها تحتاج الى الاستعانة بفضل مولانا السلطان ، لا سيما وقد ترتب فيها العسكر النظامي المقتضي وجوده زيادة الإنفاق في مسكنهم وقوتهم وملبسهم وسلاحهم على مقتضى الترتيب . ومنها ان عربان المملكة ، وهم السواد الاعظم ، يرونها جزية ، والاسلام يحجبهم عنها ، وتأنف نفوسهم من إخراج مال من بلادهم لغيرها على وجه حتمي ، ويرضون بالهدية وان كانت فوق المطلب بكثير . ولا يمكن غضبهم الا بحرب مجهول العاقبة . والمملكة لا تريد خرق عادة ورثها الخلف عن السلف ، وعلى اساسها بُنيت الطاعة ، وانتظم بها سلك الجماعة ، الى غير ذلك من الاعذار .

ثم رجع الرسول معظماً مكرماً ، ويوم الدواع أعاد المطلب للباي وقال انه أمر لا بد من وقوعه ، فتغافل عنه وأحاله على الجواب الاول .

وفي الحادي والعشرين من ربيع الاول (الخميس 14 جوان 1838 م.) (2) توفي العلامة القاضي شيخنا [ابو عبد الله محمد] (3) البحري بن عبد الستار ، وتولى خطة القضاء الفقيه الحافظ الشيخ محمد السنوسي الكفافي ، وتولى القضاء بيارجو عوضه الشيخ الفقيه ابو عبد الله محمد بن سلامة ، وتولى القضاء بالمحلة الفقيه ابو العباس احمد بن الطاهر .



ولم يزل الباي يفكر في أمر مطلب الدولة من المال . ثم جمع رجال دولته وتكلم معهم في هذا الشأن وقال : « لا أكون سبباً في خرق عادة المملكة ولو أدّى ذلك الى

(1) هو 25 حسب التقويم .

(2) في ع و ق الغل اسم الشهر ، وفي هامش ق ما نصه : « مصروف على تجهيزه في ربيع الثاني سنة 1254 ريلات 1045 كذا بدفتر الدولة » .

(3) الزيادة من ع و ق .

زوالي » ، فوافقه جمعهم ، حتى قال بعضهم : « إن غَصَبَتْنَا الدولة العلية بقوتها على هذا الامر ، فلنا ان ندافع عن انفسنا وأموالنا بما نستطيع من وجوه المدافعة » .

وأشار عليه الوزير الفاضل ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع بأن المكافحة (1) بالعصيان ابتداء لا تحسن ، والآوَى ان تقدم معذرة بعدم الإمكان ، وانه تكليف بمستحيل ، وان يكون ذلك بواسطة شيخ العصر وبركة المصر ابي اسحاق الشيخ ابراهيم الرياحي ، فاستصوب الجماعة رأيه .

وبعث الى الشيخ وقص عليه الخبر ، فارتضى (2) لذلك وقال : « اني حاضر للسفر متى أمرتني » ، فأحضر له كروية ، وعين معه للسفر الكاتب الفقيه ابا الثناء محمود بوخريص .

وسافر يوم السبت ثامن (3) ربيع الثاني من السنة 1254 (30 جوان 1838 م) ، وأصحابه بمكاتيب باللغة العربية ، وهو أول من كاتب الدولة العلية باللسان العربي ، متعللاً بأنه لا يضع ختمه الا على ما يفهم خصائص تراكيبه ، [بعد ان قرئت المكاتيب على الشيخ بين يديه واستحسنها] (4) ، ونص المكتوب بقلم العبد الفقير :

« اللهم بالثناء عليك ، نتقرب إليك ، يا فاتح ابواب القبول والإقبال ، ومانيح المنح التي لا تمر شواردها على البال ، تنزهت في العظمة والجلال ، ولم تول عبادك الإهمال ، بمحض الرحمة والافضال ، فأقمت لهم خليفة تعرض عليه الاحوال ، ويدفع عنهم باعانتك الاخلال ، ويسوسهم لصالحهم في الحال والمآل ، صل على سيدنا محمد خاتم الاسال ، والملجأ المنيع عند اشتداد الأزمة والاهوال ، وعلى آله واصحابه الذين ورثوه في الاقوال والاعمال ، وسرت مكارمهم مسررى الامثال ، ونستوهب منك عزاً لا يبلغ حدّه ، ونصراً يمضي في الاعداء حدّه ، لهذه الدولة العلية ، والسلطنة العثمانية ، والمملكة الخاقانية ، التي رفعت من الملة الحنيفة أركاناً ، وشيدت من معالمها بنياناً ، وأقامت للحق قسطاساً وميزاناً ، وروت احاديث العناية الربانية صحاحاً حسناً ، وورث ملوكها الارض وهم الصالحون سلطاناً يتبع سلطاناً ، حتى استتار الوجود ، بخليفة الوقت

(1) المكافحة : المواجهة ، المجابهة .

(2) ارتضى : اشته عليه الامر واقلقه .

(3) هو 7 حسب التقويم .

(4) ما بين القوسين ساقط من ن ، مثبت في ع و ق .

الموجود ، وهو مولانا السلطان الاعظم محمود . اللهم أعِنَّا على ما أوجبت له من فروض الطاعة ، وتأدية الحق بجهد الاستطاعة ، واحفظنا بعدله ورفقه من الإضاعة ، واجعل الملك فيه وفي عقبه الى قيام الساعة ، وعطِّف قلبه لسماع هذه الضراعة ، من ايالة تونس ومن بها من الجماعة ، على لسان احمد المقيم على طاعته فيها ، والمجتني من ثمرتها ما يلزمها ويسكفيها ، وطاعة خلافتك فرض ، على أهل الارض ، وهي عند الله أنمى فرض ، فاذا لم يُعرض الحال لديك فعلى من العرض ؟

تونس موضع شعائر الإسلام ، غريبةٌ ببعدها عن استمطار أياديك الجسام ، ومساحةٌ معمورها مسير نحو الستة أيام ، شأن أهلها التمتعش (1) من الزيت والبُر ، والصوف والوبر ، يعانون في تحصيلها أَلَمَ الحرِّ والقرِّ ، هذا غالب ما يَسُدُّ لهم الخَلَّةَ ، ويوجد غيرها لكن على قَلَّةٍ ، ومقدار زكاة ذلك لا محالة ، بحسب اتساع العمالة ، فما يَتَقَضَّل من خِصْبها فهو للَقَحْط عُدَّةٌ ، وبذلك دام عمرانها لهذه المُدَّة ، لا فضل من ذلك لِيَتَرَف ، ولو في سبيل شرف . هذا معظم دخل القُطر ، ان جاد السحاب بالقطر ، ويلزمه ضرورةً لحفظ عمرانها ، وحماية أوطانها ، وتأمين سكَّانها ، وإصلاح مراسيه وبلدانها ، حُماة وأجناد ، في كل جهة وبلاد ، لتأمين الجبال والوهاد ، وردع أهل الفساد . ويلزم العساكر الكسوة والإطعام ، والمرتب على الدوام ، ولا بدَّ لهذا العَدَد ، من آلات وعُدَد ، وقِوَام هذا بالمال ، وهو السبب في عرض الحال ، فان الدخل على قدر الإنفاق ، وذلك بشهادة الله غاية ما يطاق ، واذا كَلَّفنا الرعية المشاقَّ ، ونزعنا الرفق والإشفاق ، كان ذلك ذريعة للنفاق (2) ، وسُلَّمًا للشقاق ، وربما هرعوا للدولة شيوخا وولَدانًا ، وكهولا وشبَّانًا ، يسوقهم العجز ويقودهم الامل ، الى من في طاعته النيات منَّا والعمل ، فالسلطان ظل الله في أرضه يأوي اليه كل مظلوم ، وهذا من الواضح المعلوم ، وعبدكم حسب تأمين البلاد ، وحفظها من طوارق الفساد ، بمن معه من الحماة والأجناد ، سَهَرْنَا لإنامة أجفانها ، وقَعَبْنَا لإراحة شيوخها وولَدانها ، واقتحامنا المخاوف لآمانها . وما تنتجه غلاتها ، تُسَدُّ به خَلَّاتُها ، وعلى هذه السيرة ولائُها ، لا يقتنون لانفسهم مالا ، ولو بسطوا لذلك آمالا ، إلا ما يقتضيه الحال من العادات المألوفة ، والمراسم المعروفة ، يصدُّهم عن ذلك عدمُ اليَسَّار ، لا زهد الأبرار ، والله المطلع على الاسرار .

(1) تمتعش : عاش ، من المأش أو المعيشة .

(2) النفاق : الصيَان ، التمرد ، الثورة .



وبما بسطنا من الكلام ، في حال هؤلاء الإسلام (1) ، يظهر للقائم بمصالح الانام ، أن لا قدرة لهذه الإيالة على أداء المال في كل عام .

هذه ضراعة رعيّتك ، المستمسكين بطاعتك ، المستجيرين بحمايتك ، المرتجّين لعنايتك وإعانتك ، قمتُ بتبليغها بين يدي سلطنتك الخاقانية ، وهمّتك العثمانية ، وتبليغُها من الواجب في حقّي ، وهو ثمرة طاعتي وصدقّي .

والمأمول من تلك الهمة ، النظر لهذا القطر بعين الرحمة ، وهذا المال في خزائن الدولة لا يزيد ، وثقله على هذا القطر شديد .

فارحم أيها المولى ضراعتنا ، ولا تفرّق بما لا نطبق جماعتنا ، فالامر جلل ، وما قررناه بعضٌ من الاسباب والعلل ، وقد فكّرنا وأعيتنا الحيل ، فلم نجد لإجابة المطلب الا بتنقيص (2) عمل ، يفضي الى نقص وخلل ، او تثقيل يقطع من الرعية الامل ، ويضعف بسبب ذلك هذا العمران ، وتشتد الحاجة الى الاستمداد من كرم مولانا السلطان ، والله يجيرنا من حوادث الازمان . هذه وسيلة من بعدت داره ، ولم يكن بيده اختياره ، على لسان مملكة تونس ، مع قدوتها المونس ، صالح مصرها ، وإمام عصرها (3) ، شيخ الجماعة ومفتيها ، الذي دانت له البلاد بينها ، ونالت به الملة أقصى أمانها ، الساري ذكر نأليفه في النواحي ، السيد ابراهيم الرياحي ، وجهته حالتنا وانتظرت ، ومن سحائب رحمتك استمطرت .

اللهم أنت أعلم بنا مِنّا ، فلا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا ، وارزقنا الرحمة من سلطاننا ، وألهمه لإعانة أوطاننا ، انك على كل شيء قدير .

وكتب أوخر اشرف الربيعين ، سنة 1254 هـ .

وكتب أيضا في هذا الغرض الى شيخ الاسلام ، ونص المكتوب من إنشاء العبد الفقير :

« أدام الله وجود شيخ الاسلام ، هدّى للانام ، ولا أطيل بالثناء عليه ، فالذي ملا الكون يكفيه . اما بعد تقديم التحية ، المناسبة لتلك الرتبة العلية ، فان العلماء ورثة

(1) الاسلام : المسلمون .

(2) في غ : « بتنقيص » ، وفي ع و ق : « بتسرك » .

(3) كذا في غ و ق ، وفي ع : « مصرنا ... عصرنا » .

الانبياء ، وهم الملجأ لاهل الدنيا ، يرحمون بشفاعتهم يوم العرض ، أحرى في هذه الارض . وهذا قطر تونس موضع الرباط والجهاد ، ومقر العساكر والاجناد ، مساحة أرضه قصيرة ، وأعين من ناوَاه بصيرة ، وعمرانه بالفلاحة ، على ضيق الساحة ، هذا معظم عُمُرانه ، في غالب أوطانه ، وما يحصل من ذلك بيد وآليه لا يقوم بالمراد ، لولا الاقتصاد ، والوقوف بالمرصاد ، والله يعلم ان ذلك جُهد سكَانه ، ولو زدنا شيئا يَنْقُص بمقداره من عُمُرانه . وقد وقع من الدولة العلية أدام الله علينا ظلها ، وبسط فضلها ، طَلَب قَدْر معين من المال في كلِّ سنة ، فارتاع أهلها لسماع ذلك وطارت من أعينهم السنة ، اذ هو تكليف بما لا يُطاق ، وذريعة لتفرقهم في الآفاق ، يخرجون من أوطانهم ، ابتغاءَ معيشة أهلهم ولئدانهم . أما إذا أصرُّوا على الامتناع ، ومدَّوا يدَ الدفاع ، وقالوا : مَنْ أراد أن يطاع فيأمر بما يُستطاع ، فقد ذاع السرُّ وانكشف القناع ، وربما يجلدون من الشريعة تأويلاً يعتمدونه ، وللمال من الحرمة ما يقتضي أن ربة يموت دُونه ، وان دفعنا هذا القدر مما يؤخذ منهم في كلِّ عام ، فهو المؤذن لهذه الإيالة بالانصرام ، اذ الحُماة والكُفاة ، لا بدَّ لهم من الاقوات والمرقات ، والسلاح والآلات ، وغير ذلك من الضروريات . وقد ذكرنا الحال لمقامكم العلمي على سبيل الإجمال ، والرسول يوضحه بالمقال ، وهو الشيخ العكَم ، ورُكن المالكية المُستكَم ، رأس الفتوى ، وركن العلم الاقوى ، صالح عصرنا ، وإمام مصرنا ، السيد ابراهيم الرياحي . وجهناه الى الدولة العلية بعرض حالنا ، وتقرير أعمالنا ، ورجونا بلوغ آمالنا ، والدولة العلية ترحم الضراعة ، وتُرقِّقْ لهذه الجماعة . وأنت عكَم الهُدَى ، وركن الاقتدا ، وعلى يد العلماء تطلب الرحمة ، وتُدفع بعلومهم الخطوب المدلهمة ، والدين النصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم . وجنابكم من أهل الذِّكْر ، وهذه نعمة يجب لها الشكر .

وقد وجهنا الرسولَ إلى بابكم ، وطلبنا الإعانة بالحق من جنابكم ، والله يجعل مساعيكم ناجحة ، ويرينا نتيجة مقدمات أعمالكم الصالحة ، ويبقيكم للدين عُدَّة ، ويفسح لكم في المُنْدَّة ، ويرحم بأقوالكم الشرعية هذه الإيالة ، بحرمة مَنْ خُتِمَ به الرسالة . حُرر في أواخر أشرف الربيعين ، سنة 1254 هـ .

فأنت ترى هذا الباي كيف قرر حال البلاد ، وكانت يومئذ كما قال ، وإن غفل عن تقريره لِمَا حملها من مصاريف العسكر ما أوهن قواها ، كما تراه ان شاء الله في بقية اخباره . ومن كرمته عليه نفسه هانت عليه شهوته .

ولما وصل الشيخ الى اسلامبول أحسنت الدولة قِراه واکرمت مثواه ، على عادتها في اكرام الضيف لا سيما اذا كان من أهل العلم . وقابل السلطان ، ولما رآه قرأ فاتحة الكتاب وتلا قوله تعالى : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ » الآية (1) وأنشد قصيدته المشهورة :

العزُّ بالله للسلطان محمود	ابن السلاطين محمود فمحمود
خليفة الله ما أعلاه من شبه	بالصالحين وبالنبي داود
من آل عثمان سادات الملوك ومن	جاؤوا كعقد من الياقوت منضود
هم السلاطين ما ذرّت ولا غربت	شمس على مثلهم في نصر توحيد
وجاء سلطاننا المحمود بعد هُـم	بكل رأي من الآراء مسعود
لم يعطيه الله ملكا في خليفته	الا لمعنى من الأغيار مفقود
دانت لدولته الاعناق خاضعة	من كل ذي والد منهم ومولود
تعشى السلاطين من بعد بؤادره	لما له من جلال غير مجحود
وكلُّ باشا وإن جلّت مكانته	فليس غير فتى في الرق مصفود
يا عزّ دين الهدى ان يخش منقصة	بكل قرّم من الإسلام صنديد
وقوة من لدن ربّ العلا بهرت	برا وبحرا بنظم غير معهود
العُجم تشهدها والعرب تعلمها	شرقا وغربا من البيضان والسود
أنت المؤمّل في كلّ المهم فمن	أتى لبابك قصدا غير مطرود
وقد أتيتك من أقصى البلاد وفي	ظنّي الجميل بلوغي منك مقصودي
دامت معاليك للاسلام مرحمة	وللطغاة عذابا غير مردود
بحرمة المصطفى أهلى الإله له	أزكى تحيته من غير تحديد
تعم أتباعه في الدين قاطبة	والخلفاء إلى السلطان محمود

ولما اجتمع بالوزير الصدر الاعظم رشيد باشا انشده :

الصدر الأعظم مقصد المتوسّل	وهو المؤمّل في القضاء المنزّل
ولذلك من أقصى البلاد أتيتُه	لأفوز منه ببرء داء مُغضِل

يا ملجأ الصالحين والعلماء والسيوف ومن في الناس ذو قدر علي  
 فيما حباك الله من خلُق سرى كالراح في الارواح لا في المتصل  
 وحباك من خلُق كأن الشمس في شرف تُسرى في وجهك المتهلل  
 لشفع لنا فيما دهي ترشيش من إلزامها غرم الخراج المتقل  
 الفقر يمنعها وما تخشاه من شر الحوادث في الزمان المقبل  
 أرجو لك البشري بنيل شفاعة تأتيك من عند الرسول الافضل  
 دامت علاك لمن أحبك جنة بنعيمها قلب الحواسد يصطلي

ومدح السلطان ايضا بقصيدة طويلة مطلعها :

ركبت متون اللج وهي لها وجف ولي منه أهوال يود رهينها ،  
 وارواحها بالسباحات لها عصف ولكتني ما زلت أمزج مرها  
 وقد خشي الإغلاق (1)، لوجاءه الخنف يحلو رجاء طاب منه لي الرشف

ومنها :

نعم يا أمير المؤمنين وكهفهم أتيك ضيفا مستغيثا شأنكم  
 إذا مستهم ضر فمك له كشف توالي علينا الضعف من كل جانب  
 إغاثة لهفان وأن بكرم الضيف فجتناك نبغي العفو والطف والرضى  
 وما زال ذلك الضعف يتبعه ضعف فعيشة من ترضى عليه هنيئة  
 وهل من سواك العفو يطلّب والطف رضاك رضى المولى لانك ظله  
 وكيف ليعيش دون عفوك أن يصفو أدام لنا المولى إضاءة شمسه  
 وللظل من أوصاف صاحبه وصف وليس لها يوما غروب ولا كسف

وقال الشيخ يمدح القسطنطينية :

بلد الخلافة في الجمال فريدة لمن ظن يحسن وصفه فكانما  
 ولشأنه عرض مداه بعيد نحو الصعود الى السماء يريد

(2) غلق الرهن (عل وزن حسب) في يد المرتين : استحققه المرتين ، وذلك اذا لم يفتح في الوقت المشروط (اللسان) .

وامتزج الشيخ بعالم المشرق وفخر الائمة ابي العباس احمد عارف باي ، وقعت بينهما مراسلات بالشعر والنثر ، وعرف كل منهما ما لصاحبه ، فاستجاز الشيخ وأجازه نظما منه :

واذا سمعت علومه فاسمع الى تلك البحور طمت فهل من غارف  
قسما بما يحويه من حسب ومن نسب وفضل لاحق أو سالف  
لو أبصر النعمان بهجة سمته لا هنز عطفها كاهتزاز العاطف  
هذا ومن عجب رأيت سؤاله مني لإجازته كشيخ عارف  
كلأً واني والذي رفع العلا أخرى بأن أروي عليه صحائف  
لكنني لا أستطيع خلاقه وعليه فيما شاء لست بحائف  
فأقول إني قد أجزت له الذي قد صح لي من قالد أو طارف  
موصى لبراهيم منه بدعوة يرجو الرياحي بها أمان الخائف

ورجع الشيخ اواسط رجب من السنة 1254 (اوائل اكتوبر 1838 م) ، بالغنا من سفارته شيئا (1) من الامل ، وهو ان الدولة لا تلح في الطلب ، ويتوقف الحال لوقت آخر ، واذا افضى هذا المال لضرر فلا حاجة به .

وفي ليلة الثلاثاء الخامس عشر (2) من رمضان السنة (3 ديسمبر 1838 م) ، توفي الوزير الشهير الطيب الذكر ابوالربيع سليمان كاهية ، ودفن بموكب عظيم في صحن التربة الحسينية .



واقبل الباي ، بعد قدوم ريالة باي ، في جمع العسكر وقرتيه وتلريه ، وصرف كل عنايته لذلك ، حتى جمع جموعا لم تنتظم لغيره من ملوك تونس ، وإن أجمعت بدخل المملكة وخرجها [وهي فقيرة كما شهد بذلك في مكاتيه للدولة المتقدم ذكرها ، وكما شهد عالمها ومفتيها وإمامها ، وصالحها في شعره المتقدم ذكره] ، حتى لزمه إحداث ضرائب ومكوس تغافل فيها عن الملتزمين . وهذا أثر نقصانا كثيرا في ثروة

(1) في ق و ع : « غالب الامل » .

(2) يوم الاثنين 16 حسب التقويم .

المملكة وعمرانها [الناقص] (1) ، مع غلث (2) السكة المتقدم ذكره في ايام عمته  
أبي عبد الله حسين باي رحمه الله .

ولم يزل حريصا على إتمام قصره البديع بباردو ، وتمّ في أسرع وقت . وسكنه  
يوم الاحد الرابع عشر (3) من شوال السنة 1254 (30 ديسمبر 1838 م) . واقترح ان  
يكون اول داخل له هو الفاضل الفقيه ابو عبد الله محمد بن عبد الكبير الشريف  
إمام الجامع الاعظم ، تيمنا بنسبته العلوية ، لما له من التشيع الحبسي في آل البيت . ثم  
دخله اهل المجلس الشرعي ، ثم دخل الباي إثرهم وعظم مقدمتهم وأحسن مؤانستهم ،  
وخرجوا داعين مسرورين .

وجعل الباي في هذا القصر قسلة داخله عمرها بألف من العسكر النظامي لحراسته  
الخاصة ، على التناوب من سائر العسكر ، وداخلتهم مداخلة التحام للعصبة .



وفي أيامه تقوى المتجر [في الزيت] بالساحل ، وأكثره للواردين على المملكة  
من التجار ، فكثرت لديه الشكايات [من أهل الساحل] وأضجره ذلك وأهمته .  
وسبب ذلك حيف العُمّال ، لانهم يريدون انتزاع ما بأيدي الرعايا لاسباب تنوعوا في  
اختراعها ، وهم مدينون لغرمائهم من الواردين على المملكة ، بل كثيرهم مستغرق الذمة  
لهم . وانفتح من يومئذ باب الاحتماء . واذا جاز للمسلم ان يقاتل الصائل على ماله ، مع  
ما في الشريعة من حرمة النفس ، فالاحتماء بالواردين من باب أخرى ، وان كانوا من غير  
اهل الملة . فلزمه ، والحالة هذه ، انتخاب ثقة أمين . فاختار لولاية سوسة الحازم الكبّيس  
الذكّي (4) أبا عبد الله محمد خزنة دار ، وقال : « حاجتي إليه بين يدي قوية ، وأقوى  
منها كفاية هذا المهم مع الواردين » ، فزان خطته [وعمل فيها بالعقل لا بالشهوة] (5)

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) في ع و ق : « بغلث » .

(3) هو 13 حسب التقويم .

(4) في خ : « الذكي » وفي ع و ق : « الكامل » .

(5) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وبطلت الشكايات حتى كان يقول : « مالي لم أسمع ذكر سوسة ؟ » ، وسار في الرعية سيرة عدل ، وأثر الحق ، ودانت الاجانب لاحكامه عليهم ، حتى كان الباي يسميه في مغيبه « قاضي سوسة » .

وفي السنة 1254 ، أمره بجمع المجلس الشرعي عنده يوما في الاسبوع ، على عادتها السابقة.



وفي السنة 1254 ، أبطل الترتيب المعتاد للملك الحضرة ليلة العيد ، وقد كانوا يحتفلون ببيت الباشا من باردو ، وتقف الاعيان [ والمخازنية ] سماطين ، ويدخل المغنون من الترك بآلات طربهم ، ويجلسون أمامه ، ويغنون برطانة الترك برهة ، تودُّدا للجند ، وبعدهم يدخل المغنون بالعربية بآلات الموسيقى برهة من الزمن ايضا ، والشموع تنور ودخان الطيب يعطر الارحاء ، وقد ذكر هذا الترتيب الوزير أبو محمد حمودة بن عبد العزيز في تاريخه [ عند ذكر ما لمخدومه من التراتيب ] (1) ، فأنف ، لسمو همته ، من ملك يجمع رجال دولته لسماع الغناء على رؤوس الاشهاد ، في ليلة موسم شرعي ، وإمامه في الصلاة حذوه ، فأبدل ذلك بما هو المناسب ، وهو أنه لما يجتمع الديوان ، يأتي الامام بجامع الصرايا ، والخطيب بجامع باردو ، والخوجات ، فيجلسون ، ويقرأ باش خوجه ربع حزب من القرآن ، كقوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » ، اذا كان عيد فطر ، وكقوله تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا » ، اذا كان عيد اضحى . ثم يقرأ الإمام أحاديث من صحيح البخاري في فضل الصوم او فضل الحج . ثم يختم المجلس بدعاء أمرني بانشائه ، وهو :

« يا حي يا قيوم ، يا مَنْ لا تأخذه سنة ولا نوم ، علّقت على كرمك جزاء الصوم ، ولا يشغلك شأن يوم عن يوم . نسألك بتقدس ذاتك ، وتنزيه صفاتك ، وباهر آياتك ، وعلمك المحيط بسائر مخلوقاتك ، أن تصلي وتسلم على مركز دائرة الاكوان ، وتاج هامة أولي العزم والشأن ، سيدنا ومولانا محمد الذي أيّدته بمعجزة القرآن في رمضان ، وعلى آله وأصحابه السادة الاعيان ، الباذلين في محبتك (2) الارواح والابدان . اللهم بباب

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من ن ، مثبت في ع و ق .

(2) كذا في ن ، وفي ع و ق : « في محبته » .

كرمك أنسخنا رجالنا ، وبوسع فضلك علّقنا آمالنا ، متوسلين برسولك الكريم ،  
القاتل : توسلوا بجاهي فان جاهي عند الله عظيم ، ان تملا قلوبنا لإيماننا ، وخشية  
عرفانا ، وارزقنا منك المغفرة والرضى ، واللف في القدر والقضا .

اللهم امددْ هذه الدولة ، بالدوام والصولة ، ببقاء ناشر فخرها ، ورافع قدرها ،  
ومخلّد ذكرها ، وكفّفها المكيّ يَمّهْرها ، ملكنا وسيدنا أحمد ، لا زالت مآثره في  
السماء والارض تُحمد .

اللهم ارزقه النصر والاسعاد ، وأعنه على القيام بمصالح العباد ، وعمران البلاد ،  
والاستعداد لسدّ ابواب الفتن والفساد ، وحكّم سيفه في أهل البغي والعناد ، وبلغه من  
الخير غاية المراد ، حتى يكون أحمدَ حامدٍ وأحمدَ محمود ، ما دام هذا الوجود .

اللهم أعنا على ما أوجبت له من فروض الطاعة ، واجعل الملك فيه وفي عقبه إلى  
قيام الساعة ، يا مَنْ يجيب الدعاء ويقبل الضراعة .

اللهم احفظ من الزيغ اعتقادنا ، واحرس بحفظك بلادنا ، وأصلح أهلنا وأولادنا ،  
وانصر حماتنا وأجنادنا ، ووفر في الإيمان أعدادنا ، واحفظ جموعنا وآحادنا ، واكفنا  
حسادنا وأضدادنا ، وزين بطاعتك مواسمنا وأعيادنا .

اللهم لا تجعل في جمعنا هذا شقيّا ولا محروما ، ولا مذموما ولا ملوما .

اللهم أصلح المؤمنين ، وبلغ الحجاج والمسافرين ، ونفّس كرب المكروبين ،  
واختم لنا ولجميع المسلمين ، بما ختمت به لاوليائك المتّقين . سبحان ربك ربّ العزة  
عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . وعند تمام الدعاء تُقرأ  
فاتحة الكتاب وينفضّ الموكب .

واستمرّ هذا الترتيب بهذه السُنّة الحسنة إلى يومنا هذا .



وفي الثالث والعشرين من محرم ، فاتح شهور سنة 1255 ، خمس وخمسين ومائتين  
والف (الاثنين 8 افريل 1839 م.) ، بعث الباي وزيره وابن تربيته أبا النخبة مصطفى خزنه  
دار ، ومعه المقرب جوزاب راف ، وفرحات قرجي وكان يومئذ قائم مقام بعسكر الخيالة ،



والكاتب أبا محمد حمودة الطرابلسي ، إلى السلطنة الفرنسية ، وصاحبها يومئذ السلطان لويز فليب ، لمخالفة وقعت مع القنصل بتونس في نوازل . وكتب الباي لوزيره مكتوب تفويض صريح بالتزامه جميع ما يفعله الوزير ، وكان اذ ذاك في عنفوان شبابه . وعارضه الوزير ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، والوزير ابو عبد الله محمد الاصرم رئيس الكتاب ، بأن حالة الشباب لا تقتضي مثل هذا التفويض المطلق ، وأجابهما الباي بأن الفطرة السليمة تسطو على غليان الشباب .

ووصل الى فرنسا فقابلته السلطنة بما يناسب فخامتها .

وفي مغيبه مرض الباي بالحمى واشتد مرضه وخيف عليه ، وهو مع ذلك يخرج كل يوم من فراشه [ الى بيت الباشا ] (1) بتكلف للقاء الناس ، والوزير مصطفى صاحب الطابع يباشر الامور عن لذه .

ولما عوفي أتاه وفد التهتة من الحاضرة ، ولما دخلوا عليه مستبشرين حامدين شاكرين ، حيّاهم وأحسن لقياهم وقال لهم : « وأنا أشكر الله الذي أحياني لخدمتكم » ، فاستعظموا هذا المقال ، اذ لم يكن مألوفاً من ملوك الإطلاق لرعاياهم ، لان غالب رعايا المسلمين يومئذ لا يعرفون من ملوكهم الا الاستعباد .

ولما دخل قصره أعدت عليه مقالته وذكرته له ان الناس استعظموها ، وشم مني رائحة الإنكار فقال لي : « هل انا الا وكيل عنهم في مصلحتهم ؟ والوكيل في الحقيقة خديم الموكل ، وما يمنعني أن أقولها ويراهها الناس فضلاً ؟ » ، وقد لاح له من طبع الزمان ما سهل عليه مقالته .

ثم رجع الوزير من فرنسا ، بعد أن سرّح نظره في حواضر أوروبا ، فوجد الباي بحلق الوادي إثر إبلاله من المرض ، وتم برؤه برؤية وزيره ومقام ابنه ، مع قضاء بعض الوطر .

وبعد أيام أتى الوزير بمكتوب التفويض للباي بمحضر الجماعة وطلب منه أن يمزّقه ، ففعل .

(1) ما بين القوسين ساقط من ن ، مثبت في ع و ق .

وفي هذه السنة ، 1255 (1839/40 م.) ، جعل الباي عسكر الخيالة ، وهو في غُنية عنه ، وأسكنهم البرج الكبير بمنوبة ، وقال : « لَأَنَّ يكون رباطَ عسكر أحسنُ من بقائه قصر نزهة ، وهو يسع العسكر وضباطهم وخبولهم » .

وصورة جمعه لهذا العسكر أنه أذِن بتسريط (1) الفرسان على العادة ، وقعد المقعد الخاص لذلك ، فانتخب حال مرورهم عليه جمعا من حوائب الترك ومماليك السقيفة وصبايحية الترك ، ولم يأخذ أحدا من حوائب العرب ولا من الصبايحية ، لانهم جند مستقلٌ من الفرسان ، بل هم فرسان المملكة على الحقيقة ، يكابدون الاسفار ، ويقتحمون المخاوف والاعوار . ورَسَمَ جميع من انتخبه في ديوان الخيالة ، على الترتيب النظامي ، وأمر عليهم مملوكه ابا العباس أحمد ، أخا وزيره أبي النخبة مصطفى خزنة دار ، وكان فارسا مقداما . ووجه لهم شطر عنايته ، ويركب لتفقد قشلتهم غالب الايام . وأبطل ديوان صبايحية الترك من يومئذ . وزاد في هذه القشلة أبنية بعد ذلك ، على يد أبي محمد خير الدين لما صار أمير لواء .

وفي ذي الحجة من السنة 1255 (فيفري 1840 م.) ، تمت قشلة الطبجية بالمحل المعروف بالقنديل من القدان خارج الحاضرة [وهي من الامور المحتاج اليها اذ غالب الدفاع بالمدافع في هذا العصر] (2) ، وجاءت كأحسن ما أنت راء ، ودخلها العسكر يوم الجمعة ثالث الشهر (7 فيفري) .

وأصلها قصر نزهة لعم أبيه ابي القداء اسماعيل باي ، فزاد فيها الى ان صيرها تَسْعُ آلَايَيْن (3) من الطبجية بمدافعهم وخزائنهم وخبولهم . وجعل بها دار صناعة لإنشاء السلاح وضروريات المدافع ، وأحكم بها خزنة للمهمات ولوازم الحرب . وجميع عسكرها من الطبجية السابقين والقادرين على الخدمة النظامية من جند الترك وغيرهم . وأمر على الطبجية ابا اسحاق ابراهيم التركي ، من كبراء عسكر الساحل ، وكان يثق به ويستخلصه ويستنجه ، وصدقت فراسته فيه . ووجه العناية لهذه القشلة ولم ينس غيرها . ولم يزل حسن ترتيب الطبجية يزداد إلى ان بلغ به المراد .

(1) التسريط : مرور الجند امام القائد ، عرض الجيش (بوسية) .

(2) ما بين القوسين ساقط من ع ، مقبت في ع و ق .

(3) كذا في ع ، وفي ع و ق : « تسع اربعة آلاف » .

وفي هذه السنة 1255 ، أحدث الباي لزمة الصابون الطري<sup>١</sup> بحيث [ لا تصنعه و ] (1) لا تبيعه الا الدولة ، وبنى لذلك مصنعا . ورتب على الصابون اليايس الذي يخرج من المملكة أداء<sup>٢</sup> على القنطار ، يسمى « القنطرية » ، يدفعه صانعه ، واذا خرج يؤدي مشتريه السراح .

وأحدث أيضا لزمة الصاع ، وهو ان بائع الزيت بغير الحاضرة يؤدي صاعا على كل مطر (2) ، اما يبيعه بالحاضرة فله قانون مخصوص في فندق الزيت ، لا يقبل الزيادة . وزاد أيضا في سعر الملح ، الذي لا تبيعه الا الدولة ، زيادة<sup>٣</sup> بالغة .

ورتب المحصولات في بلدان الإيالة مثل المرتب بباب البحر [ من الحاضرة ، والتزم ذلك ناس ] وحجر<sup>٤</sup> بيع الدخان [ بالحاضرة وبلدانها واسواق عربانها ] (3) بحيث لا تبيعه ، - لدولة ولا يشتريه غيرها من أهل زراعته ، وسعر أنواعه في الشراء من الفلاحة كما سعر يبيعه .

وأول من التزمه [ في المملكة ] ابو عبد الله محمد بن عتياد وربح فيه [ ربعا ذريعا ] وأهدى من الربح مركبا بخاريا للدولة ، وهو اول فابور ملكته الدولة ، وسمّاه الباي « ابن زياد » . وانكسر في شعبان من سنة 1257 ، سبع وخمسين ومائتين وألف (سبتمبر - اكتوبر 1841 م.) على ساحل المعمورة [ من بلدان الوطن القبلي ] (4) عند رجوعه من مالطة ، بعد ان قاسى من عذاب البحر أهوالا<sup>٥</sup> .

واضطره مصرف العسكر الى هذه الضرائب [ المنوعة ] التي أثرت نقصا على نقص من عمران المملكة ، [ وان كان لا يخلو المرء من عدو<sup>٦</sup> يقدح وودود يمدح ] (5) .



وفي السنة 1255 بلغ للحاضرة وفاة السلطان محمود خان في التاسع عشر من ربيع الثاني (الثلاثاء 2 جويلية 1839 م.) ، ولاية ابنه السلطان عبد المجيد خان [ صاحب

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) مطر : مكيال للزيت يتراوح بين 28 و 28 كيلو ، ويختلف باختلاف الجهات (بوسيه) .

(3) الزيادة عن ق و ع في كامل الفقرة .

(4) الزيادة عن ق و ع في كامل الفقرة .

(5) الزيادة عن ق و ع في كامل الفقرة .

التنظيمات الخيرية ، فكتب الباي أوامره لبلدان المملكة يعلمهم بذلك لتدعو الخطباء على المنابر للسلطان عبد المجيد [1] ، وعيّن مركبا حريا لتعزية السلطان وتهنئته ، وكتبه بقلم العبد الفقير بما نصّه :

« لك الحمد ونحن على المصيبة صابرون ، انا لله وانا اليه راجعون ، نحمدك وأنت المبدىء المعيد ، مقلّد الامانة من جيبك الى جيب ، ومعرف عوارف اليمن الجديد ، بخليفتك عبد المجيد ، ومظهر العناية بالاسلام للقريب والبعيد ، ربطت عوائد النصر والتأييد ، بمبادئ التوفيق والتسديد ، لاولي المزية التي اقتضتها ارادة المريد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ناظم الخلال السنية نَظَمَ الفريد ، والملجأ الاعظم في الخطب الشديد ، مظهر أنوار التوحيد ، والهادي الى صراط العزيز الحميد ، وعلى آله وأصحابه أولي القصد السديد ، السادة القادة الصيّد ، القائمين في أمته بحفظ ما أنزل عليه من الوعد والوعيد ، والرضى عن الخلفاء أولي الظل المديد ، من الخليفة أبي بكر الى السلطان عبد المجيد .

هذا وانه ورد الى الإيالة التونسية ، من الابواب العلية ، التي تعنو لعزة قدرها الابواب ، وتعزى الى عدلها الحكمة والصواب ، لا زالت محلّ صدور المآثر العظام ، مأمونة من اختلال النظام ، لإعلام بخطب روع السّرّب ، وكدر الشّرّب ، وهو انتقال مولانا السلطان محمود الى دار البقاء ، وإقباله على معارج الارتقاء ، ألحقه الله بالخلفاء الراشدين ، وجعله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّديقين والشهداء والصالحين . فيآله من إعلام ، اهتزت له رواسخ الاعلام ، أشرق المحاجر بماء دموعها ، وأضرمت الجوانح بنار وكوعها ، نعى الى المجد إنسان عينه وعين إنسانه ، وإلى الاسلام سلطان محمود ومحمود سلطانه ، شأن الدنيا أن لا تفتّر عن سهم تسدّده لغرض ، وجوهر ترميه بعرض . ولو كان داعي الردى ، مما يقبل الفدا ، كانت نفوسنا بعض فدائه ، والمبادرة تسبق أوّل ندائه ، لكنّه حكم لا يعترض فصله ، ولا يؤوّل مستنده ولا أصله ، لم يغن فيه الدفاع ، ولم ينفع فيه غير الاسترجاع ، بالرضى تلقيناه ، وبالصبر قبلناه ، والدنيا ليست بدار قرار ، وما عند الله خير للأبرار ، فرزية المسلمين به واحدة ، وظواهرهم على بواطنهم شاهدة .

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

غير ان هذا الإعلام الذي فجع ، ومنع القلوب أن تقرّ والعيون أن تهيج ، غمرته  
البشرى ، وغلبته المسرة الكبرى ، وهي ان المجيد سبحانه قلّد السلطنة لعبده ، والسلطان  
محمود خلفه ابنه وولي عهده ، فأصبح الاسلام بعزّ وتأيد ، وأمل جديد . هذه نعمة  
أبدلت العزاء بالهناء ، وفتحت ابواب المنى ، وأي ترّح ، يبقى بعد هذا الفرّح ؟ قام  
بالامر من اختاره الله لحمله ، وبقي النور الساطع في محله ، ولم ينتقل سرّ الله من أهله ، إذ  
الآمال ببقاء آل عثمان منوطة ، وسعادة الاسلام بسلطنتهم مشروطة ، وفي هذا الموجود ، ما  
يزيد بفضل الله على المفقود ، ولذلك اهتزّت بولايته الارض وربّت ، وبشكر الله أعربت .

وهذه المملكة التونسية ، منبت طاعة السلطنة العثمانية ، أخذت من العزاء والهناء  
النصيب الاوفر ، والحظ الاكبر ، على عادة طاعتها ، ومنتهى طاقة جماعتها ، واهتزّت  
منابرها بشكر الله الحميد ، على إقبال دولة السلطان عبد المجيد ، قام بتبليغ ذلك للباب  
العالي ، ومصدر المعالي ، عبّد الدولة والمتقرب الى الله بطاعتها ، وخادمها في مصالح تونس  
وحفظ جماعتها ، أحمد باشا باي .

والباب العالي زاده الله علواً ، وإجلالاً وسمواً ، يقبل بضاعتنا على قدر مقامها ، اذ  
لا نقدر على أداء ما يجب للدولة من إعظامها ، واذا عظم المقام الكبير ، وتسامى عن  
التقدير ، تساوى فيه الجمل واليسير ، والتافه والخطير .

فحسبنا الدعاء بالنصر وطول الدوام ، وهو في الحقيقة لسائر الاسلام .

اللهم أعنا على ما أوجبت لسلطاننا من فروض الطاعة ، واحفظنا بعدله من أسباب  
الإضاعة ، وأديم السلطنة في سلسلته (1) الى قيام الساعة ، واجرس بشوكته السنّة  
والجماعة ، بحرمة سيد الاتقياء ، وخاتم الانبياء ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، في  
البدء والختام .

حرر في تونس سادس جمادى الثانية من سنة 1255 ، خمس وخمسين ومائتين  
وألف (السبت 17 اوت 1839 م) .

وأتى من السلطنة الجواب الحسن ، بتقرير العادة على أحسن سنن .

(1) كذا في غ و ح ، وفي ق : د في عقبه .

ليلة الاربعاء الحادي والعشرين (1) من أولي الجماديين من السنة 1255 ، توفي اكبر الائمة بالجامع الاعظم جامع الزيتونة ، العالم الفاضل ابو عبد الله محمد بن عبد الكبير الشريف ، وتزاحمت الافاضل على شهود جنازته وحمل جسده الشريف . وأولى البايع عوضه لإمام العصر ، وصدر أفاضل هذا المصير ، شيخنا ابا اسحاق ابراهيم الرياحي . والإمام الثاني يومئذ هو الشريف الفاضل المنصف ابو الثناء محمود محسن ، فلم يستكف من تقديم الشيخ عليه ، بل عدّه من الانصاف . ولم يلبث ان عرف كل منهما ما لصاحبه من الفضل ، وقدّمه على نفسه ، والفضل يعرفه ذوهه .

وفي [ غرة ] (2) شعبان من السنة 1255 (الخميس 10 اكتوبر 1839 م) ، عقد البايع شروطا مع دولة البلجيك ، وقبل قنصلها باجلال واحترام ، كما ينبغي لامثاله .

وفي غرة رمضان السنة 1255 (الجمعة 8 نوفمبر 1839 م) ، توفي الفقيه العالم ابو عبد الله محمد السنوسي الكافي القاضي ، وقدّم البايع عوضه الفقيه التحرير العالم ابا عبد الله محمد بن سلامة .



ولم تزل عنايته مصروفة للمهمات والاجناد ، وتقوية روابط الالتحام والوداد ، بين الجموع والآحاد ، من أهل البلاد . ولذلك جعل مرتبا للفقهاء المالكية مع العسكر النظامي مثل مرتب الفقهاء الحنفية مع جند الترك .

وأصل هذا المرتب للحنفية اذ جند الترك مشروط على جميعهم انه اذا وُلد لاحدهم ذكر يأتى لتقييد اسمه بدفتر الجند ، ويرسم فيه بفلس ، واذا مات أبوه يرسم بفلسين ، حتى يبلغ الحلم فيرسم باربعة نواصر (3) . ويباشر الخدمة من السفر في المحال ، والنوبة وهي حراسة الحصون في بلدان المملكة ، وغير ذلك ، مترقيا في سلم الخدمة الى نهاية المرتب . ومن لم يفعل ذلك مسّه العقاب ، ليكون جند الترك مختلطا بالمولودين في

(1) ذكر في التراجم ان الوفاة كانت في 27 جمادى الاولى دون اسم اليوم ، وذكر هنا اليوم وهو (الثلاثاء) ليلة الاربعاء ، وذكر أنها توافق 21 من الشهر ، وجما للمعلوماتين يمكن القول ان وفاة هذا الامام كانت ليلة الاربعاء 27 جمادى الاولى 1255 حسب الرؤية ، و26 منه حسب التقويم .

(2) الزيادة من ع و ق .

(3) كان الفلس في تونس نقدا نحاسيا قيمته نصف ناصري ، أو سلس الحروبية ، أو جزءا من تقسيم الريال الى 104 ، والريال ستون صانتيما (الفريد نيكولا) . والناصرى اربعة منه تساوى 7 صنتيمات (دوزي) .

المملكة . وربما تُثبت الدولة في ديوان الجند من كان خاملا من أهل البلاد ، بدعوى أن أباه اوجدّه كان تركيا . بخلاف جند الجزائر ، فإن إبناءهم من عامة البلاد ولو كان أبوه دايا ، إذ لم يكن فيها بيت ملك ، كما تقدّم ، لأن ذلك ينافي تلقّف الامر بينهم . وأولاد الجند التونسي المحسوبون في ديوان الجند تنجم فيهم العلماء المحتاج إليهم في الخطط العلمية كالقضاء [بالمذهب الحنفي] ، والفتوى والإمامة والتدريس والتوثيق ، وتشجّع الملوك بطرحهم من ديوان الجند ، فتجدهم في ابتداء أمرهم يعطون بدلا في السفر بمال ينتفع به القادر على المشقة ، فاذا تأهل لِحُطّة يكتبون له تسريحا من الخدمة بحيث لا يلزمه العوض ، ويُبقون له مرتبه الجندي . وتوالت على ذلك الازمة ، وظن بعض الناس ان ذلك عناية بعلماء المذهب الحنفي الذي هو مذهب الامراء بعد انقراض الدولة الحفصية [ويشهد له ظاهر الحال] (1) وربما تأثرت نفوس المالكية من ذلك ، وهم السواد الاعظم في المملكة ، ولا نسبة بينهم وبين الحنفية في العدد .

وفي العشرين من ذي الحجة في السنة 1255 (الاحد 24 فيفري 1840 م.) ، أمر بجمع أهل المجلس الشرعي من المالكية والحنفية أمام محراب جامع الزيتونة بين الظهريين ، وأرسلني إليهم بمكتوبه الذي مضمونه انه جعل لعلماء المالكية مرتبا مع الجند النظامي مثل مرتب الفقهاء الحنفية مع جند الترك ، دفعا لما عسى ان يتوهم من الحيف في عدم التسوية ، « وكلّهم من رسول الله مُلتَمِس » .

وقرأ المكتوب على المشايخ أمام المحراب شيخنا صدر المالكية ابو اسحاق ابراهيم الرياحي ، ولم يحضرنني لفظه .

ولما حصلت هذه التسوية المجهول عليها الطبع البشري ، وقعت في المملكة الموقع الحسن ، وعلقت في أعناق بنيها المِنَن ، وأظهرت ما في نفس ملكيهم من حب الوطن ، وللناس ما ظهر والله ما بطن ، حتى اهتزّ لذلك طود العلم وموضع التقوى الشيخ ابو اسحاق ابراهيم الرياحي ، وكاتب الباي بما نصّه :

جبرت باحسان لمذهب مالك قلوبا كواها الكسْرُ يا خير مالك  
وما جبرها نيل الخطام وإنما بتنوير ليل من دجى الحيف حالك

(X) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

تداركت تفريطا من الناس غفلةً      وكم لك من رأي عزيز المسدرك  
فسويت ما بين الافاضل رتبة      فهم من بساط العدل فوق أرائك  
أتيت بمقياس عزيز تباشرت      بفرحته الارواح من كل ناسك  
يميننا لو النعمان قُرر عنده      لقسر به عينا ، ولست بآفك  
جرى لبَن من ثدي أحمد فارقوى      به حنفي في الإخفاء ومالكسي  
بما أودع الرحمان فيه وما يرى      لسيدنا الباشا به من مشارك  
أدام لنا المولى سعادة جده      بوجه وجيه باسم الثغر ضاحك  
وأيامه يروى صحيح حديثها      عن العز عن نصر له متدارك

وقال العالم الاديب القاضي ابو عبد الله محمد بن سلامة :

نظمت القوم في سلك انتظام      فتغر المالكية في ابتسام  
وأعززت الجماعة بانتساب      وليس العز في كسب الخطام  
فسويت الورى في عدل قسم      نسخت بصبحه حيف الظلام  
محال أن يظن الناس هذا      وكاد يكون من نوع الحرام  
ولولا الله ارشد منك قلبا      لما لاقته حتى في المنام  
ولكن الإله أراد خيرا      فأرشدك السبيل إلى القنوام  
فألفت القلوب به جميعا      وأخست البرية بالتمام  
فأنت اليوم أعدل من رأينا      بك المبدأ وخاتمة الختام



وفي غرة محرم من سنة 1256 ، ست وخمسين (الخميس 5 مارس 1840 م.) ، رتب  
الباي مكتبا حربيا بباردو ، وجعله في صرايته التي انتقل منها الى قصره الجديد ، لتعليم  
ما يلزم العسكر النظامي من العلوم كالهندسة والمساحة والحساب وغيرها ، ولتعليم اللغة  
الفرنساوية ، لان أكثر كتبها مدونة بهذه اللغة . ورئيسه العالم الماهر الامير آلاي كالي  
قارس (1) ، من أعيان إيطاليا . وجعل به معلما للقرآن ومدرسا لعلوم العربية وما يلزم ديانة .

(I) مستشرق إيطالي درس العربية في الشام ، وعمل بالعسكرية التركية ثم بالبلاد الحسيني بترنس من عهد  
حسين باي الثاني ، وضع كتابا عن سيرة نابليون ، وترجمه الى العربية تلميذه الجنرال حسين  
بمراجعة الشيخ محمود قبادو .



وأول مدرس به العالم الشريف الاديب البليغ ابو الثناء محمود قابادو (1) ، بحيث يخرج التلميذ عالماً بما يلزمه ضرورة في غير العلوم العسكرية ، متضلعا باللغة الفرنسية وبما يلزم العسكر من العلوم العقلية .

واعتنى بهذا المكتب وكان يزوره ومعه خواصته ، وتُسأل التلاميذ بحضرته ، ويثنى على النجيب منهم ، ويمني به بما يؤول اليه حاله ، ويرغبهم في اكتساب المعارف التي هي آلة التقدم الحقيقي ، وينفّرهم من معرفة الجهل .

وجلب إليه المراهقين فمن دونهم ، ونجبت فيه تلاميذ خرجوا يوزباشية . ومنهم من تقدّم الى الرتب السنية كأبي عبد الله حسين وهو الآن أمير لواء ورئيس المجلس البلدي ومستشار الوزارة ، وأبي الضياء رستم وهو الآن وزير وأمير لواء ، وأبي محمد جمعة القرقي وهو الآن من أعيان عسكر البحر ، وأبي حفص [ الحاج محمد بن ] (2) الحاج عمر وهو الآن أحد الرؤساء بوزارة الحرب ، وغيرهم ممن حصل الانتفاع به في التنظيم العسكري وغيره .



وفي هذه السنة 1256 (1840/41 م.) ، قدّم الباي ابا عبد الله محمد بن عياد وكيلًا على قبول الاعشار [ من قمح وشعير ] (3) برابطة الطعام في الجبل الاخضر ، واليها ينسب برج الرابطة . ولاقي الناس من تطفيف الكيل ما أثار نقيصا في الزراعة حتى كادت الفلاحة ان تبطل بالمرّة ، وتغافل عنه لِمَا هو مضطر له من قوت العسكر وعكف الخيل . وآل الامر الى أن صار القمح والشعير يُجلب للمملكة من خارجها . ويرحم الله القائل : « التقدم للغاية تأخر عنها ، والزيادة على الكفاية نقصان منها » .



وفي محرم السنة 1256 (مارس 1840 م.) ، ورد من الدولة العلية العثمانية فرمان التنظيمات الخيرية المبني على أساس العدل والحرية ، وتقدم تعرييه . فجمع موكبا مشهودا بالعلماء والوزراء والداي وأعيان العساكر وغيرهم ، وقُرئ عليهم الفرمان .

(1) رجوع الشيخ قبادو من اسلامبول كان خلال سنة 1258 ، وتأسيس المدرسة الحربية كان سنة 1256 ، وعليه فالظاهر ان العربية والعلوم الدينية لم تكن مقررة عند التأسيس .

(2) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(3) الزيادة عن ق و ع .

وأجاب الدولة إجمالاً باللغة التركية بما محصله : « ان هذا غرض محمود ، ولا بدّ من زمن لإبرازه الى الوجود ، لاختلاف الطباع والبقاع ، وهو أمر لا يحصى عنه ولا بدّ منه » . ورجع الرسول بالوعد ، والله الامر من قبل ومن بعد .

✽

وفي صفر من السنة 1256 (أفريل) ، ظهر دّين علي الوزير أبي عبد الله حسين خوجة ، قدأينه لنفسه [وعظم بالرّبا] ، وطلب الغرماء ذلك من الدولة أو تغليسه وسجنه [كسائر المفلسين] . وكلم الوزير مصطفى صاحب الطابع الباي في التفضل بدفع الدين عنه ، فامتنع كلّ الامتناع وقال : « إن مال الملكة نصرفه في مصالحها كالعسكر وآلاته ، وكيف يسوغ لي ان نصرفه في ديونكم الناشئة عن الإسراف ؟ نعم ، ان هذا الرجل كان وزيراً لعمتي ، ومن أعيان الدولة ، فهلّموا نفرض دينه على خاصّة أنفسنا ، ويدفع ابن عمي الذي هو صهره ، وتدفع أنت وأمثالك ، وادفع أنا قسطاً معكم » ، فأبوا ، وتغير (1) الوزير صاحب الطابع وقال : « انا ادخل السجن قبله » ، فقال له : « انا لا أسجنك ، وأمرُ نفسك بيدك » . وآل الحال الى تغليسه وبيع كسبه وسجنه في محل بقصر باردو مدة طويلة حتى تحقق عُدْمه (2) ، ثم سرحه (3) .

وفي هذه السنة وقع في وطن الاعراض شيء من بوارق عصيان ، خاف الباي سرّيانه في المملكة ، لاتحاد السبب . وذلك ان هذا الباي لما صرف عنايته الى تكثير العسكر [من غير التفات الى طاقة المملكة] (4) لزمه زيادة المصروف ضرورةً ، فرتّب مغارم على ما يباع من الطعام والبقول ونحوها ، تعرف بالمحصولات ، كما تقدّم . وقد كانت قبل ذلك بالحاضرة على إهمال ، فرتّبها وعمّمها في المملكة واسواق العربان . والتزمها ملتزمون وقع التغافل عنهم . وبقدر امتداد ايدي العمّال ، تنقص الآمال والاعمال . ومن هؤلاء أحدُ أتباع أبي عبد الله محمد بن عيّاد ، التزم محمولات قابس . ولابن عيّاد وأبيه سالف عمل بالاعراض اقتضى امتزاجاً ببعض أعيانه ، فاعتمد هذا المتولي على

(1) تغيّر : استاء ، امتنع ، تكدر .

(2) كلنا في خ ، وفي ع و ق : « ... مدة طويلة يتحقق العدم بأقل منها » .

(3) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(4) الزيادة عن ع و ق .

ذلك ، حتى قيل إنه يطلب « المحصول » على دفن الميت من بني آدم ، وغير ذلك من أمثاله ، والله أعلم ، فهجم عليه بعض العامة وقتلوه باغراء من الخاصة . ومن أمثالهم : « العامة تبغ لكل ناعق ، لا سيما فيما يلائم الطيباع من الشح المطاع » .

ولما بلغ الخبر للباي ، وتحقق عنده أن سائر عربان المملكة استحسنوا ذلك وتأمروا عليه (1) ، تلافى الصغير قبل أن يكبر ، والقليل قبل أن يكثر ، وعنده يومئذ من العدد والعدة ما يقدر به على المراد ، فنهض بنفسه إلى الاعراض يجر وراءه عرمرما من العسكر النظامي والطبجية بمدافعهم ، وعسكر الخيالة والحوانب والصبايحية من تونس وغيرها من الأوجاق .

وجرت العادة أن كل عرش من عروش العربان به عدد يسمون المزارقية ، [ولهم مرتب] (2) أصحاب المزارق وهو الرمح ، يسافرون مع المخازنية في البعث لأنهم في معنى الصبايحية ، فاقضى نظره أن لا يأمرهم بالخروج معه في هذه الوجهة ، ولا يرد من أتى متطوعا . واكتفى بمن في الخدمة من العسكر والمخازنية . وجهز أسطولا في البحر بالمهمات والآلات والاقوات وغير ذلك مما يلزم . وترك الحاضرة لنظر ابن عمه ، ومعه الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع .

وخرج يوم الخميس رابع (3) ربيع الأول من السنة 1256 (7 ماي 1840 م) ، ومعه أعيان الدولة ، وقاضي الحاضرة الشيخ محمد بن سلامة ، ونابه المفتي الشيخ الشاذلي ابن المؤدب في مغيبه ، والامام أبو العباس أحمد البارودي . وزار مقام الامام الشاذلي [ومغارته] (4) رضي الله عنه . ولما ركب من مقامه انكسر عظم من علميه يعرف بالطوق ، فتغير لذلك وتطير ومضى متوكلا على الله .

ومر على بلدان الوطن القبلي وبلدان الساحل وشفافس ، يقيم لإراحة العسكر في ضواحي ما يمر به من المدن ، والاسطول يحاذيه في البحر . ومدبر المحلة أبو عبد الله محمد بن عياد يشاغب عمال البلدان ، فتوجهت تلقاء مدينه الآمال ، لانه الواسطة بين الوزير ابني النخبة مصطفى خزنة دار وبين الناس . وحرك أهل سوسة للشكاية بالعامل

(1) كذا في ح ، و في ع و ق : « ... استحسنوا ذلك ، وهو طليعة الاتفاق » .

(2) الزيادة من ع و ق .

(3) هو 5 حسب التقويم .

(4) الزيادة من ع و ق .

وهو ابو عبد الله مَحْمَد خزنه دار ، فلم يتحركوا ، فأشار للباي ان يأتي منزل العامل تنويها به ، وحرك المسجونين للصباح اذا مرَّ بهم الباي ، ففعلوا ، فوقف وسأل ، فتقدم له مَحْمَد خزنه دار ويده زمام في أسمائهم ومدة سجنهم وأسبابها [ واكثرهم في الديون ] (1) . وطلب منه ان يرسل لهم كتابا يطبق الزمام على ما في الخارج ، فقال له : « مثلك لا يُتَهَم » . ولما رأى حزمه ، وجّه عنايته إلى إظهار احترامه في الناس ، وأعرض ابن عيَّاد عن رأيه .

وحاسب الباي وكلاء أعشار الزيت ، واستخرج منهم أموالاً وان كانت لا تخلو عن شيء من الحيف إلا أنه لا يظهر مع مظلمة التطفيف . وجزاء سيئة سيئة مثلها . وقد يُدفع الشرُّ بمثله اذا أعياك غيره .

وفي مدة إقامته بصفاقس أتاه إبراهيم الجويني خليفة عامل الاعراض وأخبره بجذب الصحراء ما بين صفاقس والاعراض ، ونزوح مائها مع قِلَّتِهِ ، بحيث لا يكفي العسكر وما معه من الخيول والإبل ، فأبقى العسكر النظامي والطبجية والخيالة بصفاقس لنظر وزيره أبي النخبة مصطفى باش آغة ، وسرَّح المخازنية بمحلة لنظر أبي العباس أحمد آغة الى الاعراض ، ووجّه معها وطقه وأخيه خواصه ، وركب البحر في كروية ومعه خاصيته والاسطول وراءه .

وأتى جربة فبات بها ليلة بمنزل ابن عيَّاد ، وزار مشاهدنا وزاوية سيدي ابراهيم الجمّني ، وتفقد الابراج والحصون .

وركب البحر الى قابس بعد وصول الآغة أبي العباس أحمد ، فوجد وطقه مرفوعا والمحلة محدقة به . ولما نزل قال له أعيان المحلّة : « ان ما بلغك من الخليفة كذب ، فان الصحراء بها أثر الخصب ، والماء كثير يكفي هذا العسكر واكثر منه ، وقد تمت المسكيدة لاهل الاعراض حيث بقي العسكر بمدافعه بعيدا مِنّا ، إلى غير ذلك » ، فخلا بوزير خزنه دار واستدعاني لخيمة الوطق ، وأمرني أن أكتب للوزير أبي النخبة مصطفى باش آغة أن يكون على أهبة للقدوم الى الاعراض حين يرد عليه الإذن بذلك ، ومكتوبا آخر بالإذن أبقاه حاضرا لوقت اللزوم ، بحيث لا يزيد فيه الا التاريخ .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وخرج للديوان بالوطني وسأل عبد الوهاب باش حانبة عن حال الطريق ، فأجابه على رؤوس الملا بكثرة الماء والكسأ ، فقال للخليفة : « لِمَ تخبرني بغير الواقع ؟ » ، فَسَكَتَ وَبُهِتَ ، فأمر بقطع رأسه . ولما حُمِلَ لموضع القتل ، تطارح عليه وزيره ابو النخبة مصطفى خزنه دار وطلب منه العفو ، فعفا عنه من القتل وسجنه مدة وسرحه .

ودخل بعد خروج الديوان الى الخيمة ليختم مكاتيب كنت أنتظره بها . ودعا لوزيره حيث أنقذه من سفك دم في وقت غضب . ولم يزل رحمه الله يذكرها للوزير ويعدها من حسناته .

وفرَّ رؤوس الفتنة وهم محمد بن محمود وابنه وغيرهما ، واعتصموا بجبل مطماطة .

ولما جاءت جموع الاعراض للسلام على الباي ، قَبِلَهُمْ جمعا بعد جمع ، وقبض يده عن جمع مطماطة وأمر بسجنهم ، وقال لهم : « ها أنا أريد لإخراج مَنْ هرب لجبلكم ، فان تَلَكَّزُوا (1) في الخروج فرؤوسكم تقطع قبل رؤوسهم » . ووجه الاضه باشي حسين بوحرام في عقد من الخيل فأثوا بهم ، فسرح أهل مطماطة في الحين ، وأحضر هؤلاء [الدين هربوا] (2) بين يديه وقال لهم : « ان فعلكم هذا من الفساد في الارض ، لانه يؤدي إلى عصيان يؤدي الى حرب وسفك دماء » ، فَوَجَمُوا ، ولاذُوا منه بالصفح ، فأمر بقتلهم ، وكانوا خمسة ، منهم من باشر قتل لَزَامَ المحصولات . وانحلَّ عَقْدُ ما أبرموه ، وكان للشيخ سعيد الشعلي ، من رؤوس بني زيد ، أثر جميل في هذه النازلة ، وكذلك قومه .

وتغافل الباي عن بقية رؤوس الفتنة ، وسدَّ سمعه عن الوشاية ، كما هو الواجب شرعا وعقلا في سياسة البشر بعد القدرة [شأن الكريم اذا غلب] . وقال [في الموطن على رؤوس الاشهاد] : « لم يثبت لديّ ذنب إلا على الذين قَتَلُوا وأَغْرَوُا ، وعلى جميع اهل الاعراض مَلام حيث سكتوا ولم يضربوا على يد السفهاء ، مع القدرة على ذلك » . وطلب منه أعيان الاعراض ان يجعل عليهم مالا ليكون مظهرا لمرضااته عنهم فجعل عليهم ستمائة ألف ريال ، أبقي عامل الاعراض لخلاصها ، وهو صهره وخديم

(1) تَلَكَّزَ : تأخر ، تباطأ ، قاوم ، هصى (وانظر دوزي) .

(2) الزيادة عن ع و ق .

أبيه ابو محمد رشيد . ولم يُطِيل الإقامة في الاعراض ولا دار في تلك النواحي وانما زار صاحب رسول الله السيد ابا لبابة الانصاري رضي الله عنه ، في قليل من خاصته ، وركب البحر قافلاً الى صفاقس ، وأمر المحلة بالرحيل إثره (1) .

واقام بصفاقس أياما ، وأتى المهدي ورأى آثار بني عبيد ، ثم دار في بلدان الساحل [وأتى قصور مساكن بلد الاشراف] (2) . وأقام بسوسة . وأتى القيروان .

وفي هذه الوجهة بلغه ان فرقة من الهامة شنوا الغارات ، وأخافوا السيل [على عادتهم] (3) ، فبعث لهم أبا العباس أحمد آغة في عقد من الخيل ، فأجفلوا أمامه ، وتمكّن على رؤوس منهم ، وقتل منهم واحدا اسمه ضوّ ، وهو أشدهم تعديا ، وسجن الباقين ، ثم قفل راجعا الى حضرته .

وعادة الملوك اذا رجعوا من سفرهم وقاربوا الحاضرة بمرحلتين ، يعجلون الاوبة الى منازلهم ، ويسمّون ذلك « التسريح » ، ويأتي العسكر بعدهم مع الآغة ، فلما قرب من الحاضرة سأله بعض خاصته : « من أي موضع يكون التسريح ؟ » فقال لهم : « معاذ الله ان اترك عسكري في مشقة سفر ، وأستأثر عنهم براحة ليلتين في داري ، أدخلُ معهم كما خرجتُ معهم » . وفعل قريبا من ذلك لما سافر بمحلة الجريد في حياة أبيه ، فانه بقي بوطقه في المحلة . ولم ينزل دار توزر على عادة من تقدّمه ، وقال : « لا أستأثر براحة عن جندي » . ولا بلغ ذلك لوالده قال : « ان ابني أحمد لم يسلك عادتنا في سكنى دار توزر ، تعاظما عن سكنى تلك الدار المسقفة بجريد النخل » .

ولما وصل باردو سرح العسكر لاماكنهم ودخل المحكمة فسلم عليه الناس ، ثم أتى بيت الباشا فسلم عليه اهل المجلس الشرعي . وكان ذلك يوم الاربعاء الثامن والعشرين (4) من جمادى الثانية سنة ١٢٠٢ وخمسين (26 أوت 1840 م) .

ومن الغد جاءه وفد الحاضرة مسرورين بأوبته مستبشرين برؤيته ، بعد قضاء وطره .

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من ن ، مثبت في ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) هو 27 حسب التقويم .

ورث الباي في هذه الوجهة أمورا ، منها قانون الزيتون بالساحل ، وذلك انه لما حاسب وكلاء الاعشار وجد زيوتا لها بال تخذلت في ذِمَمِهِمْ ، مع ما استحلوه لانفسهم وقاسموا الشهود بجزء من ذلك ، فَتَكَلَّلَ ببعضهم وضربهم وسجنهم وصادروهم بأموال . ورأى من الضبط أن يُسَقِّطَ اشياء عن اهل الساحل مما اعتادوا أدائه ، وهو ذريعة لامتناد أيدي العُمَال في أموال الناس ، ويوظف على أصول الزيتون شيئا معلوما في كل سنة ، أثمر أو لم يُثْمِر . وكان ممن أشار بهذا الرأي القائد يوسف بيشي [اليهودي] ، قابض اموال الدولة ، ووافقه على ذلك وزراؤه ، بل وغالب أهل الساحل (1) ، لتكون غلتهم لاختيارهم يجمعونها متى شاؤوا ولا يتوقفون في عصرها على حضور عَشَّار ، بعد أن حرَّ دحلَ العشر في عام الصابة ودخله في غير الصابة ، ورتب ذلك باعتبار السَّنة المتوسطة ، كما زعم القابض ، [جمع اعيان سوسة واخبرهم بالمقدار ، فرجموا مستعظمين ، فقال شيخ من أعيانهم : « لا طاقة لنا على تحمل هذا القدر ، فالأولى أن سيدنا يأخذ هذا الزيتون » ، فأمر بسجنه لصدور هذا اللفظ منه ، وخرج الباكون واجمين ] ، وكتب بذلك أوامره لسائر بلدان الساحل وقراه ، وأمرني بالإطنا ب فيه ، [فاستعمل العبد الفقير ما استطاع من الخطابة] (2) ، ونصه : « سبحان من أناط العمران بسياسة العباد ، ونوع أحكامه فيهم على حسب ما أراد ، وغير بتغير أحوالهم قضايا الاجتهاد ، لم يوقفها على آلف ولا اعتياد ، ربط بالعدل الصلاح والسداد ، أحمد حمدا يستغرق الحصر والأعداد ، وأصلي على سيدنا محمد الهادي الى سبيل الرشاد ، ومن اليه المفزع وعليه الاعتماد ، في هذه الدنيا وفي يوم التَّنَادِ ، وعلى آله وأصحابه السادة الامجاد ، أركان الإسناد . اما بعد فهذا ظهير وثيق البنيان ، ينتج ان شاء الله الخير والعمران ، ويدوم نفعه على اختلاف الازمان ، بُني على التسوية بين الامة أساسه ، وزكت بالعدل فصوله وأجناسه ، صدر منا الى كل من يقف عليه ، ويتدبر ما لديه ، من كافة اهل سوسة على اختلاف أصنافهم ، وتباين خططهم وأوصافهم ، وعامتهم وأشرفهم ، لما خرجنا في مصالح الرعية وحفظ أموالهم (3) ، وتفقد اعمالهم وعُمَالهم ،

(1) كذا في غ ، وفي ع و ق : « ووافقه على ذلك بعض وزرائه لما رأوا أن بعض الشر أهون من بعض ، وربما استحسن بعض أهل الساحل ذلك » .

(2) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من غ ، مثبت في ع و ق .

(3) في ع و ق : « أحوالهم » ، فغيرت الى « أموالهم » .

رأينا أكثر الاداء مرتبا على اللوات ، وعدم الإنصاف في المساواة ، وما رُتّب منه على الكسب ، مُعرّض للخيانة والغصب ، لِمَا في طبع الانسان ، من الميل الى الرغبة (1) والعدوان ، وقلة العدالة وضعف الامان ، وهو السبب فيما يعتري الخلق من النقصان ، وإن صلح هذا الترتيب بالأوّل ، وجرى به عملٌ مَن تقدّمنا من الدول ، فالاحكام تدور مع العِلَل ، وتختلف باختلاف العمل ، اشرفها ما أراح الحيف وجدّد الامل . فلذلك اقتضى نظرنا الحكمَ باسقاط الفصول السبعة المرقومة أعلاه عن سائر بلدان الساحل إسقاطا تامّا ، مطلقا عامّا ، لا استثناء فيه ، ولا طلب يُنافيه ، إذ بعضه ممنوع لذاته ، وبعضه تعذّر القيام بواجب صفاته ، وناهيك ما في عقوبة المال ، من فساد الاعمال ، وما في الاداء على الرّقاب ، من البعد عن الصواب ، فتجد الغنيّ في ترف لذّاته ، والفقير يؤدي على وجود ذاته ، إذ لا شيء لديه حتى يُحسب الاداء من زكاته ، وكل وقت تناسبه أحكام سياساته ، فلذلك رتّبنا على زيتون الساحل قانونا في مقابلة ما أسقطناه يؤدّيه مالكوّه في كلّ عام على كرتين ، كلّ كرتة بعد مضيّ ستة أشهر من اكتوبر سنة التاريخ . وقسمناه الى ثلاثة أصناف ، عال ومتوسط وسافل . فالاول يؤدي عودُه (2) ربع ريال وأحد عشر ناصريا والمتوسط يؤدي عوده ربع ريال وخمسة نواصر ، والسافل يؤدي عوده اثني عشر ناصريا . هذا في الذي يُسمّر ، أما الناشيء الذي لم يبلغ حدّ الإطعام فإن عوده يُرسم ولا يؤدي شيئا ، الا إذا أثمر فيلحق بالصنف الثالث ، حتى يكون كالصنف الثاني فيلحق به ، وهكذا . ويُؤدي على كلّ مائة ريال من القانون ريالا ونصفه للقبّاض في مقابلة نقص عدد الدراهم . وإن تلدّد احد المالكين في دفع القانون حتى لزمه الغضب بالتعيين ، فانه يؤدي نصف ريال خدمة على كل عشرة ريالات ، هذا اذا كان التعيين من حضرتنا ، اما اذا كان من القايد فانه يؤدي ربع ريال على العشرة ، لا زائد على ذلك . ومن لا زيتون عنده فلا قانون عليه ، وأداء الانسان على حسب ما لديه ، كفى الضعيف القيامُ بسدّ خلّته ، ومُعانة معيشته . ومصلحة هذه السياسة أوضح من الصبح ، غنيّة عن الشرح ، لا يدخلها تطفيف ولا حيف ، ولا تمييز مشروف عن شريف ، سويّا في ذلك بين صغيرهم وكبيرهم ، وجليلهم وحقيرهم ، وأزلنا الفرق بين المحرّر والرعية ، فالكل عيال الله ولهم حرمة مرعة ،

(1) الرغبة : الطمع ، الجشع ، الحرص .

(2) السود : الشجرة .



لانه بفضلله استرعانا جماعتهم ، ووهب لنا طاعتهم ، وأرانا استطاعتهم ، وحرّم علينا إضاعتهم ، فما نأخذه منهم ، ندفعه في مصالحهم عنهم . والله يصلح احوال العباد بفضلله ومنّته ، ويجازينا على نيّتنا يوم يسأل كلّ راع عن رعيته ، فاقرؤوا هذا الرقيم على جمعكم ، حتى يتقرر في قلبكم وسمعكم ، واحفظوه في جامع صلاتكم ليبقى لكم حجة ، على سهل هذه المحجة . والله يحكم لا معقب لحكمه . والسلام من الفقير إلى ربه أحمد باشا باي وفقه الله .

وكتب في رابع جمادى الاولى سنة 1256 ، ست وخمسين ومائتين وألف (السبت 4 جويلية 1840 م) .

والمطالب التي أسقطها أولها عشر الزيت ، لما فيه من عسف الوكلاء في اختيار الجيد الصافي ، والتطفيف الذي لا يقف عند حد ، بل هو بحسب حال الدافع ، فقد تكون العشرة اثني عشر الى الخمسة عشر ، على حسب مروءة القابض . « وَيُلْ لِلْمُطَفِّينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » (1) .

ولا يخفى على المسلم العاقل ان ذلك ليس بعذر يبيح (2) إبدال الزكاة التي هي أخت الصلاة بهذه المظلمة التي لم تنتج فائدة الا للقابض ، لان ما [كان] يحصل من زيت العشر تبعية الدولة للتجار [والواردين] ولا يدفعون على أثمانه قباضة ، ولما صار مالا في الذمة على الرعية يأخذ عليه القابض ، لا سيما وهو منصوص عليه في الامر . على ان الله تعالى أعلم بمصالحنا منا ، وهو الحكيم الخبير ، [والشريعة المحمدية المبعوث بها خاتم المرسلين صلوات الله عليه صالحة في كل زمان ومكان] (3) . وشأن الوازع كف يد التطفيف والتعدي ، والثقة (4) بالامناء . والامانة لا تنقطع من الإمة المحمدية ، نعم ، ثقل في آخر الزمان .

واذا حكمت العقل مع اعتبار خالة البلاد من قلّة نقودها لانها تأتي من خارجها اذ لا معدن بها لاحد النقيدين مع قلّة متاجرها وصنائعها ، ترى العشر على ما فيه ، أحسن

(1) س 1/83 و 2 و 3 .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « أن هذه الخطابة لا تبيح » .

(3) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وتقديم الامناء » .

للمراعي والرعيّة ، لان الملكة فقيرة كما اعترف صاحبها في مكتوبه للدولة العلية ، وكما شهد بذلك رسوله صالِحُ المصبر (1) . والفقير اذا لم يثمر زيتونه يُضْطَرُّ الى بيع الزيت على وجه السَلَم لتجار الافرنج بأبخس ثمن او يتداين بالربا ليدفع ما عليه من القانون ، فاذا أثمر الزيتون يدفع منه ما في ذمته من السَلَم أو الدَّين [ وفائدته ] (2) ، وقانون ذلك العام ، فيصير إلى الفقر في اقرب مدة ، لان أرض المغرب عشرية لا خراجية ، لانها غير مأمونة الرِّيّ كمصبر وما شاكلها . بخلاف ما اذا كان الاداء من عين الغلّة ، فانه لا يلزم المالك تدائن ولا بيعُ زيت بهبخس ، وربما تسمح بعض النفوس بتحمّل ما يطاق من مظلمة التطفيف لما يراه من أنه حق لله مما رزق ، وتعبه البركة ، واذا شح بذلك تطير البركة ، الى غير ذلك مما هو في نفوس أهل الايمان المبني على مكارم الاخلاق . وهذا من أسرار الله في عبيده . واما حُسْنُه للمراعي فان رعيته تبقى على ما قسّم لها من الثروة باعتبار حالها ، واذا ضعفوا ضعفت الجباية ، ولا تزال في ضعف حتى تضمحل أو يضمحل المراعي ، ودليل ذلك العيان . والله درُّ القائل :

وأرفسه خلق الله راضٍ بعيشه وأتعبهم قلبا على الدهر واجد

وثاني الامور التي أسقطها ، قانون الصاع واللبّة ، شيء يؤديه صاحب الزيتون من الزيت او المال في مقابلة ثقل زيتونه .

وثالثها المطالب الراجعة لدار الباشا ، وأصلها ان الترك لما استقرّ قدمهم في البلاد رتب عثمان داي مرتب الجند على بلدان الحاضرة مقادير معينة يدفعونها [ في مدّة العام ] (3) على سنّ كرات ويوزعونها على حسب مكاسبهم ، بحيث لم يكن فيها لإجحاف . وآل الامر إلى ان صار إلى اجتهاد العُمّال وأمانتهم .

ورابعها العشرة ريالات التي كانت مرتبة على كل ماشية ، رتبها ايضا عثمان داي ، وقاس مساحة الماشية بحَبْلٍ مقدّر معروف يسمّى الآن بحيل الديوان ، وان زال مسمّاه . وصار إلى ديانة (4) العامل ، فربما يسمّى بلر ويّبة (5) بماشية ليستخلص العشرة ريالات .

(1) أي الشيخ ابراهيم الرياسي .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) ديانة : ذمة ، ضمير ، اجتهاد .

(5) كذا في خ ، وفي ع و ق : د بلر صناع .

وخامسها الضيفة للقائد او الخليفة او الشيخ وهو باب واسع ، وأصله ان القائد ومن عطف عليه اذا تولى عملاً يقدم أهله له شيئاً [ من المال ] يسمونه « ضيفة » في مقابلة قِزّاه ، فصار أداء في الدمة معتبراً في الولاية نوعه وتقريب مقداره [ لمّا آلت الولايات الى مشاركة مالية ، كما تقدم في الباب الاول ] (1) وهو ايضا في عهدة أمانة العامل .

وسادسها القيام بالصادر والوارد ، ويسمونه « السادر والوارد » (2) . [ وذلك في غير المدن ] (3) .

وأصله أن ضيافة المارّ مندوب اليها في الاسلام ، وهو من مكارم الاخلاق . فيتفق أهل كل بلد ويجعلون محلاً يسمونه « دار النزلة » يباشر ذلك شيخ البلد [ الذي شاخ بالمال ] ، والمحرك [ وهو المُعين له ] (4) ، ويستخلصون تلك الضيافة من أهل البلد أو القرية على أنحاء مختلفة ، ومن امتنع يقال له « تسفّل » ، ويعاقب بالمال . وذلك في أمانتهم أيضا .

وسابعها ، وهي الداهية الدهياء ، العقوبة بالمال ، وهي المسمّاة بالخطية ، موكولة أيضا إلى أمانة العامل . يسمي ما شاء « ذنبا » ويعاقب عليه بقدر كسب من سماه مذنباً ، حتّى صارت الذنوب رأس مال كسبهم . فاذا ضجّع الانسان رموه بالفساد ، فتشتدّ عقوبته [ المالية والبدنية ] (5) ، فتجد المسكين يتجرّع مرارة الصبر على عقوبات العُمال ، اتقاء ما هو أشدّ .

وتُحكى عنهم في ذلك حكايات تقشّر منها الجلود ، منها أن أحمد السهيلي كان عاملاً بالمنستير وماتت لبعض أغنيائهم بنت ودفنها ، فبعث اليه وقال له : « أنت قتلت بتك ، فامّا أن تنفصل معي بمال أو نخبر الدولة » ، فأنكر الرجل وأبى ، فبعث العامل الى قبرها ونَبَشَته ، وأمر بدفنها ، وهي ميّنة ، في موضع مقتل ، وبعث الى والدها ، وأحضر شهوداً توجهوا الى القبر ، وعاینوها وأثّر القتل في جسدها ، وحالُ تسوية

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) كذلك في غ ، وفي ع و ق : « السادر » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(5) الزيادة عن ع و ق .

القبر بعد نبشه وعدمُ جفاف الجرح ينادي عليهم بالكذب ، إلى غير ذلك من أمثالها .  
ولا تحسبنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون .

وإنما أظننا في أمثال هذه النوازل ليرى الناظر أسباب الخلل والنقصان كيف  
تطرفت وتدرجت في هذه الإيالة ، ولا سبب لذلك الا الملك المطلق ، وتقديم الشهوة  
والغرض ، على الواجب المفترض .

وبلغ الباي وهو في سفره هروبُ أبي المسرة فرحات الجتلولي وأخيه أبي عبد الله  
حسونة الى مالطة ، لِمَا بين دار الجتلولي ودار ابن عيَّاد من غيرة ومنافسة [ في  
الخدمة ] أثرت الاحقاد . ولما استقرت قدم محمد بن عيَّاد بالدولة ، وفتح الباي أذنه  
لتدبيره ، صدرت منه بوادر لدار الجتلولي ، وتوقعاً منه الشر فلاذا بالفرار . إلا أنه فرار  
لم يحطَّ لهم قدرا ولا دنس لهم ذكرا . وثبت عند الباي ان المُعين لهما على الهروب  
بكراء المركب هو تاجر تونسي يعرف بالمحيرصي ، فبعث الى أخيه باعتقاله . ثم بعد  
رجوعه استفهمه عن الكيفية وسبب الهروب ومقدار ما حملا معهما [ من المال ] ، إلى  
غير ذلك مما يبعد أن يعلمه التاجر [ المسكين ] ، فأقرَّ بأنه كان واسطة في كراء  
المركب خُفِيَّة لِمَا له من المعرفة بلغة إيطاليا ، ولا علم له بما وراء ذلك ، فأمر بضربه  
فلم يقرَّ ، ثم أعاد ضربه . ولما عيلَ صَبْرُهُ اضطرَّ الى شق نفسه بتيكة سراويله ،  
فأصبح مشنوقاً ميتاً بمَحْبَسِهِ ، وهو مَحْزَنٌ علُو الكاهية بحلق الوادي [ وكان الباي  
يومئذ به ، فتغيَّرَ وندم ، ولات حين ندم ] . (1) غفر الله للجميع .

وفي هذه الوجهة رتب قراء يقرؤون حزينين من القرآن العظيم [ كل يوم ] (2) عند  
ضريح العالم الولي العارف بالله سيدي أبي إسحاق الجبنياني ، من عمل صفاقس .

وفيها أمر بتنظيف فسقية بني الاغلب بالقيروان ، وذلك من فاضل أوقاف السيد  
الصاحب رضي الله عنه ، لان ذلك من أجل طرق البير ، على ما به العمل عند المحققين  
من صرف فاضل الحبس بعد استقامته في طريق بير يزداد به الثواب للمحبس ولا  
ينقطع به عمله .

(1) ما بين القوسين في هذه الفقرة ساقط من ن ، مثبت في ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وفي هذه السنة 1256 (1840/41 م.) ، وجه البايُ أبا النخبة مصطفى بلهوان الى الدولة العلية العثمانية يطلب من فخامتها لقبَ مشير ، لان باشا طرابلس يومئذ له هذا اللقب . ونهاه وزيره ووزير أبيه شيخُ الدولة أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع عن ذلك ، وقال له : « الاسلام أن نكون مع الدولة العلية على عادتنا وحالتنا من غير تبديل ولو بِرِفعة » ، فغلبه هواه ، ورأى ان لا ضرر في ذلك . ولما بلغ مطلبه للوزير أبي النخبة مصطفى رشيد باشا ، أسرع للاجابة ورآها ذريعة لرأيه ، فقال للرسول : « يظهر من حال أحمد باشا انه يريد الانخراط في سلك مشيري الدولة العلية ، وقد اسعفت مطلبه بسرور » ، الى غير ذلك من الخطابة ، « فبلغ له مشافهةً نصيحةً مني ، وهي أنه يُظهر من حاله أنه كواحد من عمال الدولة بتبديل صنحق تونس بصنحق الدولة حتى تكون راية الاسلام واحدة ، ويأتي بنفسه الى اسلامبول ليكون مظهرًا للعناية السلطانية ، ويؤدي شيئًا من المال في كل عام ، وتقديره موكول لرأيه ويجري به العمل ، وان يولي أكابر العسكر بفرمان السلطنة بحيث يكون الخيار له فيمن يوليّه والسلطان يوافق على اختياره . فالولاية في الحقيقة له والفرمان لتكون عساكر المسلمين على نسق واحد ، وان يتوقف فيما يقع بينه وبين الدول الاجانب على الاستعانة برأي الدولة العثمانية » ، الى غير ذلك مما ظهر له انه نصح للباي ، لو سبق القدر بسماعها ، ومن جعلتها ان يكون ذلك من تلقاء نفسه ، فقال له الرسول : « نبلي ذلك عنك »

ولما قدم مصطفى بلهوان بلبغ الرسالة مع نيشان المشير ، فاحتفل الباي لقبوله بتعظيم وفخامة ، وتسمّى بالمشير من يومئذ وتلقّب به يكتبه في أوامره . وتوقف في نصيح الوزير ، وعلم بذلك ما انطوت عليه النية من وزراء الدولة .

وقد كان جانحًا الى الالتحام بالدولة أكثر من أسلافه ، لما في ذلك من قوة العصاية الاسلامية ، وظهرت بوارق ذلك من اوائل أعماله . ثم ظهر له أن الاصلح الطاعة والانقياد ، على السنن المعتاد .



ثم وجه عنايته للعلم الشريف ، وأعان طلبته بما بقي أثره ، وطاب في الآفاق خبره . وهو انه اشترى سائر كتب الوزير حسين خوجة المبيعة عليه في الدين [ المتقدم ذكره ] (1)

(1) الزيادة من ع و ق .

بثمن له بال (1) ، واشترى غيرها ، وأضاف إليها كتب آله الموضوعة في خزانة أسلافه بجامع بيت الباشا ، وقال : « وضعها هنا لا فائدة فيه الا المباهاة » . وكانت عُدَّة علمية في فنون شتى . ولما جمعها ، أمر اهل المجلس الشرعي وأعيان المدرسين بالاجتماع في الجامع الاعظم ، وأمرني بإيصال الكتب من قصره الى الجامع .

ومن العناية أن وجه طابورا من العسكر لذلك ، كل واحد يحمل على يديه قدر ما لا يُتعبه من الكتب .

ولما وصلت الجامع وجدت العلماء ينتظرون وصولها ، فتقدم العسكر على ترتيب نظامي ، كل واحد يضع ما على يديه من الكتب ويخرج من غير الباب الذي دخل منه . وتولى الجماعة تطبيق اسماء الكتب على دفترها ، ثم وضعت في خزائنها العشرين ، على يمين المحراب وشماله . ثم كُتِبَ على كل سفر منها رسمٌ تحيسه مصححاً بختمه . وأباح للمتفع إخراج الكتاب من موضعه لمدة عام فقط . ورتب لها وكيلين يأتي كل واحد منهما للجامع يوماً على التناوب ، لمناولة الطلبة ما يحتاجونه . وسهل بذلك طريق العلم على الفقراء ، بل والاعنياء . وكان ذلك في رمضان السنة 1256 (2) . ولم يزل يشتري الكتب ويحبس ويلحقها بهذه الخزائن . واشترى كتب شيخنا العلامة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي بعد وفاته ، ودفع أثمانها للورثة ، وحبسها بالجامع أيضاً . ونص في [رسم] (3) حبسه عليها انه أهدي ثواب ذلك لمالكها الشيخ المذكور . والاعمال بالنيات .

يا له من عمل ذلّل صعاب العلوم وراضها ، وأنشأ حداائقها ورياضها ، وأجرى جداولها وحياضها ، وأصاب شواكلها وأغراضها . نسخ على غير مثال ، انهل به ودق العلم وانثال ، وسرى ذكره مسرى الامثال .

وقفنت شعراء العصر في أمداحه . وفي الجمعة الموالية لهذه المنقبة ، خطب شيخ العصر وبركة المصر ابو اسحاق ابراهيم الرياحي على منبر الجامع الاعظم بما نصه : « الحمد لله الذي رفع للدين أوتوا العلم درجات ، كما خفض لاهل الجهل دركات ،

(1) بهامش ق 2 : 216 : « ثمن الكتب المذكورة مقيد بدفتر الدولة وقدره ريات 28917 » .

(2) بهامش ق 2 : 216 : « وفي هاته السنة بنى هذا الباي كنيسة سان لوى بقرطاجنة » .

(3) « رسم » ساقطة من خ ، مثبتة ل ع و ق .

أفمن جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات . أحمده وحمده من جملة ما به أنعم ، وأشكره على أن علّمنا ما لم نكن نعلم . واشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة رَفَعَ العلمُ قواعدَها ، وأَسَّسَ اليقينُ بُراهينَها وشواهدَها ، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده المصطفى المختار ، الذي أرسله بنور يكاد سنا بوقه يذهب بالابصار ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم . باحسان ما تعاقب الليل والنهار . ايها الناس هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب ، ألم تعلموا ان الجهل وصف الخلق والعلم وصف رب الارباب ، ألم تعلموا ان ابانا آدم فَضِّلَ بعلم الاسما ، وأمر بالسجود اليه ملائكة السما ، والعالم الـاسْمَى ، وقالوا نحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال اني أعلم ما « . . » ، ألم تعلموا ان الدين علم وعمل ، فمن لم يكن له علم فعلى اي شيء حصل ، أیظن الجاهل الموفور ، انه ذو بصر نافذ في الامور ، كلا بل هو رجل أعمى مغرور ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . وحيث كان العلم بهذا الشرف الاثيل ، والرتبة العليا التي ليس لها مثل ، فما للهمم متقاصرة عن استطلاع طوابع انواره ، وما بال العزائم متقاعدة عن استكشاف خبايا أسرارها ، أخَوَّرَ في الطباع ، ام فقد لمواد الانتفاع ، كيف وقد تيسرت في هذا الزمان المبارك اسبابه ، وفتحت للمعلمين والمتعلمين أبوابه ، وتضوعت في بيت الله أعطائه ، وطلعت فيه شموسه وأقماره ، وذلك بهمة الملك الهام الخطير ، الباي احمد الباشا المشير ، الذي وسع الجُمُ الغفير ، بالعطاء الكثير ، ليجد ثوابه عند الله مدّخرًا ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، واعلموا ان العلم النافع ما قارنه الاخلاص في التعلّم والتعليم ، والعمل بما يحكم به من التحليل والتحريم ، والا كان جديرا ان ينبذ بالعراء وهو سقيم . وقد مثل العلماء العلم النافع بشجرة ، ثابتة الاصل حلوة الثمرة ، يستريح براحتها (1) المحزون ، ويستلذ طعمها الآكلون ، وغيره بشجرة ما لها قرار ، خبيثة الرائحة مُرّة الثمار ، يستمتع (2) رائحتها المستنكهون ، ويستبشع مذاقها الطاعمون ، وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون . وفي الحديث الشريف ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العلماء ورثة الانبياء » وقال ، صلى الله عليه وسلم : « يستغفر للعالم اربعة أشياء - الملائكة في السماء ، والطير في

(1) الراحة : الساحة .

(2) كذا في خ و ع ر ق ، ولعلها : « يستمتع » .

الهواء ، والدواب في القفار ، والحيتان في البحار » . وقال صلى الله عليه وسلم : « فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة » . وعن أبي ذر رضي الله عنه : « حضور مجلس عالم خير من صلاة الف ركعة ، ومن عيادة الف مريض ، ومن شهود الف جنازة ، فقل : يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ فقال ، صلى الله عليه وسلم : وهل ينفع القرآن الا بالعلم » .

جعلني الله وإياكم ممن عليم وعَمِل ، وأخلص لله فقيل .

ألا إن أنفع ما تنشرح به الصدور ، وأصدق حديث منطوق ومسطور ، كلام مولانا الغفور الشكور . اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (1) .

ومدحه [ على ذلك غالب شعراء العصر منهم ] (2) التحرير العالم ابو عبد الله محمد الطيب الرياحي ابن شيخ العصر بقصيدة بديعة ، نص المقصود منها :

تدُّ بحارا زاخرات يمينهُ سوى ان ذاك المدَّ ليس به جزر  
ولنا ازدرى الدنيا عطاء سميت به الى الاوج نفس أمر أخطارها أمر  
فأهدى الى البيت الكريم خزائننا من العلم يفتى الدهر وهي له ذكر  
فلله بكر في المعالي جلوتها يطيل اعتبارا في محاسنها الدهر  
تساقى الورى منها كؤوس مسرة وفاح لديهم من شذا حمدك العطر  
فجوزيت من ملكك به انتعش التدى ودينُ الهدى واستؤصل الجهل والفقر  
ولا زلت محروس الكمال مؤيدا وصاحبك الإقبال واليُمن والظفر

وقال في ذلك عَصْرِيْنَا (3) العلامة ابو عبد الله محمد بيرم من قصيدة :

ناهت على كل البلاد بلادُه وسما بها الامراء تحت حِجَاله  
أبدى بها (4) الجيش العرمم وشحت اصنافه بالأسد من أبطاله

(1) س 28 1/35 .

(2) ما بين القوسين من ع و ق .

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « صاحبنا » .

(4) في خ : « أبادها » ، وفي ع و ق : « أبواها » .



وأنا لم مسجدَها المعظمَ رفدَه وسقى مُصَوِّحَ نَبْتِه بِزُلَّالِه  
وجباه من كتب العلوم نفائسا ترزي بنفح الروض في آصاله  
أطلعتهَا في أفق فضلك أنجما ينحو بها الساري دُجى إشكاله  
وأجَلَّتْ فيها راحة المُثْرَى ومَن قد صُفِّرَتْ كَفَّاه مِن إقلاله  
وبها أزحت شذائدا عن عاجز وكشفت ما أصماه من أهواله



وفي محرم من سنة 1257 ، سبع وخمسين (فيفري - مارس 1841 م) ، رتب الباي  
قانونا على نخيل الاعراض لا ضرر في أصله .



وفي ربيع الاول من هذه السنة (الثلاثاء 4 ماي 1841 م) احتفل للمولد الشريف  
النبي ، لما طبع عليه من عظيم المحبة في المصطفى وآل بيته .

وكان يوم المولد بحاضرنا كمواسم السنة ، غير العيدين ، ويزيد باجتماع  
الصبيان في المكاتب مفروشة (1) يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ، فاقتضى  
نظره أن شأن المولد يجب له من السرور والفرح ما لا يجب لغيره ، وأمر بتوزيع سائر  
المأذن بالحاضرة ليلة المولد وليلتين بعده ، [والزيت من عنده لا من اجباس الجوامع] (2) .

وفي ضحى يوم المولد تجتمع العلماء والاعيان بالجامع الاعظم ، ويأتي الباي من  
دار المملكة ببطحاء القصبة راجلاً على أتبته وفخامة ملكية ، وأمامه سباطان من أمراء  
العسكر بلباس الموكب ، يشق بهم سباطين من العسكر واقفين على أهبة نظامية من  
باب الدار الى باب الجامع ، ويدخل من باب العطارين حتى ينتهي الى المحراب ،  
فيجلس حذو إمام الجامع ، وكان يومئذ الشيخ ابراهيم الرياحي ، فيُستفتح بقراءة  
تأليف للشيخ اختصره من تأليف سيدي مصطفى البكري ، وذكر أن الداعي لذلك  
هو الباي احمد المشير ، ذكر فيه فضائل المولد وما وقع فيه من الارهاصات (3) عند

(1) اي بالزرايين ونحوهما زيادة عن الحسير المعتاد .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) في ن : « الارهاصات » ، وفي ع و ق : « دلائل العبوة » . والارهاص : احداث امر خارق للمعادة  
دال على بمة نبى قبل بعثته (التعريفات للجرجاني) .

ولادته ورضاعه والنسب الشريف وغير ذلك مما يقتضيه الحال . هذا كله ومجامر الطيب فائحة ، وأنوار الشموع والشجرة المباركة لائحة . ولا ينتهي الى الايات المعروفة لبعض الصالحين وهي :

قليل لحق المصطفى الخط بالذهب      على ورق من خط أحسن من كتب  
وان تنهض الأشراف عند سماعه      قياما صفوفًا او جُثيًا على الركب  
أما الله تعظيما له كتب اسمه      على عرشه يا رتبة سَمَتِ الرتب  
فقسم أيها الراجي لنيل سعادة      قيامَ محبٍ صادق الحب والادب  
ففي الذكر لاسم الحب إحضارُ ذاته      بقلب له في الحب وجد له لهب (1)  
ورب جليل عظم الناس ذكره      فكيف وهذا سيد العجم والعرب  
عليه صلاة الله ثم سلامه      يكونان للرضوان من اعظم السبب

ولما يصل الامام الى قوله « فقم أيها الراجي » البيت ، ينهض البايع قائما ، ويقوم كل من في الجامع ، وتقع الإشارة من المائدة الى القصة فيتزعم المدفع ويسترسل من الابراج (2) . ويكمل الإمام الايات قائما والناس كذلك . ثم يجلس للدعاء ويختمه بالفاتحة . ثم يؤتى بماء السكر لسائر من في الجامع ، ثم مياه الطيب . وينفض الموكب فيرجع البايع بموكبه وفخامته الى الدار ، ويأذن بتسريح العسكر ، ثم يركب الى باردو . ويدوم ترنم المدافع صباحا ومساءً أيام المولد الثلاثة . ويفيض فيها العطاء والصدقات للفقراء الذين يُحيون تلك الليلة بالقرآن العظيم والامداد النبوية وغيرهم . ويطعم الفقراء في تلك الايام . ومن الاتفاق ان كان مولد هذه السنة موافقا لمولده ، صلى الله عليه وسلم ، بالحساب الشمسي ، وهو العشرون من نيسان .

ويجرى بهذا عملٌ من بعده من الملوك لعصرنا هذا .

وقد قلت له حين شرع في هذا الترتيب : « المناسب أن تخرج من باردو راكبا ، وعندنا بحمد الله من العسكر ما يكفي للوقوف بين باردو والجامع » ، فقال لي : « ذلك يفعله السلطان العثماني وليس لنا ان نفعل مثله ، فالمناسب الادب معه » . ثم قلت له :

(1) هذا البيت مثبت في غ و ع ، مساقط من ق .

(2) كذلك في غ ، وفي ع و ق : « من ابراج الحاضرة وضواحيها وحلق الوادي » .

« هل ترى أن تحبّس على هذه المأثرة شيئا ؟ » فقال لي : « نحبّس عليها مملّك تونس ، ويستحيل أن من يقوم مقامى يتركها ويرضى لنفسه نسبة الاستخفاف بالمولد النبوي » . وبعد ذلك كاتب رئيس مجلس الشريعة بالقيروان أبا عبد الله محمد صدّام أن يفعل بالجامع الاكبر مثل عمل جامع الزيتونة ، وكاتب العامل يعطيه الزيت والدرهم . وكان يبيت ليلة المولد بالحاضرة في داره بالقصبة ، ويصليّ العشاء بالجامع الاعظم ، ثم يخرج راجلاً بلا سلاح للدوران في البلاد وأسواقها كعامة الناس ، يزاحمهم ويذاحمونه . فاذا وقف له أحد أو تأدب أنكر عليه ذلك ، ويقول [لمن حاذاه] (1) : « أنا في هذه الليلة كواحد من سكّان الحاضرة » . وهو على بشاشة واسلوب ، يجلب بجاذبه القلوب . ولقد اجتاز في ليلة مولد بصبيّ ضلّ عن أبيه في مزدحم الناس بمحجّ الثبّانين ، فاستغاث باكياً ، فأخذه من الطريق وأوقفه ووقف حذوه يحرسه حتى أتى أبوه وعرفه وضحك الصبيّ ، ثم مرّ .

وابواب المدينة ليلة ميّته بالحاضرة مفتوحة ، واسباب السرور والهناء ممنوحة .



وفي جمادى الثانية من السنة 1257 (جويلية — أوت 1841 م) (2) ، التزم ابو عبد الله محمد بن عيّاد وظيفة دار الجلد بسبعمئة الف ريال ، وقد كانت بثلاثمئة الف ريال . وحصل هذه الوظيفة ان سائر جلد البقر بالملكة تأخذه الدولة [من الجزارين وغيرهم] بتافه لا عبّة به ، وكأنه في مقابلة زكاة البقر . ثم يدبغ بدار الجلد ويبيع لاهل صناعاته بالمزايدة في مجتمع بالحاضرة يعرف بحلقة النعال (3) . ويباع منه ما زاد على احتياج المملكة لخارجها . ولا يتصرف في ذلك غير [من يلتزمه من] الدولة . ومن ثواب هذا الوظيفة عصر العسل بمعصرة في دار الجلد وتأخذ الدولة الشمع . وتمتدّ

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذلك ع ، وفي ع : « جمادى الاولى من السنة 56 » ، وفي ق : « جمادى الاولى من السنة 57 » لكن الرقم كان 6 غير الى 7 .

(3) « اسمها الاصل حلقة النحال » ، قلبوا حاصها عينا لاعتقادهم ان كلمة النحال هي المناسبة لذلك ، لوجود سوق صنع الاحذية المجاورة لها « تاريخ معاليم التوحيد لمحمد بن الحوجة ص 11 - تونس 1939 » .

أيدي الملتزمين في الناس بآثامهم باخفاء الجلد ، حتى إن أتباعهم من المفتشين يدخلون بيوت العربان ويلقون فيها ولو قدر الراحة (1) من الجلد ، يفعلون معهم في شراء عقوبتهم ما يجدونه عند الله حاضرا . ويتهمونهم بافساد بيوت النحل أو حرقها ، ولو احترقت بأمر سماوي . ويشترى المسكين نفسه منهم [ارتكابا لآخف الضررين] . والتغالي في هذه اللزمة معتبر فيه هذه العقوبات المالية . وقد كانت هذه اللزمة في أوائل هذا القرن بيد جماعة من يهود البلاد ، وليتها دامت بأيديهم ، إذ لم يفعلوا فعل هؤلاء المسلمين ولا ما يقرب منه ، وأول من زاد على اليهود والتزمها بعدهم ، أبو الربيع سليمان بالحاج ، لكن على غير هذه الحالة الفظيعة التي كاد أن ينقطع بها العسل والشمع من تونس ، وقد كانت تخرج القناطير المقنطرة منهما (2) . والملجئ لذلك كثرة الإنفاق على العسكر المحبوسين وأنعب الناس ذو حال ثرقعها يد التجمل والإقتار بخير قها



وفي ذي القعدة من السنة 1257 ( ديسمبر 1841 م ) ، عزم الباي على جمع العسكر من القيروان والسواحل ، وتسريح من تقدمت خدمته (3) ، فكتب لكل بلد منهم من قلم العبد الفقير ما نصه : « من عبد الله سبحانه ، الراجي عفوه وغفرانه ، المشير أحمد باشا باي ، وفقه الله لما يرضاه ، وأعانه على ما أولاه ، إلى أولادنا كافة أهل سوسة والمفتين والقضاة والائمة والمشايخ وسائر أولي الولايات ، والخاص والعام ، ممن في ذلك الوطن من الاسلام ، شرح الله للحق صدورهم ، وأصلح بمنه أمورهم . أما بعد فإن الله استرعانا جماعتكم ، وحرّم علينا إضاعتكم ، وكلّفنا القيام بمصلحتكم ، وحفظ لئالتكم . ولا يتم هذا المراد ، الا بالعساكر (4) والاجناد ، في كل أرض وبلاد ، وعندنا من العسكر جيش مضت لهم في الخدمة أعوام ، وبلغوا من الصناعة الحربية أقصى مرام ، شأنهم السلاح وما يتعلق بالحرب ، والاستعداد لمواقع الطعن والضرب ، وشغلناهم في هذه الاعوام ، بما يجب على سائر الاسلام ، من هذه العبادة الدينية ، عن الاشتغال

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « قدر اصبح » .

(2) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « من طالت خدمته » .

(4) كذا في خ و ع ، وفي ق : « لا بتكثير العساكر » .

بأحوالهم الدنيوية ، وقد حصلوا ان شاء الله من الاجر زادا نافعا لأُخْرَاهُمْ ، واقتضى النظر أن نسرّحهم لامور دنياهم ، ونكتب عوضهم من بلدانكم ، ما نُعِدُّهُ لحفظ أوطانكم ، وحماية أموالكم وأبدانكم ، وننظّمهم في سلك عائلتنا العساكر إخوانكم ، يقيمون زمانا على الخدمة في تعلم هذا العمل ، حتى نبليغ في اتقان تدريبهم الامل ، ثم نسرّحهم كما فعلنا بأمثالهم الأوّل . وفي الحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضا » ، وكيف لا نتعاون على طاعة جعلها ربنا علينا فرضا . وها نحن وجّهنا لكم الفاضل الكامل الأَرْضَى ، الثقة الهمام الأعزّ الأَحْظَى ، إبننا مصطفى باش آغّة يتخب من يصلح لذلك من رجالكم ، ليكون استعدادهم سببا في صلاح أحوالكم ، وبلوغ آمالكم من ثمرات أعمالكم ، وتجدون ثواب ذلك عند مآلكم . فالواجب عليكم ان تتسارعوا لإعانتة في هذا الشأن ، ولا يمتنع منه إنسان ، اذ شرطه القدوة والإيمان ، والمؤمن يسعى في إعزاز دينه ، على قدر إيمانه وبقينه ، والغافل يَبْدُل في حماية وطنه وبلاده ، غايةً وَسْعِهِ ومنتهى اجتهاده . وقد قال سيّدُ ولد عدنان : « حب الوطن من الإيمان » ، ومن براهين محبته ، بذل النفوس لإمضاء شوكتة ، والاستعداد للمدافعة عن حوزته ، وحفظ أهل وجماعته . ومن امتنع او قصر فقد أمرنا ربنا بعقابه ، وتوعده يوم القيامة بعذابه ، حيث تقاعد عن حماية دينه وإعزاز كتابه . وأنتم وقر الله أعدادكم ، وكتبّت بكم أصدادكم ، أُعِيدْكم أن لا تكون منكم جيوش لحفظ ملتكم ، وحماية تربتكم . حاشا نفوس الاحرار ، أن ترضى بهذا العار ، أو تميل إلى البطالة والراحة ، عن حماية البلد والساحة . والله يجعل البركة في جماعتكم ، ويُعِينْكم على القيام بواجب طاعتكم . فاقرؤوا كتابنا هذا على العامة في جامع صلاتكم ، واعلموا أنه من عبادانكم . والله يُصْلِحَ القول والعمل ، ويبلغني من إعزازكم منتهى الامل ، انه قريب مجيب .

وكتب في 12 ذي القعدة (1) ، سنة 1257 ( الاحد 26 ديسمبر 1841 م ) .

وتوجه هذا الوزير المأمور بكتّاب عددٍ معلوم ، وانتخابه لاجتهاده . فأنى بآلاي كامل (2) ، توخّى فيه الحق وعدم الضرر والتسوية ، وراعى الإيتام والارامل

(1) « 12 » ساقطة من ع و ق ، مثبتة في خ

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « بثلاثة آلاف » .

والشيوخ ، ولم يكتب من يقوم عليهم ، ولم يُثبِت منهم أحدا ، وكأنه حاذى بذلك ما يشبه قانون التنظيمات . وطاب في الوجهة خبَرُهُ ، وحسن أثره .

✽

وفي اواخر محرم من سنة 1258 ، ثمان وخمسين (اواسط مارس 1842 م) ، وجّه الباي هدية للدولة العلية ، وهي كروية ممتومة بمدافعها وسائر ما يلزمها ، وهي من عمل تونس ، وخمسون الف ريال دورو ، واشياء من نتائج البلاد . وسبب ذلك ان الصدر الاعظم مصطفى رشيد باشا لما لم يعمل الباي بنصيبه السابقة ، أكثر بالتعاليل ، واجتهد في امضاء التنظيمات الخيرية بتونس ، حتى قال : « لا يمكن ان السلطان يتصرف بقانون تنظيماته ، وباشا تونس يتصرف في المسلمين بلا قانون شرعي ولا سياسي ، ومآل ذلك الى خراب المملكة لا محالة » . ويقال ، والله اعلم ، انه سلم في الوزارة لاجل ذلك . ولا بلغ ذلك للباي استشار وزراءه ، فأشاروا عليه بارسال شيء من المال على انه هدية (1) ، ويتوجه من يستكشف الخبر ويناضل عنه كأنه من تلقاء نفسه . واختير لذلك [ الشيخُ المسنُّ الاجلُّ ] ابو محمد خير الدين كهاية دار الباشا ، والعبدُ الفقير . وسمّانا معا في مكتوبه باللغة التركية . ولا أردنا السفر قال لي الباي بمحضر خير الدين [ وغيره من الوزراء ] : ما تُنتِجُه وجهتكما من المصلحة تُنسب لكما معا ، وان وقع ضدّها فلا تُنسبُ لخير الدين منه شيئا ، ولا اكما فح شيته بلام ، انما الملام عليك وحدك ، فكن عند الظن . [ ولا استعظمتُ الامر ] (2) أصحّبني شيخنا العلامة ابو اسحاق ابراهيم الرياحي مكتوبا منه للعلامة الحجة القدوة السيد عارف باي ، وأعطاني مسودةً المكتوب ، وهي عندي بخطه أتبرك بها ، ونصّها : « المقام الذي رفع الله قدره ، وأكمل في سماء العزّ بדרه ، وطهر من الدنس سرّه وجهه ، وطيب في أنف الدهر ذكره ، مقام مولانا الهمام الامجد ، والإمام الاوحد ، غرة سعادة الايام ، وواسطة عقد نظام العلماء الاعلام ، صدر صدور الافاضل ، ومزية الاواخر على الاوائل ، معدن الاسرار واللطائف ، وكعبة العلم التي يثوب اليها كل طائف ، ابو العباس سيدي أحمد عارف ، أدام الله إسعادَه ، وأفاض على البرية إمداده ، سلام تفوح أعطاره ،

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « مع الهدية » .

(2) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

وتبوح بسرائر المودة أسواره ، لا يهتدي لكماله تنقيص ، ولا يعترى عمومته تخصيص\* .  
هذا ولاني من حين بلوغ كتابكم الكريم ، المعرب عن ودادكم القديم ، المصحوب  
بصليتكم المرفوعة على المقرق ، المدكرة بالسندس والاستبرق ، مقيم على شكر  
إفضالكم الجليل ، إقامة شامة وطفيل (1) ، سائل عن أحوالكم كل مظنة ، فيقع  
الجواب بما لله فيه المنة . هذا واستمد من مدد جاهكم المقبول ، وعزكم الذي لا يحول  
ولا يزول ، إعانة أحد أبناء قلبي ، الذي هو أعز من أبناء صُلبي ، نخبة نجباء أبناء  
درسي ، وأشكر من تمتع بشمار غرسي ، مختار ديوان الإنشاء ، المبوأ من مراتب  
الدولة ما يشاء ، القائم منها مقام الانسان من العين ، المنزل من الباشا منزلة الحسن والحسين ،  
فلان (2) ، فانه وارد إلى حضرتكم العلية ، في قضاء لبانة سلطانية ، فمرادنا من علي\*  
همتكم إعانتته بالامداد والإسعاد ، حتى يبلغ من أمله نهاية المراد . والله تعالى يُبقيكم  
للاسلام ، ويجمع شملكم بخير الانام ، في الدنيا قبل يوم القيام ، آمين . من معظم  
قدركم ابراهيم الرياحي . اهـ .

وسافرنا في الثامن والعشرين من محرم سنة 1258 (الجمعة 11 مارس 1842 م-) ، ومعنا  
أبو عبد الله كشك محمد في الكروية المهداة . ولما وصلنا القسطنطينية العظمى قابلتنا  
الدولة العلية بما يقتضيه فضلها ، وقبِلت الكروية أحسن قبول . وأتانا السلطان عبد  
المجيد وطلع إليها وأكل فيها ما أعدناه لتلقيه . وقابلنا في الجفن المعروف بالمحمودية ،  
فاستحسن الهدية وشكر المهدى ودعا له وللوطن ، [ومركز دعائه حفظ عصابة  
المسلمين وإعانتهم على ما فيه الصلاح] (3) .

ووزير البحر يومئذ طاهر باشا ، والصلبر الاعظم عزت محمد باشا ، ورشيد باشا  
إذ ذاك متخل عن الخطة . ثم استدعانا « حربية ناظري » ، وهو نجيب علي باشا ، من  
أعيان الوزراء يتكلم بالعربية ، الى بستانه في البوغاز ، وأكرم مبيتنا عنده ، وكلمنا في  
شأن اللحة الاسلامية بأداء شيء من المال في كل سنة [موكول تعيين مقداره للبasha ،  
ولو أقل مما أتيتم به الآن ، اذ المقصود به ربط الالتحام لا الالتحام] (4) ، فقلنا له :

(1) شامة وطفيل : جبلان قرب مكة (ياقوت) .

(2) كلما في غ و ع ، وفي ق : « الشيخ احمد بن ابي الضياف » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) الزيادة عن ع و ق .

« إن الالتحام لم يزل في زيادة ، ما دامت العادة . وعلى فرض ان الباي يخرقها ، فأهل المملكة لا تُطيعه على ذلك ، لان أكثرها بَوَادِي العربان » . ثم استدعانا الصدر الاعظم عزّت باشا ، ومعنا القبطان كشك محمد ، فتكلّم في شأن المال وأجبناه . ثم قال لنا : « أترضون أن يكون صنّجق بلادكم في هذه الحاضرة مخالفا لصنّجق الاسلام ؟ » ، فتقدّم له كشك محمد وقال له : « ان هؤلاء لا دخل لهم في شيء من لوازم الشقوف (1) ، لانهم رُكّاب ، واما الصنّجق فهو أمانة الله عندي وفي وجهي ، لا أزيله إلا بعد زوال رأسي . ونحن الآن تحت أمركم ، ويدكم طائلة . فابعث لإزالته وأبدله بما شئت » ، فقال له : « المناسب ان يكون ذلك منكم بلا غصب » ، فقال له القبطان : « نبلغ ذلك لصاحبه وكاتبه أنت بما تراه » ، فقال : « بلغوا ذلك عني مشافهةً له » ، فقلنا له : « نعم » .

ثم كلّمنا في شأن التنظيمات الخيرية وقال : « ان الحال يقتضي السرعة بترتيبها ، وأنتم بدونها في خطر » . ثم خصّصني من الجماعة وقال لي : « ان السيد عارف باي عنده كلام معك في ذلك » . وأما طاهر باشا فلم يكلمنا في شيء من ذلك ، وقد أكرمنا غاية الإكرام ، ويبدو من حاله ان رأيه مخالف لرأي رشيد باشا .

وتفضل السلطان على بحرية التوانسة وضباطهم بخمسين ألف قرش وزّعها خير الدين على جماعتهم .

ثم استدعاني السيد عارف باي لضيافته ، وسامرته فرأيت بحر العلم الزاخر ، ومصداقاً « كم ترك الأوّل للآخر » ، ومتانة الدين ، وفكر المجتهدين . وسألني عن شيخنا ، وقد بعثت له مكتوبه يوم وصولنا ، وبالغ في الثناء على الشيخ [شأن المنصفين] (2) . ثم تكلم في شأن التنظيمات وأطال ، وأنها من اصول دين الاسلام ، حتى قال : « يقبح بنا ، معاشر المسلمين ، ان يغصبنا غيرنا على أعظم أصول ملتنا ، وهو العدل الذي يحبه الله ولا يحب غيره ، وكأن هؤلاء الملوك يريدون مشاركة الله في

(1) في غ : « الشقوف » وفي ع و ق : « المراكب »

(2) الزيادة عن ع و ق .



كونه يفعل ما يريد ولا معقّب لحكمه » ، الى غير ذلك مما تقدم في العقد الاول من هذا الكتاب (3) .

وكلّما عارضته بشبهة اجثّ أصلها وبّت وصلها . وأوصاني ان أقول للباي على لسانه : « الدين النصيحة لله ورسوله وأيّمة المسلمين وعامّتهم . وهذا الامر لا بدّ منه ولو بعد حين ، فمن الحزم ان يتدرّج العاقل في سلّمه باختياره » . ولم يكلمني في غير التنظيمات من المطالب ، وهو ممن يرى مخالفة رشيد باشا ، ويُثقل عنه انه يقول : « لأن يكون سلطاننا سلطان السلاطين خير من ان يكون سلطان الباشاوات » وبهذه السياسة اتسعت المملكة العثمانية وسهلت عليها الحروب . ثم صار هذا الفاضل يطلبني لسمارته والمبيت عنده ، مراعاةً لمكتوب شيخنا المتقدم ذكره ، وذلك من فضله . وغنّمت من فؤاده ما يُزري بالنضار ، ورأيت ذلك الفكر كيف يسبح في لحج الانظار .

سامرته ليلة فأومض برق من جهة المغرب ، فقال لي : « هذا البرق من جهة بلادكم ، فهل لك ان تقول فيه شعرا ؟ » ، فاعترفت بقصوري وأخذت دواة وناولني بطاقة ، وقال لي : « كن في ذلك الركن » . ثم أخذ كتابا وشرع ينظر فيه ، فلم يقه أحد من الجماعة بينت شفة حتى أتممت ما تيسر ، وهو :

تألق غربيا فذكرني الخضر	وأذكي لئار الشوق في كبدي جمرا
اذا ما سلا قلبي بروض علومكم	أنته جنود العهد تطلبه قسرا
تثير قتام النقع في رحب صدره	فتملك منه القلب والسر والجهر
ويرتاح للغارات من عدو خيلها	فيوري لها جنبا لتأخذه قهرا
حينما إلى أنسي ومعه رفقتي	ومنشا شبابي لا عديمت به فخرا
بلادي التي ربّت وحنّت وهذا	قبائسها ما إن يجوع ولا يعرى
سقى حلق واديها وكل حصونها	من السحب غيث يُمطر العز والنصرا
بنفسي أفديها وأحمد حبها	وأقطع في مرضاته السر والبحرا

(7) بهامش في 2 : 223 ، ويخط مغاير : « وجد بآخر مكتوب من المؤلف حال اياه ، مؤرخ في 7 يوم الاربعاء سابع جمادى الاولى سنة 1258 ، ما نصه : وقد وجدت باسلامبول رجل فقيه (كلدا بالاصل) تونس اسمه السيد محمود قبادو ، يقرى البيضاوى . وله رغبة في الرجوع لوطنه ، فأسعفته . ووجه معى صناديق كتبه نحو ثمانية . ووعدني أن يلحق في الفاوور ، فوجدته بمالطة سيقنا ، ولما تمّ الكرتينة يقدم . وهذا الرجل أصله مؤدب بدار سيدى الكاهية ، وسافر من تونس قرأ . وهو الآن من اعيان الطلبة . وما كنت اعرفه من قبل الا فى اسلامبول وذكر لي انه يعرف سى حمدة الشباب ، والسلام » .

حماها وألقى نفسه دون نيلها      وقد جالت الأيدي بِضَرْفِهَا الأخرى  
وصعب ملقأها وسهل عيشها      وزين مرآها فلكه ما أدرى  
فأضحت وعيناها من العشق ما ترى      سواء ، وقد ضمته ، في جيدها صدرا  
فلا زال منصور السواء مؤيدا      وفخر بني عثمان يلبسه سترا  
همامهم عبد المجيد إمامه      وقد وثقه في كل معضلة كبرى  
يدوم له التأيد والنصر والهناء      ليبقي لدين الله من عزه ذكرا

وناولته ذلك على خجل فلمحه بعين الرضى ، وقراه على الحاضرين ، ثم قال لي :  
« ناشدتك الله أي الضرتين أردت ؟ » ، فقلت له : « المتبادر في الخارج » ، فقال :  
« كل منهما متبادر » ، وكأنه استظرف ذلك . وقال للحاضرين : « كاشفت عن  
ضمير الشيخ فاذا فيه ان ضربتها الأخرى هي طرابلس ، وسياق الحال من اسباب قدومه  
يشهد لي ، ولفظ « الأخرى » ايضا يشهد لي » .

وما زلنا في كرم تلك الدولة العلية ، وفواضلها الجليلة ، الى ان تم طرز الستري (1) ،  
فرجعنا ، وأتى معنا القابكايه (2) ، واسمه عارف زكي ، من رجال القلم ، في فرقاطة  
عثمانية ، ومعه نشان يوضع في مقدم الشاشية ، زيادة على نشانه الاول ، يلبسهما معا ،  
وثوب على وهو الستري . ووجدنا الباي بحلق الوادي ، فأكرم رسول الدولة وغمره  
باحسانه ، وأنزله في منوبة . ولم يفتح له باب المخاطبة والحججاج الذي قدم لاجله ،  
واشتد حنره لما علم تصميم الاكثر من رجال الدولة على رأي رشيد باشا في التنظيمات ،  
لانه أجاب الدولة بأنه يفعل ، ولا يجد عذرا ولا بدأ منها ، وأن الدولة العثمانية تجد  
اليه السبيل شرعا لغصبه على فعلها ، لا سيما والطبع البشري مجبول عليها .



وفي يوم الاثنين الثالث وعشرين<sup>(1)</sup> جمادى الثانية من السنة 1258 (1 أوت 1842 م) ،  
عزل الداي مصطفى الطرابلسي (3) . وسببه الظاهري ان الفقيه الوجيه أبا المحاسن يوسف  
ابن العالم الفقيه أبي يعلى حمزة الجباس ، ركبه دين أثقل ظهره ، وسجّين لاجله في

(1) رداء مطرز كان من الازياء الرسمية .

(2) كندا في خ ، وفي ع و ق : « القابكايه » ، ومقابلته في الاوروبية : Hospodar .

(3) كندا في خ ، وفي ع و ق : « عزل الباي الداي مصطفى المتقدم ذكره » .

محبس الداي ، فوقعت مشاجرة بينه وبين أحد المساجين ، ووصل خبرهما الى الداي ، فأحضرهما وأمر بضرب الفقيه يوسف الجباس [بين يديه] ، فتمى الخبر للباي ، وكان غيورا على أهل (1) البلاد ، فعزله وأولى عوضه باش حانبة احمد داي المتقدم جميل أثره في قومة (2) الترك سنة 1231 ، إحدى وثلاثين (1815/16 م) . وبعد أيام قليلة عمي مصطفى المعزول وتوفي إثر ذلك . والسبب الحقيقي في عزله انه لما قرئ في فرمان التنظيمات ، وهو ممن يشار اليه في ذلك الموكب ، شرع يبكي ويفسر للناس [بالعربية] معاني فرمان المجبول عليها الانسان ، فأسرها [الباي] في نفسه ، وذكروا في خواصته ، حتى وجد [لعزله] (3) هذا السبب (4) .

وفي شعبان من السنة 1258 (سبتمبر - أكتوبر 1842 م) ، رتب الآلاي الخامس ، واقتضى حزمه أن يدفع لاميده ، وهو صهره الاجل أبو عبد الله محمد الماربط الغرياني من أعيان بيوت القيروان ، الآلوية في موكب مشهود ، وأمرني ان أقوم في الموكب بمقال مناسب ، تصفحه قبل قراءته .

ولما كان يوم الاربعاء السادس عشر (5) من الشهر (21 سبتمبر 1842 م) ، جمع اكابر العسكر في المحكمة سيماطين ، ووقف ابن عمه أبو عبد الله محمد باي عن يمينه ووزيره أبو النخبة مصطفى خزنه دار حذوه ، والوزير مصطفى صاحب الطابع عن شماله والوزير ابو النخبة مصطفى آغة حذوه ، وبأيديهم الصناجق ، وآل بيته محمد قون به . ولما أخذت الناس مراكزها أشار إلي ، فقلت ما نصته :

« الحمد لله الذي جعل للراية شانا ، وألف بين قلوبنا فأصبحنا بنعمته إخوانا ، وعلى طاعة أميرنا وحماية وطننا أعوانا ، نفرز لذلك شيوخا وكهولا وشبانا ، وأشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تملأ القلب إيمانا ، وأشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله أرفع الانبياء مكانا ، صاحب لواء الشفاعة يوم ينصب الحق للخلق قسطا وميزانا ، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا بالنهار أسودا وبالليل رهبانا ، حتى شيتلوا من معالم الملة أركاننا .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « على أعيان البلاد » .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ثورة الترك » (انظر ص 119 ج 3) .

(3) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « هذا السبيل » .

(5) هو 15 حسب التقويم .

أيها الوزراء والأمراء ، وأعيان الكبراء ، وحَمَلَة السيوف ، ورؤوس الصفوف ، والامناء على الألوف ، ومن لهم المقام المعروف ، أخطبكم بلسانكم ، معبراً عن الثابت في جَنَانِكُمْ ، الساري مسرى الدَّم في أبدانكم ، عامتكم وأعيانكم ، ان مولانا وسيّدنا المشير احمد باشا باي وليّ نعمتنا ، ومدارَ عصبتنا ، واجيبَ الطاعة بالحق ، على من في هذا القطر من الخلق ، ومن نرمي رؤوسنا قبل أن تُسام عصاه بشقٍّ ، مستحقّ الإمارة إرثاً واكتساباً ، جزاء من ربك عطاء حساباً ، استأنف لهذه الدولة الحسينية شباباً ، وانتدب إلى إعزاز نسبتنا التونسية انتداباً ، وألبس قطرنا من شعار الرفعة جليّاباً ، وسدّ دونه من المذلّة والمكاره أبواباً . فالواجب على همم الرجال ، وأبطال الأوجال ، أن تلقى في مرضاته الأرواح والأبدان ، وتختار شرف الموت عن مذلّة الهوان ، وقد زاد الآن في عصبتنا ، ونظم في سلك جماعتنا ، جيشاً كاملاً من إخواننا ، ودفع لهمتهم هذا اللواء المنصور ، فليهنئ (1) جميعنا هذا السرور . واللواء عماد معلق به الهمة والعرض (2) ، وحبّ الوطن والارض ، فلذلك كانت غيرتنا عليه واحدة ، وقلوبنا على إعزازه متعاضدة ، إذ هو مظهر عرضنا (3) وبلادنا ، تربة آبائنا ومنبت أولادنا ، المحوطة بصلبونا من أضدادنا ، ونفوسُ الأحرار ، تموت في رعي الجوار ، أخرى في الدفاع عن الوطن والدار ، تونسُ دارُنا ونعمت الدار ، والاعتماد على الله شعارنا وهو نعم الشعار ، وأحمد أميرنا ونلقي النفس دونه الى النار . وبهذه النية نبسط الى الله أكفّ الضراعة ، ونسأله الإعانة على ما أوجب لاميرنا من فروض الطاعة ، وحماية أوطاننا من التشيت والإضاعة ، وأن يقوّي العصابة الاحمدية في صدور الجماعة ، ويجعل الملك فيه وفي عقبه الى قيام الساعة . ربّنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ، قرعنا باب فضلك وهو بالإجابة جدير ، متوسلين في بقاء هذه النية الصالحة ، ببركة رسولك وبسرّ الفاتحة » .

وعند ذلك ناول بيده الصناجق للأمراء ، بعد اليمين على العادة النظامية ، وختم الموكب بقراءة الفاتحة .

(1) في خ و ع و ق : « فليهن » .

(2) كذا في خ و ع ، وفي ق : « العرض » .

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « عرضنا » .

وفي هذه السنة 1258 ، أحدث الباي ليزمة الجبس ، وجعل بمقطعه معملًا ، وقصر بيّعه على الدولة ، وزاد في ثمنه ما لا يجحف كل الإجحاف . ونفقة العساكر ألبأت الباي الى المكوس ونحوها .



وفي رمضان من السنة 1258 ، (27 رمضان — 1 ديسمبر 1842 م) ، رتب الباي ثلاثين مدرّسا بجامع الزيتونة ، نصفهم من المالكية ونصفهم من الحنفية ، وجبّس عليهم دخل بيت المال ، وهو إرث من لا عاصب له . وكتب ذلك في منشور بالذهب ، وختمه بطابعه ، وعلّقه عند باب الشفاء من جامع الزيتونة ، وأمرني بالإطّناء فيه ، ونصّه :

« الحمد لله رافع العلماء على ذرى شرف كامل ، الذي لا يُضَيِّع عملَ عامل ، ولا يخيّب من فضله العميم أملَ أمل ، مُعوِّد العلم وأهله بكل يسرٍ شامل ، ومُنْجِدِه في الآزِمات بكل كافٍ من أوليائه وكافل ، ومُمدِّه بناصر بعد ناصر ومناضل بعد مناضل ، من كل إمام مجتهد أو ملك فاضل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أصدق قائل وأكرم فاعل ، متقدِّنا من بحر جهل بلا ساحل ، وقائدين إلى السعادة في العاجل والآجل ، والملدجا المنيع من كل خطب هائل ، وعلى آله وأصحابه أدلّة كل عارف وسائل ، السابقين في ميدان الإيمان بما شأوا من بأس وفائل ، والممتازين بكرم السجايا وطيب الشمائل ، ونستوهب منك اللهم عناية لا تَطْرُق الخطوبُ حِمَاها ، ولا يغيّر الدهرُ اسمها ولا مسمّاها ، وعزّا لا ينتهي حدُّه ، ونصرا يمضي في الاعداء حدّه ، لهذه الدولة الاحمدية الحسينية ، وشجرة الملك التونسية الربّانية ، العزيزة الحمى ، التي أصلها ثابت وفرعها في السما ، استظلت به الخضراء تونس ، وأبدت جمالها المونس .

اما بعد فان العلم أنفس البضاعات ، وأرفع الدرجات ، ناهيك بقول الحق : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » (1) ، دلّ على شرفه العقل والكتاب ، بصريح الخطاب ، « هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » (2) . والواجب على من قلّده الله

(1) س 2/58 .

(2) س 2/39 ، ونص الآية الكريمة : « قل هل يستوى ..... الآية » .

أمرَ عباده ، في أرضه وبلاده ، أن يبدل في تكثيره منتهى اجتهاده ، حتى يفوز من فتح البصائر بغاية مراده . وقد ألهم الله لهذه المنقبة التي تُردّد وتُذكر ، وبكل لسان تشكر ، ولا يُجحد فضلها ولا ينكر ، بل جحدّها في الدين من المنكر ، أميرَ العصر ، ومشيرَ هذا المصر ، الذي دأب على حوطة المجد وجدّ ، وورث الملك من أب وجدّ ، واستغرقت كمالاته الحصر والعدّ ، وبلغ في السياسة منتهى الحدّ ، واستعذب في إعزاز هذا القطر المشقة والكدّ ، وغلق دونه أبواب المكارِه وسدّ ، وقوّاه بجنود من أهله ورأي أسدّ ، الملك المطاع ، قرة العيون ونزّهة الاسماع ، المتعقد على فضله الإجماع مولانا وسيدنا ذلك المشير أحمد باشا باي أمير المؤمنين بالقطر التونسي ، أعزّ الله به عصابته ، وأدام إصابته ، فأمر بهذا الرقيم ، المتلقّى بالطاعة والتعظيم ، في أن جميع دخل بيت المال الذي كان يستعين به على مصالح العباد ، ومهمّات البلاد ، جعله إعانة للعلم الشريف على ترتيب أنتجه فكره السديد ، ورأيه الصائب الحميد ، وهو انتخاب خمسة عشر عالما من المالكية ، ومثلهم من الحنفية ، وجعل لكل واحد منهم ريالين في كل يوم ، على أن يقرء بهذا الجامع الاعظم درّسين في أي فن وفي أي وقت تيسر له من النهار ، ومن تخلف بغير عذر شرعي لا يستحق المرتب أيام تخلفه ، الا يوم الخميس ويوم الجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين . وقلّد النظر في ذلك لشَيْخِي الإسلام الحنفي والمالكى ، ومرتب كل واحد منهما على النظر مائة ريال في كل شهر ، وأعانهما على النظر في ذلك بالقاضيين الحنفي والمالكى ، وجعل لكل واحد منهما ثلاثة ريالات في اليوم ، بشرط أن يأتي كل واحد من الاربعة يوما الى الجامع لتحريض المتكاسل وطرح مرتب من لم يحضر من المدرّسين بغير العذر الشرعي . وقلّد هؤلاء المشايخ الاربعة النظر في حفظ بيت المال وضبط دخله وخرجه ، ومباشرة أمور القيمين به ، وعرض ما يتعلق بذلك بين يديه لينفذ ما يظهر له مصلحته من ذلك . ولم يُبقِ مصرفا في بيت المال لاحد عدا العلماء المذكورين والمشايخ والنظار والقيمين عليه ، وتجهيز دفن الغرباء . كما أمر بتحرير مصرف بيت المال في ظهير بيد الآغة لا يتجاوزه . وبعد كل ستة اشهر من شهر التاريخ يحضر القيمون على بيت المال في الجامع لدى المشايخ الاربعة ويحاسبونهم على الدخل والخرج فصلاّ فصلاّ ، ويسطرون المحاسبة مصحّحة بخطوطهم ، وتُرفع الى مولانا ليأمر بامضائها . واذا فضل في بيت المال شيء من المصروف المذكور فان القاضل يشتري به عقار ليكون ريعه تقوية لبيت

المال ، وذلك مدة خمس سنين . وبعد السنة الخامسة ، اذا فضل شيء من دخل بيت المال الذي منه دخل العقار المشتري من فاضل الخمس سنين ، فان ذلك الفاضل يقسم على المنقطعين لقراءة العلم على المشائخ المذكورين ، سَوِيَّةً بينهم . ولا يستحق ذلك الا المواظب على القراءة . والنظر في قسمة ذلك على المواظبين من الطلبة للمشائخ الاربعة . واذا نقص واحد من هؤلاء الثلاثين عالما ، فان من يتولى عوضه يكون باتفاق المشائخ الاربعة ، ينتخبون أعلم الموجودين في العصر . وان تساوت رتبة الموجودين فلا بد من امتحانهم بالمناظرة بمحضر المشائخ حتى يكون من تقدم انما هو بنفسه . ويرفع اسمه إلى مولانا ليأمر له بظهير في خُطَّته يستحق به المرتب المذكور . وحكم ، أيده الله ، بجميع ذلك وأمضاه ، وألزم العمل بمقتضاه ، رغبة في إظهار العلم وتحصيل علاه ، والهدى هدى الله . وأمر ، أدام الله أمره ، وأعلى في الخافقين ذكره ، برسم هذا الظهير في هذا البيت المعمور حرصا على بقاءه على شرطه مدى الدهور ، لا سبيل لنقضه بعد إبرامه ، ولا لنسخه بعد إحكامه ، يُدَيِّمُه الله ورسوله والمؤمنون ، وتقويه الآعصار والسُّنُونُ ، ومن سعى في نقضه فما ربك بغافل عما يعمل الظالمون ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون ، ولئلا هذا فليعمل العاملون ، والله خلقكم وما تعملون .

وكتب في 27 رمضان سنة 1258 .

[وظهرت عنايته بهذه المسألة] (1) ، وأتى الجامع مرارا في غير أوقات الصلاة ، ويجلس وراء حلق التدريس ، ولا يقوم له الشيخ ولا أحد من الطلبة ، تحريكا لعزائم الطلبة وترغيبا لهم فيما يقرب إلى الله زُلْفَى ، ويُسَمِّرُ في الدنيا العزَّ الآفَى .

وميز هؤلاء المدرسين عن غيرهم بأن يأتوا في الاعياد مجتمعين ، يؤمهم كبير أئمة الجامع الاعظم ، ويقبلهم بعد أهل المجلس الشرعي ببيت الباشا . ولم يزل يوجه لهم العناية .

وفي هذه الايام نَفَقَ سوقُ العلم وتجدد شبابُه ، وسال سبيله وَعَبَّ عِبَابُهُ ، وانفتح للاجتهد بابُه ، وتظاهرت أسبابه ، وأشرقت بأفق هذه الحاضرة نجوم وأهليَّة هم الآن شمس وبدور، تتجمل بهم [المحافل و] (2) الصدور . والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ق .

وفي العاشر من شوال السنة 1258 (الاثنين 14 ديسمبر 1842 م.) ، أسقط مالا كان مرتباً على أهل جربة من أيام عمته ، على يد الوزير شاكير صاحب الطابع ، بواسطة أحد أعيانها أبي الفلاح صالح بن صالح ، وبه سكت جربة من مظالم العمال برهة من الزمن ، وقصرت أيديهم عن التعدّي بعض قصور . وأهل جربة أعظم ثروتهم من المتجر ، وهو يقتضي وجود المال ، وبذلك سهل عليهم تحمّل ذلك الترتيب ورأوه أخفّ الضررين ، بل ساءهم إبداله . وأمرني بكتب منشور لاهلها نصّه :

« سبحان من أناط بالعدل العمران ، وخص بالسياسة نوع الإنسان ، وشرفه بالاصغرين القلب واللسان ، وهدهاه إلى تعمير الامصار وحماية البلدان ، أحمدّه وهو المحمود بكل لسان ، والصلاة على سيدنا محمد فائدة الاكوان ، المخصوص بمعجزات القرآن ، ومن آياته : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » (1) ، وعلى آله وأصحابه أولي الشأن ، الذين أذلتوا بعزة الله أنوف الطغيان . أمّا بعد فهذا ظهير بني على العدل أساسه ، ودلّ على ما يرضي الله التماسه ، وأضاه بالصلاح نبراسه ، وزكت فصوله وأجناسه ، حرّراه وأمضيّناه ، وألزمنا العمل بمقتضاه ، لكافة أولادنا سكان جربة حرسها الله وسائر القطر التونسي بعين عنايته ، وأسبل عليها وعلى ساكنيها ستر عافيته . لما رأينا الاداء الموظف عليهم مخالفا للقوانين الشرعية والعقلية ، وأدلة ذلك واضحة جلية ، لانه موظف على الرقاب ، لا على نتائج الاسباب ، وبسبب ذلك يقلّ الامل ، وينقص العمل . على أن سكان جربة من رعيّتنا ، الباذلين نفوسهم في طاعتنا . فالواجب ان يكون حكم جميع سكّانها واحد (كذا) ، والاولاد يرغبون في تساويهم عند الوالد ، ونسبة الرعيّة لراعيها كنسبة الاولاد ، يسدّ عنهم طرق الخلل وطوارق الفساد ، حتى يبلغ من نجاحهم المراد . فلذلك أسقطنا جميع المال الموظف على أهل جربة ، ورأيناه الى الله قرّبه ، إسقاطا تاما ، مُطلقا عاما . ولم نبقى عليها شيئا من الاداء سوى العشر والصاع والمحصولات ، لان ذلك يتبع المكاسب لا الذوات ، فما ضرّ من أنعم الله عليه ، أن يدفع نزرّا ممّا لديه ، يحمي به النفس والمال والبلاد ، تربة الآباء ومنبت الاولاد ، إذ مصرفه المهمّات والاجناد ، وغير ذلك من وجوه السداد ، وإذا رجع العاقل لحدسه ، يجد ما أخرجه من يده إنما هو لنفسه ، سنة الله التي قد خلّت في عبادته ، على حسب حكمته ومراده . ونحن



بمقتضى ما يجب علينا من مراعاة صلاحكم ، والسعي في نجاحكم ، نقدّم مصلحتكم على وفور المال ، ونرجو خلفه بنمو الأعمال ، وعلى الله بلوغ الآمال . أسأله سبحانه أن يقوّي طاعتكم المقرّنة بإيمانكم ، ويزيد من فضله في عمّرانكم . وهذا الخطاب حُرّراه للعلماء والمقدّمين والمشايخ والاعيان وكافة سكّان جربة ، فافتحوا لفهمه الابواب ، وتصفّحوا هذا الكتاب ، ولتكن قراءته في جامع الصلاة وغيره من المشاهد ، والعشر زكاة ، وهي أخت الصلاة . وهذا الامر يبقى لكم حجة ، في هذه المحجّة . والله يحكم لا معقب لحكمه ، والسلام .

وكتب في العاشر من شوال سنة 1358 .



وفي ربيع الاول من سنة 1259 ، تسع وخمسين ومائتين وألف (أفريل 1843 م) ، توفي شيخ الاسلام العلامة شيخنا ابو عبد الله محمد ابن [شيخ الاسلام ابي عبد الله] محمد ، ابن [شيخ الاسلام ابي عبد الله] (1) محمد بيرم . ولم يحضر الباي جنازته لعلر منعه يومئذ ، وبعث سائر أهل بيته ، وكبير الوزراء مصطفى صاحب الطابع ، وأعيان رجال الدولة . وصلى عليه ابنه الشيخ المفتي ابو عبد الله محمد بيرم ، وهو الذي تقدم عرضه لرئاسة الفتوى والمجلس الشرعي ، وتقدم لخطبة القضاء بالمذهب الحنفي الشيخ الفقيه الإمام أبو الثناء محمود ابن الامام أبي محمد حنّودة باكير .



ولا تكاثر الكلام في شأن التنظيمات الخيرية ، وعلم الناس أصولها ورأوا فروعها ، لا سيما بعد أن قدّمنا عليه من إسلامبول ، وقرّنا له ما شاهدناه ، وبلّغنا له رسالة عالم المشرق أبي العباس أحمد عارف باي ، وأقيته بنسخ من تعريبها ، أخذ جميعها ، وكان ذا فكر يحقق الامور قبل حصولها ، ويُنذِر بها قبل وصولها ، تحقق أن صبح الحرية المحبّب لكل موجود ، بدأ انتشاره من المشرق في آفاق الوجود ، فأقبل على المحمدية ، وتذكّرها (2) عامّة بلادنا بالشؤم ، ومستندهم ، والله اعلم ، ان ابا القاسم بن عبيد الله

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) هنا يبتلى استطراد طويل ينتهي في السطر 21 من ص 72 عند الرجوع الى الحديث عن التنظيمات الخيرية .

المهدي الفاطمي لما وجهه أبوه لغزو مصر والاسكندرية ، وفتَحَ الفتوحات ورجع ، ابتداءً في بناء مدينة المسيلة (1) ، بعد خرابها سنة 313 ، ثلاث عشرة وثلاثمائة ، وسماها المحمدية . وعند تمامها أخذت دولة العبيديين في التراجع ، وثار عليهم الداعي (2) أبو يزيد صاحب الحمار . وانتفض عامل فاس والمغرب وبايع لنبى أمية بالاندلس ، وفيها مات أبو باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري ، من دولة صنهاجة ، بلسعة عقرب ، وحمل منها ميتاً في تابوته الى القيروان . وفيها انهزم السلطان أبو اسحاق ابراهيم ابن أبي زكرياء [من الحفصيين] ، وفرَّ عسكره عنه ، فنجى من المحمدية برأس طِمِرَّةٍ وليجام . واستولى عليها الخراب بعد ذلك الى دولة الداي اسطامراد ، فملك أرضها واتخذها للحراثة و [ذباب] (3) النحل ، وبنى بها داراً وعمَّرها بمن على ملكه من الآسرى . ثم اشتراها من ورثته الوزير أبو المحاسن يوسف صاحب الطابع ، فبنى بها قصره الباقي بعضه لوقتنا هذا ، وغرس بها بستاناً وزيتوناً ، وكانت من مواضع نزهته ، وخرجت عن ملكه بما تقدم من خبر قتله . ثم أخذها الوزير شاكير صاحب الطابع وزاد في أبنيتها وغرس بها الزيتون ، واتخذها دار سكنى . وخرجت عن ملكه بموته قتيلاً ، وجيء بأهله منها ، فأعطاهم الباى لوزيره أبي النخبة مصطفى خزنة دار ، فزاد بها بعض شيء ، وأمل أن يُجرى بها الماء ، وانقذه الله منها . ثم ان الباى استرجعها منه ، وعرضه عنها برَّبْع . ولما استولى عليها اتخذها رباطاً للعسكر ، وبنى فيها الابنية الضخمة من البيوت المتسعة والغرف الانيقة ، وأنفق عليها كثير دخل المملكة . ووجه إليها عنايته حتى كساد ان لا يتفرغ لغيرها ، وحمل رجال دولته على بناء دُور بها ، وأذن للناس في ذلك وأعانهم عليه حتى عيبَ بالإفراط في ذلك ، وغلَطُ الكامل على قدر كماله . ومنعه الاستعجال في ذلك عن إحكام البناء ، والعجول مخطئ وإن ملك . وهي على شؤمها أضيق من حافر ، وأوحش من مفازة ، تُسقى بئر واحدة من آبار الجاهلية (4) ، إلا أنه حلوا المذاق .

(1) وردت في ع و ق مشكولة بكسر الميم والسين ، وانظر ص 224 ج 1 ، والملاحظ ان المحمدية التي بقرب تونس ، كانت تسمى قديماً « طنبجة » ، ومنها منصور الطنبلى الشائر على بنى الاغلب سنة 209 هـ ، أما المسيلة التي يسميها بنو عبيد المحمدية فهي قرب هواره من التراب الجزائرى الآن ، وقد اختلط اسم المحديتين على المؤلف ، فليسب ما لهذه لتلك .

(2) فى خ شطب على الالف من الداعي .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) كذا فى خ ، وفى ع و ق : « آبار الاقدمين » .

ولما أتمَّ بناء مساكن العسكر بها في سنة 1259 ، تسع وخمسين (44/1843 م.) ، أحيا فيها ليلةً بالقرآن العظيم ، والصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحزاب الامام الشاذلي وأوراده . ومن الغد نصب الوطى أمامها ، وجمع اهل المجلس الشرعي ورجال الدولة : ولما جاء العسكر خرج بنفسه لتلقيه ، واقفا في حرِّ الشمس . ولما تمَّ دخوله وتفرقوا لبيوتهم ، هنأه اهل المجلس الشرعي ورجعوا .

وأرَّخها العالم الاديب ابو عبد الله محمد الطيب ، ابن شيخنا أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، وكتب التاريخ بأعلى بابها المعروف بباب باردو ، لانه أقرب للقادم من باردو ، ونصّه :

انظر لها تأسر طرف النيل	وتسحر اللب بصنع جميل (1)
بارعة الحسن ولكنها	رائعة قلب الحسود العليل
تاھت على الآفاق في منعة	وعز شأن وفخار أثيل
خطيرة جساد باظهارها	طالع سعد وقران جليل
على التقى أسس بنيانها	وفي سبيل الله نعم السبيل
أقر عين الدين لبداعها	وأستسم الكفر لهم طويل
دار حمة الدين آساده	أنصاره في كل يوم ثقیل
قد تاجروا الله بارواحهم	تجارة جاءت بربح جزيل
انشأها أحمد باشا الرضى	خير مشير جاء في خير جيل
الملك السامي عماد العلى	الشامخ العز الكريم المنيل
ذو المكرمات الباهرات التي	ما ان لها في سمعنا من مثيل
وهذه القشلة من خير ما	انتجته رأي حجاجه الاصيل
له بها الصيت البعيد المدى	وللورى ظل أمان ظليل
مزيّة دلت على فضله	إن كان للصبح يقام الدليل
بشرى فقد وافق تاريخها	نصر وإسعاد وفتح جليل

وكان طالع هذا التاريخ جفر ، لان هذا الباي نبيل بلا خلاف ، وقد أسرت طرّفه ، وقيدت في أرجائها طرّفه ، ومنعت صرّفه ، وسحرت لبّه وظرفه ، حتى اتخذها

(1) في ع و ق اقتصر الناصح على ذكر البيت الاول من هذه القطعة ، ومى في غ كاملة .

دار مقرّه وبنى بها جامعا ومدرسة [وحمّاما] وبرجا بالمداغ وسوقا ومساكن لخاصته ورجال دولته . وجعل بها قاضيا ليكون ذريعة لإقامة الجمعة بها على مذهبه الخنفي ، كما فعل جده الأعلى حسين بن علي بباردو . ورثب بجامعها مدرّسا لرواية صحيح البخاري ، ويختّمه في الثالث عشر من رمضان . ويحتفل في إحياء تلك الليلة بقراءة البرّدة وإنشاد القصائد النبوية ، ويحضر لذلك بعض علماء المجلس الشرعي كالشيخ أبي عبد الله محمد يرم والشيخ أبي عبد الله محمد بن سلامة . وكثر النكير [عليه] بكونه تخلّى بها للبطالة ، وأهمّل الجلوس للحكم على عادة أسلافه . ولا كلمه في ذلك ثقته ونصيحه ووزيره ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، قال له : « أي شيء أهمّل والقضاة والمفتّون يحكمون في سائر النوازل ، والدائي وكاهية دار الباشا وآغة القصبة يحكمون في الجنائيات الحفيفة بما دون القتل ؟ » . وكان للدائي يومئذ أن يسجن بالكركّاكة ويضرب ما لا يزيد على الثلاثمائة ، ومشايخ الحاضرة هم حرّاسها بالليل لإيقاف الجنائيات ، فلم يبق الا التعيين المطلوبين ، ولا يكون ذلك إلا اذا عجز العامل ، ومع ذلك فقد أقمتُ خير الدين كاهية يحكم في غير المعاملات بسقيفة باب باردو ، ويعيّن لحضور المطلوبين ، ويفعل ما يفعله الباي ، غير التعزير بالقتل ، وإن الحدود غير معطلة ، بدليل ان رجلاً حكم عليه المجلس الشرعي بالقتل قصاصاً [في نفس محرّمة قتلها عمدا عدواناً] ، فكتبوا الحكم ويعثوه ، وبعثوا معه الرجل ، وفي الحين اقتصّ منه أمام باب المحمدية » ، الى غير ذلك من الأدلة القاطعة على عدم إهمال الامور ، ويظهر لبعض الناس انها أدلة خطابية يسلمونها تسليماً جديلاً يُعيّن عليه طبع الملك المطلق . والحق الذي يفهمه من [منازجة و] مكارسة في سياساته أن الرجل ثابت الفكر ، بعيد الغور ، ثاقب الفكرة ، شديد الحزم ، لما (1) رأى بعين بصيرته ان الحكم في الناس بمجرد اجتهاد الملك وحده ، من غير أصول عقلية او شرعية يعتمد عليها في ذلك ، قد نافره طبع الزمان ، وانفتحت لسماع التنظيمات الآذان ، وعلم عربان المملكة حال عربان الجزائر مع عمّالهم ، بأنهم لا يتصرفون فيهم الا بقانون معقول معلوم لا يمازحه غرض ، مع حرص الدولة العثمانية على إجراء التنظيمات ، وصعب عليه قطع عادة آله دفعة ، أراد أن يمرّن نفسه وأهل المملكة على ما تحقق وقومته لا محالة ، وإن انتصابه

(1) هنا ينتهي الاستطراد ويرجع الحديث عن التنظيمات الخيرية .

كل يوم لسماع المتظلمين ربّما يؤدي الى قلّة كما وقع ممن بعده ، تقتضي سرعة ما قاله الصدر الاعظم رشيد باشا : « لا يمكن ان السلطان الاعظم مقيّد التصرف لا يأمر بقتل النفس المحرّمة إلا بعد إمعان النظر في مجالس ، وباشا تونس مطلق التصرف » ، تحمّل نسبة إهمال الامور إليه ، ورآها أخف على نفسه من وقوع التنظيمات دفعة ، وان لم يصرّح بذلك ، وانما فهمنا ذلك منه بالتلويح القائم مقام التصريح في محادثاته ، ومحاوراته في خلواته . وربما انتصب للحكم في المحمدية احيانا على كره يظهر من حاله ، حتى انه يأمر ، بعد اجتماع المتظلمين ، ببناء العافية ، وهي علامة الانصراف (1) .

أثناء بها رجل من أوباش الجهلة شاكيا في نازلة [تتعلق بالمعاملات] فقال له : « هلاً رفعت أمرك الى الشرع ؟ » ، فقال له : « يغلبني خصمي بحكم الشرع » ، فقال له : « إنما غلبك دينك لا خصمك » ، فقال له الجاهل المسكين ، محرّكا لغضبه : « يا سيدي ان خصمي لما سمع اني قادم إليك قال : لا نسأل عنه ، أنا بيدي دبّوس الشرع » ، فقلت له : « عندي دبّوس أقوى منه ، وهو سيادتك ، نصرك الله » ، فاصفر لونه واقشعر بدنه واشتد غضبه من قبح المقالة ، وكنت بين يديه لقراءة ما يرد [من المكاتيب] فقال لي : « أيلزمه شيء بالحكم الشرعي ؟ » ، فقلت له : « يلزمه لو كان يعلم ما يقول » ، فانتهره ومكّته بيد غاصب الى الحكم الشرعي ، وقال في ديوانه : « لا أقبح من هذا الجهل ، يرغب عن حكم ملته المعلوم في كتب الشريعة الى ما يظهر لي ، مع أنني بدبّوس الشرع - كما قال - ارجع عما ظهر لي ان خالف الشرع لا حول ولا قوة الا بالله » ، وقام من فوره قبل سماع بقية المتظلمين ، خائفا من تلك المقالة [الشنعاء] ، يردّها ويستعيد بالله منها ويقول : « اللهم اكسر كل دبّوس يقوى على الشرع ، وما نشأ هذا الجهل الا من انتصابنا للحكم وسماع الدعاوي ، ويرحم الله تعالى أسلافنا ، فانهم شغلوا أفكارهم وعمّروا أوقاتهم بسماع النوازل بين المتداعيين عن النظر في عموم المصالح ، والنصارى على حكمة ، حيث إن ملوكهم لا يتصلدون للفصل بين المتنازعين » ، فقلت له : « وكذلك سائر ملوك الاسلام ، عدا قطرنا ، وانما نشأت هذه العادة آخر دولة بني مراد ، واقتضى أثرهم جدك رحمه الله [لسبب خاص اقتضى ذلك] » ، فسكت ، ثم قال :

(X) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من ن ، مثبت في ع و ق .

« لا بدّ لقلب العادة من زمن وتدريب ، كانقطاعي في المحمدية ، مع أني اسمع ما يقال في . والامر لله وحده » (1) .

✽

وفي سنة 1259 (1843/44 م.) وقع جدّ ب بتونس وارتفعت اسعار الحبوب ، مع أنه أعان الفقراء بما لم يتقدّم نظيره . وأطراه بعض المداحين على ذلك (2) ، فقال له : « تملحنني على أني غير سارق ولا خائن ؟ » ، لان الاعشار التي بالرابطة زكاة الحبوب ، وهي من قواعد الاسلام الخمس ، وأول مصارفها ، بنصّ القرآن ، الفقراء والمساكين ، وهو مقدم على العسكر وغيره من المصالح . ومع ذلك ضجّت العامة من كثرة تسريح اخراج الحبوب من المملكة ، لاجل دخول ما على ذلك من السراح ، فلزمه ، والحالة هذه ضرورة ، تسكين السواد الاعظم ، فكتب الى مراسي العمالة بمنع اخراج القمح والشعير لمن بيده أمر في تسريجه ، إلا اذا شرع في الوشق منه ، أو أتاها شقف لذلك . وأعلم بذلك سائر القناصل ، وتحققوا السبب ، فأناه قنصل سردانية شاكيا من هذا المنع ، محتجاً بما في الشروط من أنه اذا أريد منع قبول شيء من السلع او لإخراج شيء ، يقع اعلام القنصل قبل المنع بشهرين ، لتكون التجار على بصيرة ، فأجابه الباي بأن حبوب القوت ليست من السلع الحاجة التي لا يتوقف خروجها على إذن خاص ، وانما هي من الضروريات التي يتوقف إخراجها على أمر مخصوص . ومدار الامر : هل الاقوات من السلع أم لا ؟ وهو يرى أنها ليست من السلع ، نظرا للعرف (3) . فقال له القنصل : « ان التجار اشتروا حبوبا هي الآن عندهم ، ينتظرون شقوفا لحملها » ، فقال له : « يمكن لهم بيعها الآن في المملكة بأكثر مما دفعوه ويحصل لهم الربح المقصود ، وان اشتروها لغيرهم باذن ، نساھل معكم في إخراج القدر الموجود فقط » . وكادت النازلة ان تنفصل ، لولا شدة وتعسف من القنصل بلا سبب . وتكررت المكاتبة بينه وبين الباي .

ثم ان القنصل سافر على حين غفلة ، من غير ان يُعلم الباي بعزمه على السفر . ولما سافر القنصل كثرت الازاجيف بأن دولة الصارو تجهّز في اسطولها لغزو تونس ،

(1) ما بين القوسين في الفقرة ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) كذا في ع و ق ، وفي خ : « وقال له بعض المتزلفين يملحه على ذلك » .

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « نظرا لعرف النخاطب » .

فجمع الباي رجال دولته وقال لهم : « ان القنصل سافر ولم يعلمنا بسفره ، وهذه طليعة حرب ، ويلزمنا الاستعداد وأخذ الاهبة لذلك » ، فقالوا له : « الحزم يقتضي ذلك في كل وقت » ، وكان منع إخراج الحبوب في شعبان السنة 1259 (اوت - سبتمبر 1843 م) .

ثم أخذ الباي في الاستعداد ، وحصّن حلق الوادي بمتاريس وقنية . ثم كتب اوامره لقدم سائر العساكر النظامية والصبايحية من الاوجاق وجمعهم بالمحمدية ، وذلك في أوائل سنة ستين (أوائل سنة 1844 م) . ونصب وطقه ، واحدقت به العساكر على اختلاف أنواعهم ، ومكثوا أشهراً يتوقعون قدوم شقوف الصاردو . وضاق حال الدولة من مصاريقهم ، وحصل للعسكر ملل وفشل (1) من أهبة السفر في حضر ، والمقام بدار واحدة لا مرعى فيها ولا ماء الا من آبار قليلة قُرْبَها . حتى قال له وزير الحرب مصطفى باش آغة : « ان عسكرنا وقع به الملل والفشل ، ولا زال يتزايد ، ونخشى ان لا ننتفع به وقت الحاجة ، ويكون الصاردو هزمتنا وهو في بلاده » . وقال له شيخ الدولة الوزير ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « كأنني أراك بجمع العسكر في هذا المحل<sup>2</sup> أسلمت حلق الوادي والبلاد ، وطلبت منعة نفسك . فالرأي ان تجمعه خارج حلق الوادي وما قاربه من الشطوط ، ليكون رِدْءاً للحاضرة » .

وصدّه عن سماع ذلك الافراط في حبّ المحمدية .

وفي المدة نَقِدَ ما بالرابطة من القمح والشعير ، فلمر أبا عبد الله محمد بن عيَّاد بشراء ذلك من خارج الإيالة ، فقال له : « ان قمح الدولة في ذمم الناس ، ونحن الآن في شدة ، فاكتب لي إذنا بخلاصه من الناس ، دراهم على هذا السعر الذي تشتري به » ، فكتب له بذلك .

وازدادت الشدة والضيق على اهل المملكة [عموما] وعلى الدولة [خصوصا] (2) .

ولم يزل ابن عيَّاد يشتري في الحبوب للعسكر الرابض في محل<sup>3</sup> واحد .

وفي هذه الواقعة قدم رسول من الدولة العلية العثمانية اسمه عمر جَمَّال ، فأكرم تلقّيه وأنزله في الكرم ببستان وزير الحرب أبي النخبة مصطفى آغة . وبلغ رسالته ،

(1) فشل : خمد نشاطه ، فترت همته وحماسه .

(2) الزيادة عن ع و ق .

ومحصلها : « ان النازلة لا تقتضي حربا ، لانها آخر الامور ، وسفر القنصل لا ينشأ عنه شيء ، ومهما أمكن فصل النوازل بغير إراقة الدماء لا يُعدّل عنه . وحسبي تبليغ الرسالة » ، فقال له الباي : « أنا لا أبتدىء بحرب ولا أخالف الشروط ، ومن تعدّى عليّ وحاربنّي يلزمني ضرورة أن أدفع عن نفسي بما أستطيع . وحيث ظهر للدولة العلية فصلٌ هذه النازلة بوجه سياسي ، فلا أعدل عن رأيها » . وكتب له تقريرا في صورة النازلة باللغة العربية مستوفى البيان .

وسافر الرسول ، وبعد سفره توسط قنصل الدولة الانكليزية ، وهو سار طوماس ريد(1)، وقال للباي : « الحق لك ، لان رفع الضرر عن النفس واجب ، ويلزمك أن تسوس عامتك بهذا المنع خشية وقوع هرج وفساد ، وللقنصل حق في الوقوف مع ظاهر الشروط ، لانه رجل مأمور ، إلا أن السياسة فاقته حيث سافر كالهارب ، لانه رسول دولته إليك ، فحقه ان لا يسافر الا بعد أن يعلمك . وثبوت الحق لك لا يمنع من جبر ضرر مالي حصل لبعض التجار من هذا الاختلاف في الفهم ، والانصاف يقتضي ذلك » ، فطلب الباي مصروفه على جمع العساكر وما لزمها وغير ذلك ، فقال له : « تحصين بلادك واجب عليك ، ولك ان تجمع عساكرك متى شئت ، ودولة الصاردو لم تحوجك لذلك ، وسفر قنصلها لا يدل على إيدان بحرب ، والحروب ليست بهيئة » ، فتوقف ولزمته الحجة .

وانفصلت النازلة ، وأمر الباي بدفع ما حصل للتجار من الخسارة . وأتى قنصل من دولة الصاردو عوض الذي سافر . وكاتب الدولة العلية بانفصال النازلة على وجه مرضي . وسرح العساكر من اعتقالهم بالمحمدية ، بعد ان صرف عليهم أموالاً لها بال ، أوهنت المملكة ، وأجحفت بها إجحافا بقي اثره . ولا يعدّم الصرعة ، صاحب السرعة .



وفي هذه السنة 1260 (1844 م) ، تمّ بناء دار الملتف بآلاتها التي أنشأها الباي حذو قنطرة محمد باي [ المرادي ] بطبرقة . وكان بناؤها على يد أبي عبد الله محمد ابن عياد . وهي من المصانع الهائلة والمباني الرفيعة ، يحرك الوادي آلياتها على أسلوب



معجب ، باعتبار [ حالة ] (1) هذه المملكة ، اذ لم يتقدم مثلها ، مع ما فيها من مصلحة البلاد . وأرنحها شيخ الإسلام ابو عبد الله محمد بيرم بما نصته :

أرَحُّهَا فَقَدْ أَبْلَى السَّيَّابِكَ وَخَدُّهَا وَأَتَعَبَهَا غَوْرُ الْفَلَاةِ وَلَجَدُّهَا  
وَأَلْقَى عَصَا التَّسْيَارِ إِنْ كُنْتَ طَالِبَا عَجَائِبَ آثَارِ الْمُلُوكِ تَعَدُّهَا  
فَمَا بَعْدَ هَذَا الصَّنْعِ بُغْيَةٌ نَاشِدُ وَلَا غَايَةَ بِالْعَقْلِ يَبْلُغُ حَدُّهَا  
مِثْلَ قَضَتْ إِنْ الْمَشِيدَ لِرُكْنِهَا لَهُ هِمَّةٌ قَدْ زَاحَمَ الْبِدْرَ سَعْدُهَا  
بِهَا جَرَّرْتَ ذَيْلَ الْمَفَاخِرِ تَوْنَسُ بِمَا لَمْ تَنْلِ صَيِّنَ الْبِلَادِ وَهِنْدُهَا  
يَقُومُ لَهَا مِنْهَا لَدَى الْفَخْرِ شَاهِدٌ وَيُكْسَى بِهَا مِنْ فَائِقِ النَّسِجِ جُنْدُهَا  
يِيَّاشِرُ مَنْ فِيهَا الصَّنَاعَةَ وَادِعَا وَيُلْفِي بِهَا الرِّاحَاتِ قَدْ طَابَ وَرَدُّهَا  
إِذَا تَعَبَ الْإِفْكَارِ أَنْتَجَ خَصْلَةٌ تَبَاعَدَ عَنْ سَمْتِ الْجَوَارِحِ كَدُّهَا  
كَأَنَّ الَّذِي يَلْقَى بِهَا الْأَمْرَ آصَفٌ (2) فَقَبَّلَ ارْتِدَادَ الطَّرْفِ يُنْسَجُ بُرْدُهَا  
وَلَا غَرَوَ إِنْ جَاءَتْ كَمَا أَنْتَ شَاهِدُ وَقَامَتْ عَلَى تِلْكَ الْعَجَائِبِ عُمْدُهَا  
فَإِنَّ الْمَقَامَ الْإِحْمَدِيَّ اعْتَنَى بِهَا وَعَنْ رَأْيِهِ الْمَحْمُودِ نُظِّمَ عِقْدُهَا  
وَلَا تَحْسَبِ الْوَادِي لَهُ الْفَضْلَ إِذْ جَرَى عَلَيْهَا ، فَاقْبَالَ الْإِمِيرَ بِمِدُّهَا  
هُوَ السَّيِّدُ الْبَاشَا الْمَشِيرَ الَّذِي غَدَا لَهُ سَطْوَةٌ فِي الْغَيْلِ تَخْشَاهُ أَسْدُهَا  
أَتَى أَمْرَهُ الْعَالِي بِرَسْمِ اسْمِهِ عَلَى دَعَائِمِ هَذَا الْبَابِ كَهْفًا يَشْدُهَا  
فَجِثَتْ بِهِ مَعَ وَصْفِ حَالِ مَوْزِنَا : مَصَانِعُ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ نِدُّهَا (3)

وتوجه لها الباي ومعه رجال دولته ، ورأى تلك المصانع وتحريكها ، وبات بقصر الوزير أبي النخبة مصطفى خزنه دار بالجديدة . ثم رجع لها من الغد ، إعجابا بشأنها . وصُنِعَتْ بِهَا أَلْوَانُ (4) مِنَ الْمَلَفِ مُسْتَحْسَنَةٌ فَائِقَةٌ [ مثل ملف الافرنج ] (5) . ثم فتر عزمه عن العناية بها ، لانه قدّر أن يكون دخلها أكثر مما حصل .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) آصف هو كاتب النبي سليمان المشار اليه في الآية 40 من سورة النمل (الكشاف للزمخشري) .

(3) وردت هذه القطعة الشعرية في خ ، وسقطت كلها في ع و ق .

(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « انواع » .

(5) الزيادة عن ع و ق .

ولو قدّر أن أعظم ربحه هو لبس عساكره وأهل بلاده منه ، بحيث تبقى اثمان الملف الذي يشتري من غيرها في المملكة ، مع انتفاع المجاورين لها والخدمّة بها ، المقتضي لزيادة عمران المملكة ونفاق أصوافها فيها وغير ذلك ، ما فترّ عزّمه . وإعطاؤها لتاجر يخدم الملف بها ، ولو مجّانا بلا كراء ، انفع للمملكة من بقائها معطلة ، وقد بُنيست بمال ذريع . لكن طباع ملوك [ هذا ] (1) المغرب تميل الى الفائدة اللريعة المعجلة الحاصلة من غير التفات الى المستقبل ، بخلاف أمم الافرنج (2) فانهم يصبرّون الاموال على فائدة يمكن حصولها بعد سنين ، ويعتبرون في أفعالهم انتفاع تلك الجهة ، واستغناءهم عن غيرهم ، وهذا من اعظم اسباب العمران والثروة . ولله في خلقه أسرار .



وفي هذه السنة 1260 ثار رجل بجبل خمير ، ادّعى أنه من أولاد عثمان باي ، والتفّ عليه جمعهم ، وهم من الدين لا يكادون يفقهون حديثا . وأصله مقراني أتى لتعلّم القرآن بزاوية الشيخ ابن نفيسة من ربض باب السويقة . ثم توجه الى الجبل ساعيا الى حتّفه بظلفه . وأذاع هذه النسبة فتلقّتها الحُمْرُ المستنفرة بالقبول . والمسافر بمحلة باجة يومئذ ابو عبد الله محمد باي ، فأمدّه بمحلة زاوة ، وأمر المزارقية [ من العروش ] (3) بالالتفاف عليه ، وأمدّه أيضا بالوزير الثقة الناصح أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ليستعين برأيه . والتفّ عرش عمدون على المحلة . ووجه باي المحلة كاهية الصبايحية صالح بن بلقاسم في عقد من الخيل الى خمير ، ووصلهم على حين غفلة ، واستعمل الحيلة حتى تمكن على هذا الدّعيّ وطار به الى المحلة ، فبعث به باي المحلة مع الكاهية صالح ، بعد أن أنكس في الدين اعصوبوها عليه .

ولا وصل الى باردو ، أحضره الباي بين يديه في ديوان المحكمة وقال له : « ما لك ولهذا الكذب الذي حيّرت به تلك الجهة ، الموجب لاراقة الدماء والفساد في الارض ؟ » فأطرق ساكتا ، وكاد الباي أن يعفو عنه من القتل ، لولا بعض من رجال الدولة قالوا

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذا في غ ، وفي ع و ق : « بخلاف غيرهم من الجهات » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

له : « ان العفو عن مثل هذا يؤدي الى الجراءة على أمثال هذه الدعاوى » ، فأمر بقتله ، وقطع رأسه أمام باب باردو . وكتب الى باي المحلة يبلغ الى عمدون شكره لخدمته (1) ورضاه عنهم . ورجع باي المحلة ، بعد ان مهد تلك الجهة وقوى أمانها .

✱

وفي غرة محرم سنة 1261 ، احدى وستين (الجمعة 10 جانفي 1845 م.) ، قدّم الفقيه الشيخ ابا عبد الله محمد بن سلامة لِحُطّة الفتوى ، وقدم الفقيه الخير ابا عبد الله محمد البنّا لحطّة القضاء .

✱

وفي صفر من السنة 1261 (فيفري 1845 م.) ، تشكى الافرنج ، على لسان اكبر القسيسين بتونس ، من ضيق موضع اجتماعهم لعبادتهم ، فاقتضت سياسة الباي إسعافهم ، تألفا للوافدين من التجار . وأمرني بكتّيب أمر لهم نصته : « أصدرنا هذا المنشور والخطاب المسطور ، ليعلم الواقف عليه من رهبان الملة المسيحية وأعيان أهلها القاطنين بدار مُلكنا تونس ، حاطها الله بأمنه ، ان الكنيسة داخل باب البحر التي كانت اسبیتال من أملاك الدولة التونسية ، بلغنا انها ضيقة القضاء لا تقي بضروريات من فيها ، فزدناها تسعة عشر ذراعا على مسافة عرضها ، وهي عشرون ذراعا ، من أرض الدولة المجاورة للكنيسة التي كان يسكنها قنصل الصبنيول . وأمرنا في ذلك بيد الوكيل ، وزدنا ، لكمال راحة سكان بلدنا من اهل أوروبا وإعانتهم ، بأن أسقطنا عنهم الالف ريال التي كنّا نأخذها في كل عام كراء ما ذُكر ، إسقاطا تامّا ، وسرّحناهم للتصرف في هذه الكنيسة المذكورة بما أضيف لها ، من غير كراء ، بشرط ان لا يحدثوا فيها شيئا ظاهرا يتنافى ديانة اهل البلاد او عاداتهم الجارية . صدر ذلك منا على يد صاحب أسرارنا الموقر المحترم الوجيه الثقة المقرّب ابننا الكولير جوزاين راف (2) الامير آلاي . وعلى الواقف على أمرنا هذا ان يعمل بمقتضاه ، ولا يخالفه ولا يتعدّاه ، والامر كله لله ، والسلام . وكتب في التاسع عشر من صفر سنة 1261 (الخميس 27 فيفري 1845 م.) . وكتب بذلك الى قنصل الفرنسي بتونس . ثم زاد في توسيعها بعد ذلك .

(1) كذا في غ ، وفي ع و ق : « لخدمتهم » .

(2) كذا في غ و ق ، وفي ع : « جوزاب رافو » . Giuseppe Raffo .

وفي ربيع الثاني من السنة 1261 (أفريل - ماي 1845 م.) ، صدرت احكام من الباي في ترائيب للدخان والجلد . وذلك انه لما استكثر من العسكر [وضبأطهم] ، وصاروا عددا لا يفي بقوامهم دخل المملكة الاصيلي ، على صغرهما المعروف في الوضع الجغرافي ، وقلة اسباب ثروتها ، التي هي الزراعة والصناعة والتجارة ، الذي هو نتيجة الحكم المطلق ، مع نطاق كرمه المتسع ، لا سيما مع كبرائهم (1) . ومدبر الدولة اذ ذلك محمد بن عياد ، وهو من العُمال القاصر نظرهم على ما يحصل من المال ، من غير نظر لحال ولا مال . وكان يزيد في الالتزامات ، ويعتبر مع دخولها الاصيلي ما تفعله نوابه من [توليد] المظالم . وقاسى الناس (2) من تعسفهم وجورهم ما لا تطيقه غير اهل المملكة التونسية . وبلغ الحال إلى أن متولي الجلد الذي منط لزمته ان لا يبيع الجلد بالمملكة وغيرها سواء ولا يدبغه غيره ، صارت نوابه يدورون في القرى ونواجع العربان (3) ، ومعهم قطع من الجلد يرمونها في المحل وتشهد أتباعه بوجودها في المحل ، ويدعون ان ذلك نائرة (4) لإخفائهم للجلد . ومثلهم نواب الدخان ، يرمون أوراقا من الدخان أو دقيقه ، ويدعون انها نائرة على اشتراؤه الدخان من غير ملتزمه ، فيأخذون من ذلك المسكين ما يشترى به فضيحتة وشديد عقابه الذي لا يعلم نوعه ولا قدره . وكذلك سائر الملتزمين كسل على حسب لزمته ومقامه وحظوته (5) .

ولا جرم ان ذلك يزيد في نقصان ثروة المملكة لا محالة ، وقل بسببه دخل الالتزامات . فاذا اراد الملتزم أن يسلم عند تمام أجله ، لا يقبل الباي تسليمه إلا إذا زاد عليه غيره ، اعتبارا لما حصله من امتداد يده .

ثم ألزم العُمال قبول ما يلتزم في أعمالهم من جلد وغيره بالسعر السابق ، فصار العامل يوزع القدر الذي يدعي نقصه [على أهل عمله بحسب اجتهاده] ، وهو مصدق في ذلك من غير تعقب . والباي يغضبي عن ذلك ، مستندا الى اضطرابه ليمّا يلزم

(1) في ع و ق : « كبراء العسكر » .

(2) كذا في غ ، وفي ع و ق : « وقاسى المسلمون » .

(3) كذا في غ ، وفي ع و ق : « والقبائل القريبة » .

(4) نائرة : سجة ، بينة .

(5) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

العسكر من المال . ومن يريد الشكاية لا يأمن وثيقة تقوم عليه [من كتاب الملتزم وأتباعه] (1) بأنه مفسد . ولا مَرَّهَمَ لجرحها ، اذ لا سبيل لنقدتها (2) أو طرحها .

ولما بلغ السيل الزبى ووصل الحال الى حدّه ، جعل الباي تربيّا لصاحبِي الجلد والدخان ، وكتب بذلك أوامره [لسائر بلدان المملكة وعربانها] (3) ، وتوعّد مَنْ خالفها . وصاحبُها (4) اذ ذاك ابو عبد الله الحاج حسونة ابن الحاج ، فاشتكى الضرر من هذا الترتيب ، لانه لم يدخل على اعتباره ، وانما دخل على اعتبار ما كان .

ولما تحقق أن قدر الالتزام يؤخذ من ماله (5) ولا بُدّ ، مع ما بينه وبين ابن عياد من المنافسة والغيرة ، لاذ بالفرار ومعه بنوه الصغار من شاطيء رَوّاد الى مالطة ، فأقام الباي شقيقه أبا عبد الله محمد بن سليمان ابن الحاج لمباشرة خطته نيابة عنه ، يتصرّف على العادة السابقة المدخول عليها . هذا وأوامر هذا الترتيب لم تخرج بتمامها .

وبعث الكاتب الماجد الاديب ابا الحسن علي الحدّاد ، ومعه [الكولير] (6) زاكي زيزانة في أثره ، لمحاكمته عند مجلس الحكم بمالطة ، فوصلا لمالطة ورفعوا قصتهما الى الحكم ، وحلف كل واحد منهما على أنه محق في دعواه . ولما تحقّق الحكم (7) بأنه مطلوب من السفر . وأفضى الحال الى قدوم الحاج حسونة طائعا ملقيا بيده ومعه بنوه ، فقبله الباي ولم يعاقبه على هروبه . وتصرف في لزماته (8) على السنن السابق . وآل الامر الى خلاص الالتزام من كسبه ، وباع في ذلك ربّعه وعقّاره وبقي في ذمّته شيء . وانقلبت ثروته الى احتياج ، وعومل بما عامل ، ولا يظلم ربك أحدا .

وعند لَمَعَان الخُلُوب من هذا الترتيب ، خطب شيخ العصر وبركة المصر أبو اسحاق ابراهيم الرياحي خطبته المشهورة على منبر جامع الزيتونة في يوم الجمعة ، ونصّها :

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) كذا في ع و ع ، وفي ق : « لقدحها » .

(3) الزيادة عن ق و ع .

(4) كذا في ع ، وفي ع و ق : « وصاحبها » .

(5) كذا في ع ، وفي ع و ق : « ان قدر الالتزام يبقى فيه مال لا محالة ولا بد » .

(6) الزيادة عن ع و ق .

(7) لعله يريد « الحكم » بفتح الحاء والكاف .

(8) كذا في ق ، وفي ع و ع : « وتصرف في خدمته » .

« الحمد لله الذي هدى من شاء فيسره لليسرى ، وقرن بالعسر الواحد يسرين فقال ان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا ، أحمدته حمداً أُعِدُّه ليوم الفاقة ذخراً ، واشكره شكراً يعقِل العتيدَ ويستزيد نِعماً أخرى ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له رافع الخضراء وخافض الغبرا ، ومالك الدنيا والاخرى ، وأشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي شرح له من غير سؤال صدرا ، ورفع له ذكرا ، وأقسم بحياته وناهيك بذلك فخرا ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين وهلمَّ جرّاً .

أيها الناس تيقنوا من وعد الله بلفائه ، وسلموا له في قدره وقضائه ، فان العقول عن إدراك حكمته محقولة ، والنقول بالعجز عن إدراك سره في حكمه وفعله مشمولة ، لكن من وفق للتسليم ، وتأمل في حكمة الحكيم العليم ، ينكشف له سرّ القضا ، فيقابله بالقبول والرضى ، ويعلم ان للشر مدي ، وأنه لم يُخلَقْ سُدى ، وأن مع العسر يسرا أبداً ، فيتتظر صدق وعد الله في اليسر بعد العسر ، وانسلاخ ظلام الشدة بضياء فجر اليسر ، كما تنفّس الآن صبح الفرج ، وتهلّل في وجوهنا مُحياً الهناء بعد الحرج ، برفع مظالم احقرت قلوب العباد ، وأخلت البلاد ، ونشرت أنواع الشرور والفساد ، فهدى الله تعالى بِماله من لطيف اللطف ، وحلمه على الذنب الموجب للأخذ بالعنف ، مَالِكَ نَوَاصِينَا ، ومتولّي أُمُور دَانِينَا وَقَاصِينَا ، الى الاخذ في هدم بنيانها ، وإرغام أنف شيطانها ، وإقامة الامور على مستقيم ميزانها . والمَرَجُ من الله اجثاث أصولها كلها على يديه ، وسَوِّقُ الاجر الجزيل والثناء الجميل باحثائها إليه ، فان مَنْ أشرقت بدايته ، أشرقت نهايته ، والنواقص بالتدريج تعطى تكميلاً ، تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فلنشكر الله على ما عَجَّلَ ، وهو كفيل بانجاز ما تأجَّلَ .

عن أنس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو جاء العسر فدخل هذا الجحر لجاء اليسر فدخل عليه فأخرجه » . وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « لن يغلب عسرٌ يسرين » ، رواه الحكم عن حسن مرسلاً .

نفّس الله كروبنا وكروبكم ، وشرح بنور محبته صدورنا وصدوركم .  
ان أبلغ الكلام نظاماً ونثراً ، وأنفع ما يُسمَعُ ويُقرأ ، كلام من له الاولى والاخرى ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : « سيجعل الله بعد عسر يسرا » .  
وصار لهذه الخطبة نبأ عظيم في الحاضرة .  
واشتد تغير الباى حيث لم يتم له ما أَرَادَهُ من هذا الترتيب ، وتكدّر عيشه .

وأنكدُ الناسَ عيشا من تكون له نفس الملوكة وحالات المساكين

فانظر الى هذه الايالة كيف وصل حالها الى ان عالمها وصالحها ونحطبيها ينادي على أعواد منبرها بجامعها الاعظم على رؤوس الاشهاد ، بأن ما وقع بها من المظالم أحرق قلوب العباد وأحلى البلاد ، ونشر الشرور والفساد . وهي شهادة منه رضي الله عنه وهو من هو . ثم آلت الحال بعد ذلك الى ان مالك البقر يؤدّي الربع من ثمن كل رأس ، وهو أمر لم يسمع بمثله في الاقاليم ، وربما هوّنه ما كان قبله من الامر الفظيع ، وفي الشر ما يُختار . وبذلك تعرف ما آل اليه حالها .

وبذلك ساءت ظنون صاحبها ، حتى استعجل لما بلغه في رجب السنة 1261 (جويلية - اوت 1845 م). أن مراكب من الدولة العثمانية قادمة لجربة ، فجهز جيشا وأفر من عسكر زواوة وأرسله اليها في البحر . وبيان أن ذلك من الاراجيف ، وندم الباي على استعجاله ، والعجلة والندامة قرّسا رهان .

✽

وفي هذه السنة 1261 (1845 م) ، توجه أبو عبد الله محمد بن عبيد سفيرا عن الباي للدولة الفرنسية وقوبل بقبول حسن ، واشترى لنفسه دارا حسنة بباريس .

✽

وفي شعبان من السنة 1261 (أوت 1845 م) ، ورد للحاضرة قنصل لتجار النمسا ، وهم أقل من القليل [ في هذه الحاضرة ] . ولم يكن بيد هذا القنصل مكتوب من دولته ، وإنما اعتمد مكتوبا من سفير دولته (1) باسلامبول . ولما قابل الباي قال له : « إنك لم

(٢) بهامش ق ، 2 : 237 : « قوله وإنما اعتمد مكتوبا من سفير دولته بالاستانة الخ ... والذي عندنا ان القنصل أتى بمكتوب سلطاني مؤرخ بأوائل ربيع الثاني سنة 1261 ، يتضمن التصديق على ولاية مسيو ليرودي قوسترو قنصلا عاما لدولته بالايالة التونسية بمقتضى تقرير قدمه للباب العالي سفير دولته بالاستانة ، يلتبس به إعطاء مكتوب شاهاني بيد القنصل المذكور ، حيث انه عين من طرف دولته قنصلا عاما ، وأنه ، بمراجعة الاصول المحفوظة بالديوان الهيموني وجد بمعاودة بوزروفجة (بلدية برومانيا) المتقدمة بين الدولتين ، يسوغ للسفراء المقيمين بالاستانة أن يمينوا من جهتهم قناصل ووكلاء ، بالولايات العثمانية التي على ساحل البحر المتوسط ، وأنه بمقتضى ذلك صدر هذا المكتوب ، بل الامر بالتصرف بين ذكر واحترامه هو وأتباعه ، ومتعلقاته ، وأعماله وأياهم من سائر الاداءات والضرائب ، والترخيص له في ملكه الربع والعقار ، والسفر برا وبحرا لأي جهة كانت ، وإباحة حمل السلاح في الجهات المخوفة فقط ، كما له ان يتزيا بزي الاسلام في وقت الحرف ، وأنه اذا توجهت عليه دعوى ، يحال النظر فيها على الدولة العلية . أ هـ . وقد أتى القنصل المذكور بفرمان في التاريخ مخاطب به الشيخ القاضى بتونس في الفرض المذكور . ولذلك امتنع الباي من قبول القنصل على هاته الصورة لمخالفتها لما في محيلته من الاستقلال » .

تأت بمكتوب من دولتك مثل القناصل بهذه الحاضرة ، لذلك نقبلك كواحد من رعايا النمسا ، وإن لم ترض بذلك فلك ان ترجع من حيث أتيت » ، فرجع [ لاسلامبول ] (2) وأتى غيره بمكتوب على السّنن فقّيله ، وذلك سنة ست وستين (1849/50 م) .

ولما استعظم الباي استعجاله في إرسال عسكر زواوة لجزيرة ، وعدم قبوله قنصل النمسا ، ولم يعتبر مكتوب السفير باسلامبول ، ظن ان الدولة العلية تعتبر ذلك ، وربما تبني عليه شيئا ، فوجه في شوال السنة 1261 (اكتوبر 1845 م) هدية للدولة العلية العثمانية مع القبطان أبي عبد الله كمشك محمد والكاتب أبي الحسن علي الدرنأوي . واشتدّ حذر هذا الباي من وزراء الدولة العثمانية ، وساءت ظنونه .

ولما علمت الدولة تخوف الباي من جهة الدولة العلية ، وظنّت ان جمعه لهؤلاء العسكر لاستعداد مدافعة الدولة ، بعث السلطان رسولا مخصصا ، اسمه سليم باي من خواص السلطان المقربين بصرايته ، برسالة مضمونها الامان من جميع ما يتوهمه في الدولة مما يسوقه ، وبالغ في ازالة وحشته ، وأتى معه بفرمان مضمونه تأييد ولاية تونس لهذا الباي ما دام حيا ، ومعه مكتوب من الصدر الاعظم رؤوف باشا في الإعفاء من المال المطلوب في كل سنة ، فعظم الباي مقلّده وأكبرم نزلّه وبالف في إكرامه وأنزله ببستان في مَنُوبة . واستشار رجال دولته في جواب هذا الفرمان ، واستبطن قنصل الانكليز وقنصل الفرنسيين في ذلك ، فأشار بعضهم اي رجال الدولة بأن الجواب يكون بالشكر والدعاء كما كنا نفعل اذا ورد فرمان تجديد الولاية (1) ، وعلى هذا الرأي قنصل الانكليز . وأشار بعضهم ، ومنهم الباي ، بأن هذا ليس كفرمان التجديد (1) في الأسلوب ، حيث أناط الولاية بالحياة لشخص مخصوص من البيت ، وقد وقع إثر طلب أجبنا فيه بما تعلمونه . فالواجب ان نصرّح بعادتنا (2) ، وقد برّح الخفّاء . وعلى هذا الرأي قنصل الفرنسيين ، وان كان الرأي الاول أسدّ ، اعتبارا لجمع عصاة الامة المسلمة .

وأمرني بانشاء الجواب [على رأيه ، مع مراعاة واجب الادب ، والحدّر مما يشعر بالعصيان او الخروج] (3) ، ونصّه :

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(1) في غ : « فرمان الابقاء » .

(2) وهي تسلسل الولاية في آل حسن .

(3) الزيادة عن ع و ق .



« الابواب الشريفة التي تعنو لعرّة قدرها الابواب ، ويصدر من أعتابها المنيفة العدل والصواب ، ابواب الخلافة العثمانية ، والسلطنة الخاقانية ، والمملكة الغراء المجيدية ، مخدومة السيوف والاقلام بالاعمال والنية ، ومبلغة من التجأ اليها كل أمنية ، اذ هي الدولة الغنية ، لا زالت محطّ الرجال وقبلة الوجوه ، بالغة من الله ما تؤمله وترجوه . أما بعد تقديم الاعتراف بما يجب لعلاها ، والاعتصام بمنيع حماها ، فانه ورد علينا الظهير العلي العثماني ، الموشح بالمخط الشريف السلطاني ، فعظمنا مورده الشريف ، بما ينبغي للمقام المنيف ، وفهمنا من إسناد التأيد لنا ما ينافي عادتنا المعروفة ، وسيرتنا السابقة المألوفة ، لان لسلف هذا العبد العاشر من آل بيته خطّة يرثها المتأهل من الخلف ، عن الذي يمضي من السلف ، وهي إمارة هذه الإيالة التونسية ، المحمية بالشوكة العثمانية ، البعيدة عن دار الخلافة العلية ، وبذلك دام عمرانها ، وقوي والحمد لله إيمانها ، واستراح من الفتن سكانها ، واستمرّ هذا العمل في الناس ، على اختلاف الاجناس ، ومضى من أسلافنا مع الدول حرب وسلم ، وللدولة العلية بذلك مزيد علم ، ولنا في خدمة الدولة حقوق تُذكر ، وفضلها علينا بكل لسان يُشكر ، وهذه الإيالة دار قرارنا ، وبذلنا فيها نفائس أعمارنا ، فهي طائفة منقادة ، على ما جرت به العادة ، وعادات السادات ، سادات العادات ، لا ينسخ لإحكامها ، ولا ينقض لإبرامها ، ولا يوهنها طول الزمان ، بل يزيدها الصحة والامان ، وهذا العبد لم يقصّر في خدمة الدولة العلية من جهده ، ولا نقص عمله عن عمل أبيه وجدّه ، فغاية قصدي ومنتهى مرادي ، أن أكون كاتبائي وأجدادي ، ولم يؤخرني العمل ، عن بلوغ هذا الامل ، من إقامة الشعائر وتعمير المساجد ، وتأمين الراكم والساجد ، وحماية الثغور ، ومراعاة مصلحة الجمهور ، بحسب الطاقة البشرية ، وذلك ببركة رضى السلطنة العلية ، وهكذا ان شاء الله الاعقاب ، على طول الاحقاب ما دامت الدولة العلية وهي الدائمة ان شاء الله على مدى الازمان ، الى انقضاء الدوران . وتشرفنا برسالة عليّة سلطانية على لسان خادم السلطنة ، وأعزّ السدنة ، افتخار أقرانه ، المأمون في بيانه ، المختار لنباهة شأنه ، سليم باي . وعرضنا على سمعه ما ينهي إلى السلطنة بتعطّف في التقرير ، وتلطّف في التفسير ، بأن نهاية مرادي ، أن تبقى بيتي على سنن آبائي وأجدادي . واما الخطاب الوارد لنا من الوزارة العظمى عن أمر السلطنة العلية في قبول علونا ، وإجرائنا على عادتنا ، في الإعفاء من المقدار الذي طلب منا في كل سنة لعجزنا عنه ، ولم نقدر على شيء منه ، واستمرار حالنا في هذه الإيالة على ما ألفناه من تقديم الهدية بحسب

الإمكان ، باعتبار الحال والزمان ، لاننا لا نطلب من الدولة إمدادا عند النقصان ، حصل لنا بذلك سرور وشكر ، ودعونا لمولانا السلطان بدوام الذِكر ، ورأينا بلوغ الامنية ، بصفاء النية ، وبصدق السريرة ، تحسن السيرة ، والله يديم لهذه الدولة العلية العثمانية نصرا من عنده ، ويبقى مولانا السلطان ويجعل جند السماء من جنده ، إنه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير .  
حرره الفقير الى ربه تعالى عبده المشير أحمد باشا باي امير الإيالة التونسية في الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة 1261 ، إحدى وستين ومائتين وألف (الاحد 23 نوفمبر 1845م) .  
وأعطى الباي نسخة من هذا المكتوب لقنصل الانقليز ، ومثلها لقنصل الفرنسي ، لسياسة رأها في ذلك .

وسافر سليم باي مسرورا مكرما محترما ، فوجد رسل الهدية باسلامبول [وبلغهم عنه جزيل الثناء] (1) .

وصار الباي الى تقوية الالتحام مع الدولة العلية ، محافظا على ما لها من الحقوق كمحافظته على طلب الفضل في إبقاء عاداته . وصفا له الجوّ ، ورجع وزراء الدولة عن رأيهم الاول ، وأظهر مصداق طاعته في حرب الدولة مع الموسكو ، كما يأتي في محله .

✽

وفي محرم من سنة 1262 ، اثنتين وستين (جانفي 1846 م) ، صدر أمر الباي في سائر مملكته بعث الممالك السودان ، وذلك أن غالب أهل هذه المملكة عمرها الله تعالى ، لا يحسنون ملك لإخوانهم من بني آدم على الوجه الشرعي أو قريب منه . ولهذا الباي في ظاهر حاله شيء من الميل بطبعه الى الحضارة التي أساسها وملاك أمرها الحرية (2) وقدّر أن ذلك ربما يقنع الطالب للتنظيمات الخيرية التي من أصولها الحرية .

ولم يأمر بذلك دفعة ، بل تدرّج الى الوصول إليه . فأمر في رجب من سنة سبع وخمسين (أوت - سبتمبر 1841 م) بمنع بيع الرقيق في السوق كالبهائم ، وأسقط المال (3) الموظف للدولة عن أثمانهم ، ويسمى ملتزمه بقايد البركة [ومقداره ينيف على

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كلا في ع و ق ، وفي خ : « الحضارة التي منها الحرية » .

(3) كلا في خ ، وفي ع و ق : « اسقط المكس » .

الثلاثين الف ريال في السنة [ (1) ] ، وهدم الدكاكين الموضوعة لجلوسهم ، وبقعة القايد وتسمى القفص . وسكت عن بيعهم في غير السوق .

ثم منع خروج الممالك من العمالة للتجارة فيهم ، وكتب بذلك لمراسي المملكة . وفي ذي القعدة من سنة ثمان وخمسين (ديسمبر 1842 م) صدر أمره بأن المولود في المملكة التونسية حر لا يباع ولا يشتري .

وفي هذه السنة 1262 ، حجر ملكهم ، وأمرني في ذلك بالكتابة لاهل المجلس الشرعي بما نصّه بعد افتتاحه :

« اما بعد فانه ثبت عندنا ثبوتا لا ريب فيه أن غالب أهل إيالتنا في هذا العصر لا يحسن ملكية هؤلاء الممالك السودان الذين لا يقدرّون على شيء ، على ما في أصل ملكهم من الكلام بين العلماء ، إذ لم يثبت وجهه . وقد أشرق بقطرهم صبح الإيمان منذ أزمان . وأين من يملك أخاه على المنهج الشرعي الذي أوصى به سيد المرسلين آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، حتى إن من قواعد شريعته التشوّف الى الحرية وعقّ العبد على سيده بالاضرار . فاقضى نظرا ، والحالة هذه ، وفقا بأولئك المساكين في دنياهم ، وبمالكهم في آخرهم ، أن نمنع الناس من هذا المباح المختلف فيه ، والحالة هذه ، خشية وقوعهم في المحرم المحقق المجمع عليه ، وهو اضرارهم باخوانهم الذين جعلهم الله تحت إيديهم . وعندنا في ذلك مصالح سياسية منها عدم إلجائهم إلى حرم ولّاء غير ملتهم . فعيّنا عدولا بزواينة سيدي محرز والزواينة البكرية وزاوية سيدي منصور ، يكتبون لكل من أتى مستجيرا حجة في حكمنا له بالعقّ على سيّده ، وتُرفع البنا لنخيمها . وأنتم ، حرسكم الله ، إذا أتى لاحدكم المملوك مستجيرا من سيده ، او اتّصلت بكم نازلة في ملكية عبد ، وجّهوا العبد إلينا . وحدار أن يتمكن به مالكه ، لان حرّمكم يأوي من التجأ إليه في فك رقبة من ملك ترجّح عدم صحته ولا نحكم به لدّعه في هذا العصر . واجتناب المباح خشية الوقوع في حمى المحرم ، من الشريعة ، لا سيما اذا انضمّ الى ذلك أمر اقتضته المصلحة . فيلزم حمل الناس عليه . والله يهدي للتي هي أقوم ، ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . والسلام .

وكتب في 28 محرم الحرام فاتح شهور سنة 1262 (الاثنين 26 جانفي 1846 م.) « .  
وأمر بأن يكتب في عتق المملوكين بأن الولاء لمواليهم ، ولم يجعل ولاءهم لبيت المال .  
فأجابه رئيس الفتوى من الحنفية أبو عبد الله محمد بيرم بما نصه :

« المقام السلطاني الاحمدي المشيري المرفوع عماده ، الطويل نجاهه ، المحوطة  
بحسن سياسته من طوارق الاعداء بلاده ، لا زالت الإصابة ديدنه ، والمصلحة في ما  
يأمر به متعينة . اما بعد فقد ورد على العبد الضعيف ، ذلك المكتوب الشريف ، فبادرتُ  
بالامتثال ، وشرعت في إيصاله الى من تضمنه من الرجال ، وما أشرتكم اليه من المصلحة قد  
فهمناه وتحققناه . وقد وقع من عبدكم تحرير ما بيده من العبيد ، علما منه بأنه الصواب  
المتعين ، لا سيما وقاعدة ملك هؤلاء السودان ليست مبنية على أساس صحيح ، لاختلاط  
من هو حر الأصل منهم بغيره . فليشك في كل فرد معين منهم مجال ، يعلم ذلك  
من وقف على رسالة الشيخ سيدي أحمد بابا في المسألة (1) . وبالجملة فالخروج من  
عهدتهم أسلم للمرء في دينه ، خصوصا وقد انضم الى ذلك المصلحة التي لاحظتها  
السياسة ، ولا يسع من رزق حقا من العقل الا تسليمها . فالله تعالى يجازيكم عن النظر  
في مصالح عباده اجزل ما جازى به وليي أمر قائما بمصالح المسلمين . والسلام على ذلك  
المقام من محرره الداعي لكم الفقير محمد بيرم لطف الله به . وحرر في المحرم سنة 1262 .»

وأجابه شيخ الشيوخ وكبير أهل الشورى من المالكية ، ابو اسحاق ابراهيم الرياحي  
بما نصه : « اللهم أيد الاسلام والمسلمين ببقاء أمير المؤمنين ، المؤيد بالنصر العزيز  
والفتح المبين ، المستمد في إصابة الرأي من نور العليم الخبير ، سيدنا ومولانا الباشا  
أحمد المشير ، لا زالت العناية آخذة بيده ، والهداية الى أقوم طريق من أجل عُدده .  
وبعد فقد بلغني كتابك الكريم ، وخطابك العزيز الواجب التعظيم ، فأحطت بما  
لديه خبيرا ، وانشرت بما تضمنته صدرا ، اذ كان مضمونه رأيكم السديد ، في عتق  
هؤلاء العبيد ، لما ذكرتم من كل وجه سديد ، يقبله من له عقل رشيد ، وعلم مديد ،  
وليس بعد بيانكم من مزيد . فلا زالت ملّة الإسلام بك مشرقة ، ورياض الدولة بحسن  
سياستك مؤنقة . آمين . والدعاء من معظم قلوبكم العلي ، ابراهيم بن عبد القادر الرياحي ،  
عفي عنه . آمين . في المحرم 1262 .»

(1) هو صاحب نيل الابتهاج الخوي سنة 1236 ، والرسالة المشار اليها عنوانها : معراج الصمود .

ولا وقع هذا التحرير صار له في أمم الحرية موقع عظيم ، وكاتبه أعيان من الانقليز بالشكر على هذه المأثرة ، وطبع في صحف الحوادث بالبلدان ، وطبعت في مالطة أوراق بالعربية فيما يتعلق بملك الإنسان والتنفير منه .

ولا يخلو الوجود في سائر أفعال البشر من قاذح ومادح . فمن نظر الى الحنان والرأفة وما يقتضيه حال الوقت من السياسة التي لا تنافياها القواعد الشرعية ، أطال لسانه بالمدح ، كشخي الإسلام ومن نحا منحاهما . ومن نظر الى ضياع ماله وعسر حاله ، وتعلق ببعض أقوال العلماء ، كأهل جربة وغالب العربان وأهل الفلاحة ، أطال لسانه بالقدح .

وظهرت في البلاد رسالة لم يذكر كاتبها اسمه ، ونُسبت الى بعض البلدان من أوروبا ، ونصتها :

« الى كافة أمة محمد صلى الله عليه وعلى جميع الانبياء والمرسلين . اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان القرآن العظيم الباقية فيكم معجزته لم يزل ناطقا بفضيلتكم ، وناهيك بقوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » (1) ، وقوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (2) ، وقوله : « الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (3) . وجدير لمن له هذا القدم الراسخ في الفضل ، بشهادة الصادق في الكلام المعجز ، أن يترك جملاً من المباحات خشية الوقوع في المنكرات . ألا وإن لكل ملك حيم ، وحيم الله محارمه . ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . ومن المباح في ملتكم الحنيفية السمحاء ملك الأسارى ، على ما في أصل إباحته من القصة النبوية عنها القرآن بقوله : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . لتولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فاكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم » (4) وفي هذا الاسلوب من تعظيم محمد ومحبه ما لا

(1) س 143 1/2 - (2) س 110 1/3 - (3) س 3 1/5 - (4) 67 1/8 و 68 و 69

يخفى على متضلّع بمعاني التنزيل وأسرار البلاغة ، كما حرّره عياض في كتابه الشفا . وتعلمون أيضا أن شفيعكم ووسيلتكم وقائدتكم الى السعادة الابدية ، وهو الرسول الذي جاءكم من أنفسكم عزيز عليه ما عنيتكم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، آخر وصايته لكم عند انتقاله الى الملا الاعلى : « الله الله في الصلاة ، الله الله فيما ملكت أيمنائكم » . وقال أيضا : « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه فوق طاقته » . ومن قواعدكم الشرعية تشوُّف الشارع الى الحرية ، وعليها بنيت أحكام مفصلة في كتب الفقه . وناهيك أن عتق الرقاب من مصارف الزكاة التي هي لإحدى قواعد الاسلام الخمس . ومن زاول الشرائع وقواعدها وظواهرها ومقاصدها ، خصوصا الشريعة المحمدية المبنية على الرفق والرحمة ، ينفر من هذا المباح وهو ملك أخيه الآدمي المتأهل للنسبة والخلافة في الارض وغير ذلك من الكمالات الانسانية ، ولو أتى بسائر شروطه ، المتعذرة في الوقت والحال . وكابر من أنكر ذلك ، والمشاهدة أقوى دليل . ومن وُلِد على فطرة الشرائع ، وتغذى بلبان الشفقة ، وتربى في مهد الرحمة ، يرقُّ فؤاده لَمَّا يرى حال هؤلاء المساكين المضروب بحالهم المثل في الكتاب العزيز : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ (1) » ، وينظر قلبهم في أسر المذلة وهوان الرق على ما فيه شرعا في وقتنا ، إذ أكثرهم بل كلهم يأتون من سوادنهم ناطقين بكلماتي الشهادة ، عالمين بها إجمالا ، إلى غير ذلك مما يدل على منع ملكهم مما هو محرر في الدواوين الفقهية .

ولا حرج في التحري من هذا المباح الموقع في المحرم . والإباحة رفع تحجير ، ورفع التحجير لا يقتضي الامر بالعمل ، بل اذا خلصت النية في ترك هذا المباح ، كان لتاركه من الاجر ما يناسب كرم الرحمان الرحيم الأمر بالرحمة والراحم عليها . هذا ما يليق بحالكم يا أهل الإيمان ، الظاهر دينكم على الاديان ، والراحمون يرحمهم الرحمان .

يا أهل النفوس الزكية ، والقلوب السالمة النقية ، والاخلاق التي بالرحمة حريّة ، شرعكم متشوِّف للحرية ، والمِلِك للنوع الإنساني أعظم بليّة ، وحالة المملوكين

جلكية ، والله يقدر على عكس القضية ، كما ملككم إيتاهم يملكهم إيتاكم ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير . والسلام ورحمة الله على أهل الإسلام من عبد الله داخل في عموم قوله تعالى : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (1) .

قوله : « وَالْمَلِكُ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ أَعْظَمُ بَلِيَّةٍ ، وحالة المملوكين جلية » ، الظاهر أن مراده ما يعمُّ المِلِك الشرعي بالاسر في الحروب وبالشراء ، والمِلِك بالتغلب والقهر من ملوك الاطلاق الذين لا وازع لمشيتهم ، ولعمري انه أفظع من الاول ، لان الاول ربّما كان له وجه شرعي ، وهذا لا مساغ له بشرع ولا عقل .



وفي الشهر قدّم الباي لخطبة الفتوى شيخنا العلامة أبا العباس أحمد الأُبسي ، واعتذر بكبر السن والعجز فقال له : « إنما قدّمك لتستعين بدخل الخطبة ، ولا نرضى ان نُنسب إلى نسيان مثلك » . وقعد بغير إذن الباي حذو الرئيس ، واحتُمِلت له لان من بعده تلاميذه [وأبناءُ درسه] (2) .

وفي السنة [62] ظهر للباي ان المكس المرتب على أكرية العقار بالحاضرة يكون لإصلاح الضروري من خراب أبنيتها ، واتخذ لذلك أمينَ التجارِ الوجيه الماجد أبا محمد حسونة الحداد ، وأبا عبد الله محمد التومي ، وأبا عبد الله محمد بن عبد الله الصفاقسي ، وأحضرهم لديه [في المحمدية] (3) وتكلم معهم في ذلك . ولم تحصل نتيجة من هذا القياس لضيق حال الدولة .

وأُتعب الناس ذو حال ترقّعها يدُ التجمّل والإقتار يخْرِقُها



وفي رجب من السنة 1262 (جوان - جويلية 1846 م.) قدم ابناء سلطان الفرنسيين ، وهو يومئذ لويز فليب ، وقدم أخوهما الاصغر قبلهما ، فاحتفل لقدمهم وعظّم زيارتهم

(1) س 53 1/39 .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وبالغ في إكرامهم ، وأكد الصلة بذلك بينه وبين الجنس الفرنساوي . وانتدب وزيره شيخ الدولة أبا النخبة مصطفى صاحب الطابع إلى تأنيسهم والركوب معهم إلى القنص والاماكن التي تشوقوا إلى معرفتها . وأنزلهم بدار المملكة بالقصبة . وبعث ابن عمه ووليَّ عهده في أعيان من رجال الدولة لتلقيهم بالدار ، [وتعرض لهم بنفسه عند باب الصرايا] ، ورتب لهم عسَّةً بها على مقتضى مقامه (1) رئيسها ابو النجاة سليم أمير آلاي عسكر القشلة بالحاضرة ، وهاداهم بنيشان آله ، ورجعوا في تعظيم واحترام ، [وركب إلى حلق الوادي لمشايعتهم] . وبعث ولي عهده في اعيان من رجال دولته لمشايعتهم إلى القابور في يوم حافل مشهود (2) .



وفي ذي القعدة من السنة (اكتوبر — نوفمبر 1846 م.) قدَّم لخطَّة القضاء بالمذهب الحنفي العالم الفاضل الورع أبا النخبة مصطفى ابن شيخ الإسلام محمد بيرم الاول . ونقل لخطَّة الفتوى شيخنا العالم المحقق الفاضل ابا عبد الله محمد ابن الشيخ العلامة حميدة بن الخوجة .



وفي هذا الشهر عزم على السفر لفرنسة ، بعد ان بعث لها أبا عبد الله محمد بن عيَّاد ، واستكشف به كيفية قبوله ، فجمع رجال دولته واستشارهم في أمر السفر ، فقالوا له : « إن تحققت أنك تُقبَل فيها قبول أمثالك فهو حسن ، لا سيما وأولاد سلطانهم كانوا في زيارتك بالامس ، وهم الآن جيراننا » . وقال لوزيره أبي النخبة مصطفى خزنة دار : « اعرض ذلك على أعيان العُمَّال الذين معنا الآن بالمحمدية واعرف رأيهم » . وهم ابو العباس صميذة بن علي بن عزَّوز ، قاعدة دريد ، وابو عبد الله قَطَّوم ابن محمد ، رجل الفراشيش ، وكاهية الكاف ، ابو الفلاح صالح بن محمد ، فجمعهم الوزير بعلوَّة واستشارهم على لسان سيده ، وكنت حاضرا مع الوزير ، فأجابوا بالاستحسان .

(1) كذا في خ ، ولي ع و ق : « تناسب مقامهم » .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .



وكان ، رحمه الله ، بالمكينة المكيمة من برور الوالدين ، فقال لوزيره ومربيّه مصطفى صاحب الطابع : « إن أمي ليس لها غيري ، ولم يخرج من المملكة أحد من آلنا في البحر ، نرى أنها تتغير لسفري ولا نرى سرورا في أمر يغيرها . فقدّم لها ذلك على أنه رأي ظهر لك ، وانظر حالها » ، ففعل وقوى قلبها . ثم أتاها الباي وقال لها : « ظهرت لي مصلحة في السفر لفرانسا » ، فقالت له : « يا بُنَيَّ ، أنت في ولاية تقتضي السفر برا أو بحرا ، وأنّى للنساء ومعرفة المصالح السياسية ؟ ولكن عندك وزراء ونصحاء ، فشاؤهم ، فان اتفقوا على تصويب رأيك فأنت في وديعة الله ، وحسبك مني الدعاء » ، فخرج إلينا مسرورا بذلك .

وأعمل الفكر في كيفية السفر ، إذ لم يعهد مثله عند أهل المملكة ، فبعث إلى الاعراض صهره أبا محمد رشيد ، عامل تلك الجهة ، بالمحلة على العادة . وبعث إلى الجريد أبا العباس أحمد زروق ، أحد أعيان مماليك عمته ، في جيش من المخازنية . وبعث إلى باجة وجبالها محمد علي آغة بمحلة . وبعث إلى عروش ماجر والقراشيش ومن جاورهم ، أبا محمد اسكندر آغة في جيش من المخازنية . وخرجوا متفرقين لاغراض مختلفة . وأمر كل واحد منهم أن لا يرجع من وجهته إلا إذا أتاها أمر بالرجوع ، وإن احتاج لشيء يبعث في طلبه . ولما خرج هؤلاء الامراء ، أشاع بأنه يريد السفر ، وجمع العساكر في المحمدية بما يلزمهم من المدافع ، وأمر عليهم وزيره إيا النخبة مصطفى صاحب الطابع ، وأمره ان لا يفارق المحل . وكتب لسائر بلدان المملكة وعروشها وللأمرء المسافرين بما نصه ، بعد الافتتاح واسم المخاطب :

« أمّا بعد فان المصلحة التي أمرنا الله بمراعاتها ، اقتضت أن أسافر بنفسي الى فرانسة ولُنْدرة ، والله يعلم ان شغفي برعيتي ومملكتي يقتضي ان نفتحم المخاوف لآمانهم ، ونتحمل مشقة الاسفار لراحة أوطانهم ، وحماية أموالهم وأبدانهم . وقد أقمت فيهم جزءا منّي ، ينوب في غيبتني عني ، وهو المرفق الاعز أخونا سيدي محمد باي ، ينفذ ما أمرته به في مصلحتهم ، وحفظ عامتهم وخاصتهم ، حتى أرجع ان شاء الله الى بلادتي ، ومنّيت آبائي وأجدادي ، ورعيتي المترلين منزلة اولادي . وأحضرت العساكر قرب الحاضرة ليجزي الله كل نفس بما كسبت ، ان الله سريع الحساب . فاقرأ كتابنا هذا على الولاية الشرعية والمشايخ ليدوم أنسهم ، ولا تشوش بهذا السفر أنفسهم .

وأستودعكم من لا تخيب ودائعهم ، وهو الله في السموات وفي الأرض ، يعلم سرركم وجهركم ويعلم ما تكسبون . وخلفي فيكم الله الذي لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، والسلام . وكتب في ذي القعدة سنة 1262 .

وكتب لابن عمته وولي عهده الذي أنابه عنه ، مكتوبا بيده يتضمن فصلاً أمره بها فيما يرجع لحفظ الوطن وسياسة الرعية على حفظ الطاعة ، وإعانة الأمراء المأمورين في الجهات ، والاستعانة برأي الوزير مصطفى صاحب الطابع ، والاحتفاظ برعايا الدول الاحباب واحترام قناصلهم ، وإعانة الزامة . واذا طرأ ما يطرأ على البشر من العذر المانع عن المباشرة الموجب للنيابة ، يقيم مقامه أخاه ابا عبد الله محمد الصادق باي ، يتبع نص وصايته ، إلى غير ذلك مما اقتضاه الحال . وفي آخره : « اذا توقفتكم في أمر لم نستحضره في هذا التقييد ، وأشكل عليكم الامر ، فالقابور لا ينقطع عنكم ان شاء الله تعالى . هذا ما حضرني من الوصاية ، والله الحمد والشكر بلا نهاية ، حيث رزقني أخا جزءاً مني ، ينفذ إذني ، ويحفظ غيبي ، وينوب في مملكتي ، على سنن معتادنا ، الذي ورثناه من آبائنا وأجدادنا ، ولولاه لم نفتحم الاسفار ، ولا يسهل علي بُعد الدار ، والغيبة عن الاوطار . اللهم أنت الخلف في الاهل والصاحب في السفر . واستودع الله أخي وعائلي ومملكتي ، وحسبي الله الذي تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيباً . والسلام » .

وكتب لابي محمد خير الدين كاهية الذي أمره بحراسة قصره بباردو كتاباً أوصاه فيه بما اقتضاه نظره ، واذا طرأ عليه مانع فالوزير ابو الثناء محمود بن محمد كاهية يقوم مقامه . وفوض أمر حلق الوادي لوزيره المذكور ، وجعل به أعياناً معه ، واذا طرأ له مانع فأبو المسرة فرحات يقوم مقامه .

وفي يوم الثلاثاء سابع ذي القعدة 1262 (27 أكتوبر 1846 م) أمر باحضار كبراء العسكر من الصاغ قلاغاسي (1) فأعلى ، وأعيان من رجال الدولة ، فاجتمعوا بصحن البرج (2) . وكتب لهم كتاباً أمرني بقراءته في جمعهم والوزير حاضر ، ونصته :

« حفظكم الله تعالى ورعاكم ، وحاطكم بعنايته ووقاكم [ وإلى سبيل الخير هداكم ] (3) .

(1) كذا في خ ، ولى ع و ق : « الصاغ قول آفة سى » .

(2) كذا في خ ، ولى ع و ق : « بصحن المحمدية » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

[الى] الاجلاء الفضلاء الاعيان الثقات المقرين سيوف صولتي ، ومظهر شوكتي ، ومفخر دولتي ، وسور حمايتي ، في حضوري وغيبتي ، وأعزّ خاصّتي ، أبنائنا أُمراء الأُمراء وأُمراء الأُلويّة وأُمراء الآلايات وقائمي المقامات وأمناء الآلايات والبنباشية وسائر ضباط وكافة عساكرنا المنصورة بالله ، كثر الله أمثالهم ، وقرن بالرضى أعمالهم .

أما بعد فان المصلحة اقتضت أن أسافر بنفسي الى فراسة ولندرة ، والله يعلم ان شغفي بكم وبمصالح المملكة يقتضي ان اقتحم المخاوف لامانكم ، وأتحمل مشقة الاسفار لراحة أوطانكم . ومنّ عندّه ، والشكر لله ، مثلُكم من الحماة والانصار ، يستسهل الاسفار ويُبعد الدار . لان مثابرتكم على تنفيذ أموري ، تعظم في غيبي أكثر من حضوري .

وجرت عادة الله في عبادّه ، ان المسافر يهتم بأمر أولاده . فأنتم عندي ، بحمد الله ، المال والولد ، وبغیرتكم حماية الوطن والبلد . فلذلك أقمتُ فيكم من هو بمرتلة والدي ، وموضع مبرّتي ، وحافظ أمانتي ، وهو الوزير الناصح الثقة الخير الزكي ، أمير الامراء ايننا مصطفى صاحب الطابع ، مع انه في السفر لا غنى لي عنه ، ولا بدّ لي منه . لكن مكانتكم عندي ، تقتضي ان أبقى فيكم أعظم أهل ودّي . فامثّلوا جميعا ما يأذنكم به من السلم والحرب ، والقتال والضرب ، فانه يتكلم معكم بلساننا ، ويباشركم بيدنا . وارفعوا جميع مطالبكم اليه بالمحمدية من تقرير أعدادكم وتحرير أحوالكم اليومية واختبار مؤونتكم ، تأنيّه بذلك الشواش كل يوم من العرّضي (1) وحلق الوادي وعسة صرايتنا بباردو المعمور والقشل ، على العادة التي تفعلونها معنا نصّاً سواء . ويتقدّ ما يظهر له من العقوبة فيمن جنى منكم جناية توجب الحكم ، أيّ عقوبة كانت . واذا لزمه إقامة ضابط من اليوزباشي فأدنى ، فله أن يولي من يظهر له ويلبسه النيشان ، وأمضينا فعله . واذا أصابه ، والله الحافظ ، مرضٌ يوجب أن يقيم غيره مقامه ، فله ذلك . وأذّنّا ان يقيم مقامه الثقة المقرّب أمير الامراء ابنتا خير الدين كاهية ، فان تعلز فالثقة المقرّب أمير الامراء ابنتا محمود كاهية حلق الوادي . والقائم مقامه مثله في جميع الامور التي حرّناها لكم ، يتصرف على مقتضى التقيد الذي حرّناه بيد الوزير المذكور . فلا

(1) المرضي : المسكر (انظر دوزي وياقوت) .

تعرفوا في غيبتنا سواء ، ولا تجول فيكم يد غيره إلا يد الله . واستودعكم من لا تخيب ودائعنا ، وهو الذي ألف بين قلوبكم فاصبحت بنعمته إخوانا ، والله خير حِفْظاً وهو أرحم الراحمين ، والسلام » .

ويوم الأربعاء ثامن الشهر (28 أكتوبر 1846 م.) أحضر مشايخ الحاضرة وعرفهم بعزمه على السفر ، وإن البلاد في وجوههم ، وفوض أمر حراستها لأبي النجاة سليم أمير لواء عسكر القشلة ، وأبي اسحاق إبراهيم أمير لواء عسكر الطبجية ، وجعل في داره بالقصبة أربعمئة عسكري لحراسة المدينة ، وزاد في عسة الطويلة ، وهي حارة الافرنج . ورتب مائتي عسكري وعليهم بنباشي في رِبْض باب السويقة ، ومثل ذلك في رِبْض باب الجزيرة . وفي اليوم أبطل العسّة عن أهل البلاد ، وقال لهم : « حراسة البلاد ، موكولة للعسكر والاجناد ، ونحرسُهم باعانة الله في غيبتنا ، كما نحرسُهم في حضرتنا » . وكاتب وكلاءه في الممالك بخبر سفره .

ولم يزل مجتهدا من غرة هذا الشهر في ترتيب الامور ، والتدبير فيما يُشِير راحة الجمهور .

ولما كان يوم الثلاثاء الرابع عشر من الشهر (3 نوفمبر 1846 م.) ، أتى لِيَوَداعه أهلُ المجلس الشرعي ، فعظّم مَقْدَمَهُم وطلب منهم الدعاء ، فدعوا له . وقال له شيخ الشيوخ ابو اسحاق إبراهيم الرياحي في ذلك المشهد : « إن نُواب الجِلْد والدخان واللّزّامة لم يزالوا في تعنتهم وعسفهم لعباد الله ، فكيف يكون الحال في مغيبك ؟ » ، فقال له : « يا سيدي قد بالغتُ في وصايتهم » . ولما خرجوا [تنفّس الصعداء ثمّ ] (1) خرج إثرهم وزار مقام الشاذلي رضي الله عنه ، وتوجه لخلق الوادي فبات به ليلتين ليرى حال البلاد بعد سفره ، ووفود الحاضرة تَرِد لمشايعته .

وسافر ضحى يوم الخميس [السادس عشر من الشهر] (5 نوفمبر) ، في فابوره المسمى بالدنت (2) ومعه من رجال دولته وخاصته الوزير مصطفى خزنة دار ، ووزير الحرب مصطفى باش آغّة ، والقبطان حسونة المورالي ، والوزير جوزاب راف ، ومحمد

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) Lo Dante باخرة صغيرة اهداه اياها لويز فيليب (اغايا ج 172) .

المرباط امير لواء [عسكر المحمدية] ، وصالح بن عثمان شيبوب أمير لواء العسّة ، وخير الدين أمير آلاي [مباشرا لمصرف الدراهم] ، وحسونة متّالي (1) قائم مقام ، والعبد الفقير وغيرهم من أعيان خاصته . وصاحبّه في هذا السفر قنصل الفرنسي وهو الكولير ده لَقُو (2) ، ووراءه فابوره المسمى لفزي . فوصل لمرسى طولون ليلة الاحد [التاسع عشر من الشهر] (8 نوفمبر 1846 م) . (3) .

وفي الصباح لما ارتفع الصنّجق التونسي ، تزيّنت سائر الشقوف الحربية بالمرسى ، وأُطلقت المدافع دفعة واحدة من كل شقف . وأتاه أمير الاسطول ورحّب به وعظّم مَقْدَمَهُ ، ثم أتى الامرال الكبير بودين من البلاد ، وهو شيخ مسنّ حنّكته التجارب والحروب ، محمّلى بفقد ذراعه في حرب ، وعظّم مقدمه ورحب به وقال له : « ان فرانسة في انتظارك ، وقد أحضرت لك فابورا يحمل الى بلادك مكاتيب وصولك » ، فكاتب سائر المأمورين ، وأمر الوزير مصطفى صاحب الطابع بقراءة مكتوبه على العسكر . ولم يزل الاسطول الفرنسي مزينا بالصناجق ، وفي كل شقف منه صنّجق تونس .

ووجد في طولون مترجم السلطان ، وهو الكولير دقرانج ومعه يوزباشي من وزارة الحرب ، مأمورين من الدولة بانتظاره . ولما سلّما عليه ، وقع في نفسه أن مثله لا يتلقاه يوزباشي ، وربما ظهر على وجهه ، فقال له اليوزباشي ، واسمه برسي ، وكان آية في الامعية والنجابة (4) ويتكلم بالعربية : « يا سيدي ان مثلي لا يبعث لتلقّي مثلك ، وسلطاننا أمر بأن جموع فرانسة هي التي تتلقاك ، وسترى ذلك عيانا ، وحسبي أن أهتّى لك محلّ المبيت في الطريق ، والكراريس ، وغير ذلك مما يلزمك ، ودقرانج هو ترجمان السلطان » .

ولما تمت مدة الكرنيتينة أتى الامرال ومعه كافة أعيان الاسطول ، وقابلوا الباي في فابوره (5) ، واعتلر الامرال عن عادة الكرنيتينة ، فقال له : « لا تَعَبْ عندي فيها ، لاني أحكم بها في بلادتي ، والانسان يحكم على نفسه بمثل ما يحكم به على غيره » .

(1) في ع و ق : « المتّالي » .

(2) De Lagou (غانيا ج 19 و 20) .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(4) في ع و ق : « وكان آية الله في الدكاه والسياسة » .

(5) في ع و ق : « وقبلهم الباي في فابوره وعظم مقدمهم » .

فقال له : « مثلك من يعتبر ذلك (1) » . ثم قال له : « ان فرانساهتزت لقدومك ، وانها تقبلك كما قبّلت أنت أولاد سلطانها ، وأنت المبتدئ بالإكرام » ، فقال : « انما فعلت ما رأيته واجبا ، ولا يشكر الانسان على واجب » . ثم صحبه الامرال الى الفلوكة ، ولما نزل بها اطلقت جميع الشقوف المدافع ، وطلع بحريّتها إلى أعمدتها ، رافعين أصواتهم بما جرت به العادة (2) عند مرور الملوك . ومرت الفلوكة على الشقوف وهو يسلم على كل شقف بانفراده .

ولما وصل البرّ وجد العسكر واقفا من محل نزله الى دار الامرال التي بات بها . ولما وصلها أتته أعيان طولون من العسكر واهل البلاد ، جماعة بعد جماعة ، والامرال واقف بين يديه يعرفه بكل جماعة وبالأعيان منهم . وتحقق بذلك ما أخبره به اليوز باشي برسي . ثم توجه الى الترسخانة والامرال يماشيه ، فوقف على خزائن مهمّات الطبخيّة وآلات اطفاء النار ، وحركوها بالفعل حتى رأى قدر ارتفاع الماء وقوّته ، والاماكن التي بها إنشاء الشقوف ، والاحواض التي ترفع بها الاجفان من الارض بالماء المنساب اليها من البحر ، وتترج بآلات في قدر خمس ساعات ، وهي من اعاجيب الدنيا ، وأماكن الصناعات وغير ذلك من المصانع الدالّة على قوة المملكة وضخامتها وثروتها وآثار العقل الذي شرف الله به نوع الانسان .

وبات تلك الليلة بدار الامرال وأبدع ما شاء في الاحتفال والإكرام . ومن الغد أتاه جميع من في طولون من العسكر ، ومروا بين يديه ورأى نظافتهم وسلاحهم وحسن ترتيبهم .

ثم توجه الى المارستان ، ثم الى خزنة السلاح ورأى حسن تنظيمها . ثم توجه الى ترسخانة جديدة ، ثم الى برج كبير هناك [كأنه بلاد] ، وسرح نظره في تلك المباني [والعجائب] . جميع ذلك والامرال يماشيه ، وهو شيخ مسنّ من [مفاخر أمراء] (3) الفرنسيين .

(1) في ع و ق : « مثلك من يعتبر الانصاف » .

(2) في ع و ق : « بما جرت به عادتهم » .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ثم خرج من طولون الى باريس، راكباً كسروسة من الدولة تعجراً ستة من الخيل، وبقية من معه في كراريس تُعَجَّرُ بأربعة. ويقع تبديل الخيل والسائقين بعد كل ساعتين. وقطع بذلك مسافة شهر في ثمانية أيام.

وكل بلد يبيت به تأثي عساكره وأعيانه مع حكامهم للسلام عليه وتعظيم مقدمه، كما وقع بطولون، بحيث صارت البلدان تتبارى في الاحتفال لقدمه.

غير أن السالك في تلك الطريق يشاهد معنى العمران وصورة التقدم في ميادين الحضارة، ونتيجة الأمن والأمان. لا تكاد تجد موضعاً معطلاً من نفع شجرة أو حرث أو كسلاً مستتب. يسقى جميعها بغيوث العدل وسيوله المفعمة. يودُّ السالك في تلك الطريق السهلة أن المسافة تطول، لِمَا يشاهد من حسن الطريق وما حَفَّ به من الابنية والاشجار والمراتع والانهار، وكثرة المارئين على اختلاف الانواع. لا تكاد تسمع صوت متظلم إلاَّ مِنْ نفسه. وهذا من أعجب ما يُسْمَعُ مع كثرة المغارم والمكوس. وسرُّ ذلك أنها غير مجحفة، وأهلها يعرفون مقاديرها ومصاريفها في مصالحهم على اختلاف أنواعها. إلى أن وصل الى باريس، وما أدراك ما باريس.

هي الغاية الحسنة الباسم ثغرها في وجوه القادمين، مشحونة بأعاجيب الدنيا، جامعة لاشتات المحاسن، ينطق لسان عمرائها الزاخر، بقوله: «كم ترك الأولُ للآخر». ما شئت من علوم وصنائع، وثروة وسياسة، وظرف وحضارة، وعدل [تزكو أثماره وتسطع أنواره] (1). تموج شوارعها بالساكين في مراكز الأمن ومضاجع العافية، يقودهم الأمل ويسوقهم الحرص على العمل (2). ولو تتبعنا الرحلة لكانت كتاباً مستقلاً.

[وقد أعطاها حقها الشيخ رفاعه الطهطاوي واجتمعت به فيها] (3).

فتزل بقصر إليزي بُرْبُون (4)، من أعزَّ قصورها الملكية، وكان مسكن السلطان نليون الأول. وفي الحين أتاه أصغر أولاد السلطان، وهو الدوك دي مُنْبَنْصِيَا (5) فرحب

(1) الزيادة عن ع و ق.

(2) كذا في ع و ق، وفي خ: «ويسوقهم العدل».

(3) الزيادة عن ع و ق، والاشارة فيها الى كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» وهو رحلة الطهطاوي الى فرنسا.

(4) Ellysée Bourbon

(5) Duc de Montpensier

به وعظم مَقْدَمه وبلغ سلام والده ، واعتذر عن والده بأنه في بستان صَنْكَلُو (1) وهو بعيد عن باريس بأميال . وقال له : « إنه يقدم غدا ليقابلك في قصر السلطنة » ، وهو التلوي (2) .

وانتظر الباي قدوم رسول الدولة العلية بباريس فلم يقدم ولا بعث أحدا ، فقوي عنده ما كان توهمه في رأي وزراء الدولة .

ومن الغد ، وهو يوم الاثنين خامس ذي الحجة (23 نوفمبر) ، بعث السلطان كروسته المخصوصة لركوبه في المواكب ، ومعها عدد من الكراريس ، فتوجه بمن معه ، ومعهم الامير آلاي المأمور بعستته ، وهو الكلنيل تيري .

ولما وصل القصر السلطاني ، تعرض له خاصة السلطان وأعوانه ، وأدّخلوه لبيت بها مائدة منظمة من صنوف الحلويات ، ثم أدخلوه الى البيت الذي به السلطان ، فوجده واقفا ، وأولاده ووزرائه عن يمينه ، وزوجته وأخته ونساء أولاده عن شماله . ولما قاربه الباي تقدم اليه بخطوات باسم الوجه ، وعظم مقدمه وآنسه وشكر حسن قبوله لأولاده . ثم قدّم اليه زوجته وبقية آلّه واحدة بعد أخرى ، يعرف بكل واحدة والباي يسلم عليها . ثم عرف بالوزراء واحدا بعد واحد . ثم قال له الباي : « نريد أن نقدم بين يديك خاصتي » ، وقدم له كل واحد منا معرّفا بخطته ، والسلطان يسلم على كل واحد بما يناسبه . وقال عند التعريف بالوزير مصطفى خزنه دار : « وزيرك هذا تقدمت له زورة لفرنسا ومعهم [صاحب أسرارك] (3) جوزاب راف » ، ثم قال له : « بلغني أنك تعلم لغة إيطاليا وأنا أعلمها ، فلا يلزم بيننا ترجمان » . ولم يزل يياسطه ويؤانسه .

وخرج الباي فشيّعه أعيان ، منهم ولد السلطان .

وأمر السلطان المرشال صلت (4) ، كبير الوزراء ، أن يتوجه بهم لزيارة الباي . ولما وصل لمحلّ نُزله ، أتاه إثر وصوله أولاد السلطان ، وهما اللوك دي جنفيل (5) واللوك

Saint Cloud (1)

Tuileries (2)

(3) الزيادة عن ع و ق .

Soult (4)

Duc de Joinville (5)



دومال (1) ، فقبلها قبول أمثالهما . ثم أتى أخوهما الأكبر ، وهو الدوك دي نمور (2) ، فترك ورقة القدوم .

ومن الغد جاءه المرشال صلت ، ودخل للباي ومعه سائر الوزراء ، وهم : الوزير العالم المنصف الحكيم قِزُو (3) ، وزير السياسات الخارجية ، ووزير البحر ، ووزير الحرب ، ووزير الاحكام ، ووزير التجارة والفلاحة ، ووزير المصالح العامة ، ووزير المال ، ووزير العلوم ، فقام الباي لتلقيهم ، وعظم مَقْدَمهم ، وأجلسهم وحادثهم .

ولما خرجوا قام لمشايعتهم ، فمنعوه من ذلك . وقال له المرشال : « لا نقبل منك شيئا مما (4) اعتدناه من ملوكنا » . ولما خرجوا أتى المرشال بستانني المأمور بعسكر البلد [ وهي العسة الجنسية ، ولها عند ملوكهم أي اعتبار ] (5) ، فعظم مقدمه ورحب به وقال له : « معي سائر كبار العسكر » ، فخرج لهم الباي ، ومروا أمامه مسلمين على عادة تحييتهم ، والمرشال يعرف بهم .

ولما خرجوا ، ركب الباي لزيارة مَنْ زاره من الوزراء ، فمنهم من وجده بداره فاجتمع به ، ومنهم من لم يجده فترك في داره بطاقة الزيارة على عادتهم .

ولما وصل دار المرشال صلت ، تعرض له وعظم قدومه وفرح لتلقيه وأطال معه المحادثة ، ولما خرج شايعه . وطلب منه الباي الرجوع لمكان شَيْبِه ، فاستعظم ذلك وقال : « كيف أُخلُّ بواجب ؟ » ، وماشاه الى الكرسي .

وهذا المرشال من أفراد الجنس الفرنساوي ، معدود من رجال الحرب والشجاعة والوفاء ، شهد مع نبلين الاول حروبا كثيرة ، وقاد عن إذنه جيوشا ، وتقدم لهذه الخطة في دولته . وأهل فرانسة يحبونه ويسمونه « ظلَّ نبلين » . وفي مثل اليوم الذي انفصل فيه نبلين من السلطنة من كل سنة ، يتزيا بشعار الحزن ويغلق بابه ولا يزور أحدا ولا يقبل زائرا . ومع ذلك فسلطان الوقت يحبه ، ويعده ذلك له من الوفاء ، ليرضى الجنس الفرنساوي ، لِمَا يعلم من حبهم في نبلين .

(1) Duc d'Aumale

(2) Duc de Nemours

(3) Guizot

(4) كذا في خ ، ولعلها : « ما اعتدناه » ، والجمله ساقطة من ع و ق .

(5) الزيادة عن ع و ق .

وبلغ الباي ان رسول الدولة العثمانية [بباريس] كاتب الوزير قِزُو متشكيا من قبول الدولة الفرنسية للباي بغير حضوره ، فأجابه بأن هذا الملك أتى زائرا لبلادنا ، ولنا معه شروط مرعية ، وتقدم قبول نُؤابيه ورسله بغير حضوركم . وبالامس قبل أولاد سلطاننا بغاية السرور والاحتفال ، الى غير ذلك من براعة قلم هذا الوزير المضروب بها المثل [عندهم] (1) .

وقوي بذلك أيضا ما توهمه الباي في وزراء الدولة العلية من ميلهم الى خرق العادة التونسية . وتفتن هذا السلطان في إكرام الباي تفتنا بديعا ، واحتفل في ضيافته احتفالا يناسب باريس ، واستدعاه لذلك في قصوره وبستانه مراوا ، على كفيات مختلفة ، واستدعاه الى المسامرة معه في تياترو بستانه ، وأجلسه حذوه ، ومعه الرجينة وبقيّة آله . واستدعى لذلك المرشالات والوزراء والاعيان وأزواجهم ، وكانت ليلة مشرقة .

ومحصل هذا التياترو : « بناء ضخّم عليه قبة (2) مرتفعة ، وبه رواشن مطلّة على ساحة المجتمع ، مدخلها من غير الساحة . ومحلّ العمل يقابل سائر الناظرين من نصف دائرة . وأعماله حكايات بعض وقائع تقدمت ، يبرزونها من الفكر لِحِسّ المشاهدة . ويختارون لذلك البلغاء والخطباء ممن لهم معرفة بالاخبار والتاريخ والاشعار . وعدد العملة في ذلك أكثر من مائة . وهي من الصناعات الشريفة عندهم ، لان مَرَجِعَها تربية الناس وتهذيب أخلاقهم ، لما يرون تحسين الحسّن وتقييح القبيح معاينة » ، [وذلك أوقع في النفس] (3) . وفيها الموسيقى (4) ، وتارة يكون العمل الغناء والرقص .

واتفق ان كان في هذه الليلة حكاية قصة ، ولا أظنّها الا مقصودة . ومحصلها إجمالا ان بكرا من بنات الاكابر بالنسب ، مات أبوها وبقيت مع أمها ، وهي بالغ ، فمالت نفسها الى التزوج برجل من افراد الجنس ، وصار يأتيها ويحادثها ، وتنكر أمّها قدومه ، ولما يخرج تعاتب البنت على السرور بقدوم الرجل ، فتقول لها البنت : « ألهذا الرجل قادح في عرضه ومروءته ؟ » ، فتقول لها الام : « إنه ليس من أكفائك في النسب ،

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) في ع و ق : « سقف مرتفع » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) في خ و ع : « الموسيقى » ، وفي ق : « المسيق » .

وفي الرجال من له قدرة على استمالة القلوب بالمحادثة وليس له وفاء ، فهو في الحقيقة متحيّل ، فتستحي البنت وتسكت . إلى أن قالت لبنتها ، بعد خروج الرجل : « كأنك تريدان التزوج بهذا الرجل ؟ » ، فقالت لها البنت : « وما يمنعني من ذلك ؟ » ، فقالت لها : « ان نسبه ليس كنسبك » ، فقالت لها البنت : « اذا كملت النفس [بالحسب] غطت نقصان النسب » ، فقالت لها الام : « ان أنظارك من الاكابر لا يريدون ذلك و[ ان السلطان لا يريد ذلك ويمنعك من الرضى به » ، فصاحت البنت في ذلك المجمع [الحافل] : « بأي شرع يتصرف السلطان في ارواحنا بالقهر ونحن أحرار ؟ » ، وأقسمت ان تتزوج بالرجل ، إظهارا لحريتها ، وخرجت فورا الى الكنيسة . ولما صاحت البنت بهذه المقالة ، قال لها السلطان في ذلك المشهد ما معناه : « أحسنت ، أحسنت » ، وصفق بيديه ، وتلك علامة الاستحسان عندهم ، فصاح جميع من في المشهد بالدعاء للسلطان بطول الحياة ، وانسدل ستر محل العمل لإحضار عمل آخر (1) .

والتفت السلطان الى الباي وقال له : « يلزماني أن أستحسن هذه المقالة ، سياسة لهذا الجمهور ، ولو لم أفعل ذلك ربما يقال اني لا أحب الحرية ، ويجب على أمثالنا مراعاة الجلب لقلوب الرعية بما تستحسنه ، واعظمه العدل الذي منه الحرية » .

وانما علمت هذه الحكاية ، مع تطبيق مشاهدة الحال ، من الكولير دقرانج ترجمان الدولة ، وكان جالسا حذوي ، وعنده من الظرف ما يقتضي تأنيس المجلس ، بل قال لي إن الوزير قزّو أمرني أن أفسر لك ما تتشوف اليه نفسك ، لآنك صاحب قلم الباي ، لتكتبه في رحلتك .

ولما انسدل الستر قام الباي لموضع آخر ، وأشار اليّ فماشيتُهُ ، فقال لي : « أتعلم ما استحسنه هذا السلطان وصفّق عليه ؟ » فقلت له : « نعم ، ان دقرانج عربيّ لي » ، فقال : « سلطان الفرنسيّ على قوة عدوّته ، وكثرة جنوده ، بهذه الحالة [في مراعاة الرعايا] ، فكيف بنا أيها الشيخ ؟ » ، فقلت له : « ان القوم سبقونا الى الحضارة [بأحقاب من السنين] حتى تخلقوا بها ، وصارت من طباعهم ، وبيننا وبينهم بون بائن ، والله فينا علم غيب نحن صائرون اليه » ، فقال : « نسأل الله حسن العاقبة » (2) .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ولهذا الباي استحسان لافعال نبليون الاول ، حتى انه أمر بترجمة حروبه ووقائعها باللغة العربية (1) ، وقرائتها عليه غير مرة بالمحمدية ، ويرى انه من عظماء الدنيا كالاسكندر واشباهه ، فأحب أن يقف معتبرا على تابوته ، وكان بمحل<sup>2</sup> يسمى الانقليد (2) ، وهو موضع من أصيب من العسكر في الحرب بنقص عضو ونحوه ، فأثاه ولما دخله اصطف له سائر من له قدرة على القيام ، هذا برجل من خشب ، وآخر بغير ساعد [ونحوهم ، ومنهم مسلم من الجزائر يتكلم بالعربية] (3) وبأيديهم سيوف ، فأثاهم وسلم عليهم وأنسهم ، وقال لهم : « ان ما وقع لكم من النقص البدني ، الذي هو كمال في الانسانية ، شهادة لكم بالثبات والصبر وحب الوطن » . ووجد من لا قدرة له على القيام ، كل واحد في سريره ، موكل به امرأة تناوله ما يشتهي ، وتزيل عنه ما يلزم زواله ، وهي حانية عليه حنوً الوالدة على الفطيم . وبه مارستان كبير لمن طعن في السن وعجز عن الخدمة ، تجري على الجميع جرايات واسعة ونفقة لها بال ، من أحسن ما يتمنى الإنسان . وطاف الباي على تلك الاسرة وحيث أهلها كل واحد بانفراده . ثم أتى التابوت الذي به نبليون ووقف معتبرا بحال الدنيا ، وهو في صندوق من حجر في صناديق من خشب ، على ما قيل لنا ، مغطى بسائر من حرير اسود ، وحوله صناعته المثقبة بالرصاص ، والصناجق التي أخذها في حروبه .

ثم اتاه المرشال الموكل بذلك المكان ، وهو من عسكر نبليون ، يدب على ضعف بدنه وبصره وشيخوخة سنه ، فتجلد تجلد الشجعان وفتح له خزانة بها ثياب نبليون وغطاء رأسه ونعله وسيفه ، محفوظة في ذلك المحل تذكارا لصاحبها . وذكر انها كانت عنده مخفية . ولما أراد ان يخرج بعض تلك الثياب بكى ، فقال له الباي : « المقصود النظر فقط » .

ثم طلب من الباي أن يزور محله ، فأسرع لإجابته بسرور لِمَا رأى فيه من الوفاء وأكل من طعامه وشكره وشكر زوجته ، وحصل للمرشال سرور بذلك .

وهذا المحل مما يقوي قلوب عساكرهم حين يرون مآل العاجز منهم ، وانه لا يُترك نسيا منسيا . وهذا الشأن هو شريعة الاسلام ، ولثل هؤلاء حق شرعي في بيت مال المسلمين .

(1) انظر التعليق على : 36 من هذا الجزء .

(2) Les invalides

(3) الزيادة عن ع و ق .

والحاصل انه في مدة اقامته بباريس يركب كل يوم بأتباعه الى الاماكن التي تنوق النفوس لمعرفتها من عجائب باريس ، والامير آلاي المأمور بعسسته يدور معه .

فتوجه الى موضع مهمات الطبجية ، ورأى انواع المدافع وآلات جرّها ، والاسلحة على اختلاف أنواعها وأشكالها ، من لدن ابتداء المقاتلة بالسلح الى عصرنا ، والدروع للفرسان والخيول ، ووقايات الرؤوس .

وتوجه الى دار برفيت (1) باريس . اي شيخها ، ويعبر عنها بدار الجنس [وبدار الملة] (2) . وهي من اعاجيب الدنيا ، وبها ما ليس في قصور السلطنة . وتلقاه شيخ باريس وطاف به سائر أماكنها واطلعه على أزمته ، واستغرق يومه في محاسن تلك الدار . وهي لمجموع الجنس ، لا دخل في تصرفها للملوك الا بولاية الشيخ .

وتوجه الى بستان فرصال (3) الذي يدور له ماء الوادي ويتفجر في أنابيب وفوارات مختلفة الالوان والاشكال ، يعلو الماء من بعضها قدر عشرين ذراعاً ، وتمائيل منحوتة من الرخام والمرمر من الحيوانات ، ينبع الماء من مخارجها على أشكال غريبة . ودار في طرق هذا البستان بالكراريس واستغرق يومه في ذلك .

ومن الغد رجع لهذا البستان وسرح نظره في قصره ، ودار في ارجائه وبيوته في مدة خمس ساعات ، وهو من اعاجيب الدنيا .

وتوجه الى دار ضرب السكة [الخالصة] (4) ، وعملها بالفابور ، وحركوا آلاتها بمحضره ، وهو ينظر الدراهم خارجة موزونة مطبوعة تجري جريان الماء في ساقية من خشب . وطبعوا بمحضره قطعاً من خالص الفضة ، اكبر من الريال الدورو ، الا انها بغير آلة الفابور ، مكتوب على كل واحدة ما نصّه : « سعادة بك تونس قد شرف دار السكة بباريس بحضوره في غرة ديشنبر سنة 1846 مسيحية » ، وبالجبهة الاخرى صورة وجه السلطان . وطبعوا أمثالها من النحاس ، وأهدوا جميع هذه القطع للباي وأتباعه .

(1) Prefet de Paris اي دار السوال .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) كذا في ع و ق ، والمراد : Versailles .

(4) الزيادة عن ع و ق .

وتوجه الى دار ندوتهم ، وهي بيت وكلاء المملكة [ولك ان تقول : بيت عمران المملكة وثورونها ونجاحها] ، وهي من المباني الضخمة المحترمة ، وبيت الاجتماع نصف دائرة بها مدارج تجلس الوكلاء عليها صفًا وراء صف ، ويقابل تلك الدائرة روشن السلطان يجلس فيه يوم فتحها [ويقف فيه خطيبا بالقاء ما يريد القاءه على المسامع لتفكّر فيه عقول الحرية] (1) ، وتحت روشن كراسي للوزراء في الارض ، مقابلة لاول درجة من درج الدائرة ، وفي الارض شكل منبر يقابل الوكلاء ، لمن يريد الكلام من الوزراء ، بحيث ان المتكلم يسمعه ويراه كل واحد من الوكلاء .

وتوجه الى دار عجائب الحيوانات والنباتات ، فرأى من صنع الله الدليل القاطع على باهر قدرته .

وتوجه لمحل يسمّى قبلين (2) ، وهو موضع النسيج بالصوف مع التصوير الملون ، يصنع فيه الناسج ما يصنعه المصور بأدهانه . وللفرنسيس اعتناء بهذه الصناعة التي قل من شاركهم فيها ، وهي عجيبة . واهدى السلطان صورته من ذلك النسيج الى الباي ، وهي الآن بقصر الملك بباردو .

وتوجه الى محل يعرف بسيفر ، تصنع فيه الاواني من الطين ، المزوقة بالادهان ، المزرية بأواني الفضة ، لما فيها من الجودة واتقان الصناعة .

وتوجه الى دار الكتب المرتفعة المتسعة الهائلة وبها عدد كثير من [المصاحف القرآنية وكتب الاحاديث النبوية والدواوين الفقهية والتفسير وغير ذلك من] (3) الكتب الاسلامية ، وما لا يحصى من الكتب الافرنجية في سائر الفنون . يطلب الجالس في طاقها الرابع من قيم البيت الاسفل كتابا ، فيطلع اليه الكتاب في الحين بآلة . ويسمع الاسفل كلام الاعلى من حلاقيم نافذة من كل طاق الى ما يليه . وفيها من المصاحف المنمقة ما يذهل الفكر ويستوقف الناظر ، ومنها مصحف بصندوق يخصه ، ذكروا ان الرشيد العباسي أهدها لمن في عصره من ملوكهم . وعادة الافرنج لا يعظمون الحروف ولا يحترمون أجرام الكتب مثل المسلمين ، وانما ينظرون الى ما فيها (4) . ولما رأى الباي يد

(1) الزيادة في الفقرة من ع و ق .

(2) Gobelins

(3) الزيادة من ع و ق .

(4) في ع و ق : « وحسبهم الاستفادة بما فيها » .

القيم جائلة في المصاحف حين إخراجها للاطلاع عليها ، على كيفية غير معهودة في الملة الاسلامية ، اقشعر وقال لذلك القيم : « يكفي ، فاني لا أمس هذا الكتاب الا على شرط مخصوص هو غير قائم بي الآن » ، ورجع ولم يسرَّح النظر في تلك الكتب .

وتوجه الى قصر السلطنة المعروف بالتولري وأهدى للسلطان نيشان آل بيته ، وعلقه على صدره بنفسه ، وقبَّله السلطان بسرور ، وقال له : « اعلم ان نيشانك هذا قبلته فرنسا ، لان منزلتي منها منزلة أب » .

واستضافه الوزراء وتأنقوا في الاحتفال له ، ولاجله أمر السلطان بتعليم عسكري يحتوي على خمسة وعشرين ألفا ، من طبجية وخيالة ورجال ، أميرهم أكبر أولاد السلطان ، ومعه أخوه أمير آلاي طبجية ، في فسيح من الارض قرب الانفليد ، دار العاجزين من العسكر . وأتى سايس السلطان الى الباي قبل يوم التعليم ويده زمام به عدد من الخيل لركوب الباي ومن معه ، مكتوب فيه اسم كل حصان وبيان خلقه ، وسروج عربية ومثلها افرنجية ، يركب كل واحد على ما شاء من الخيل بما شاء من السروج ، وكرايس . وركب الباي بمن معه ، ولما وصل الى مجتمع العسكر ، تلقاه ابن السلطان وقال له : « ان التعليم صنع لاجلك ، فأنت أميره في الحقيقة » .

وشرعوا في صرخ المدافع والمكاحل حتى اسودَّ النهار ، وكان يوما باردا ، فقال الباي لابن السلطان : « ان العسكر آله البرد [ والثلج ] (1) ، ويكفي ما حصل ، فأمر بالانفصال . ووقف الباي وابن السلطان حتى مرَّت العساكر أمامهما بمدافعهم وسائر آلاتهم ، وكان يوما مشهودا .

واستضافه ابن السلطان في قصر تولري ضيافة عسكرية حضر مائدتها مائة من أعيان العسكر الذين حضروا التعليم ، والباي وأتباعه . واحتفل لهذه الضيافة احتفال عظماء الملوك . ثم استضافه اصغر اولاد السلطان ، وهو امير آلاي الطبجية ، في قشلتة ، وتسمى فان صان (2) . وصنع له تعليمًا ومحرقًا ملونة على اشكال وثمانيل تستوقف الناظر ، وصار بها الليل نهارا . وخرج في تلك الليلة كثير من نساء باريس برجالهن . وصرف على ذلك أموالاً .

(1) الزيادة عن ع و ق .  
(2) Vincennes .

وتوجه الى دار التعليم الكيميائي ووجدهم اذ ذاك في اختراع سلك الإشارة ،  
الاعجوبة الموجودة الآن . وشاهد حال التلاميذ ومقدار ما لكل واحد من التقدم ، وما  
أهل الله له النوع الإنساني ، وما وصلت اليه العقول السليمة .

ولم يزل يتردد في الاماكن المشهورة ، كبيت تاج الملك المكلل بثمين الاحجار  
وما تبعه من عجيب المتصاغ بفرائد اليواقيت [وغيرها مما يبهز النظر] (1) .

وفي كل ليلة يحضر مائدته في قصر نزله اعيان يستضيفهم من رجال الدولة والعلماء  
وأعيان اهل البلاد ، بإشارة من الكولير جول دي لسبس (2) ، ابن القنصل الذي كان  
بتونس ماثبو لسبس ، وتقدم ذكره ، ومن القنصل ده لَقُو .

اتاه ليلة رجل من اعيان باريس (3) ، بعد ان شاهد تذهيب الحديد وتفضيضه حتى  
يخرج كأنه خالص من اتقان الصناعة ، فقال له : « هل استحسنت صناعة هذا  
المحل ؟ » ، فقال له : « انها مستحسنة ، غير انها تثير الشك في الخالص » ، فقال له  
الرجل : « مثلك من يقول هذا ، لأن الخالص لا يستحسن الا الخالص ، والممّوه لا  
يستصبح التمويه » . وبلغنا ان هذا الرجل صار من الوزراء .

ولم يزل مدة اقامته في باريس يتنقل كل يوم من نزهة إلى نزهة ، وهو مع ذلك  
يتذكر تونس وعادات أهلها ، وأماكنها عند مشاهدة كل عجيب ، ويقول : « ليت  
مثل هذا عندنا بالمحل الفلاني بتونس » . حتى انه مرّ يوماً [بالمهيع المعروف بشان  
زِلَيزِي] (4) ، ومعناه ممشي الجنة ، فقلت له : « كاد ان يوافق الاسم المسمّى » ،  
فقال لي : « ما اشوقني للدخول من باب عليوة ، واشتم رائحة الزيت من حانوت  
القطايري داخلته » ، فقلت له مداعباً ، وأنا أنفّس في هواء الحرية وأرِدُّ من مائها وقدماي  
بأرضها ، : « يحق لك ذلك ، لأنك ان دخلت من هذا الباب تفعل ما تشاء ، اما الآن  
فأنت رجل من الناس » ، فقال لي : « لا ساعلك الله ، لِمَ لا تحملني على حب الوطن  
لذاته وعلى أي حالاته ؟ » ، فقلت له : « ان هذا البلد ينسي الوطن والاهل كما قال الشاعر :

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) Jules De Lesseps (غايياج 302)

(3) بعد « باريس » بياض بقدر ثلاث كلمات في غ ، لم يراع في ع و ق .

(4) كذا في ع و ق ، وفي غ : « مر يوماً بمكان اسمه زلزا » .



ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم يعقاب بنسيان الاحبة والاهل «  
فقال لي : « اذا يصدق علينا المثل المشهور عند العامة » من رأى قمح الناس لا  
يزرع (1) شعيره » .

وقلت له ذلك خشية ان يظهر منه القلق ، لانه في هذه الايام تحقق ان دولة  
بريطانيا لا تقبله القبول الاول الا بحضور رسول الدولة العلية [بلندرة] (2) ، جريا على  
مقتضى سياستها ، فكاتب وزيرها بما محصله : « ان استنادي الى الدولة العلية وثيق  
البيان ، ثابت الاركان ، ولنا معها عادات معروفة . وقد قبلتم رسلنا بغير واسطة ، والرسول  
نائب ، فكيف تتوقفون على واسطة في قبول المتوب عنه ؟ ولنا معكم شروط محترمة .  
على ان زيارتنا لدولتكم انما هي زيارة تأكيد للمحبة ، وحيث توقفتكم في ذلك على  
واسطة ، فانه يتعذر علي خرق عادة في آل بيتي ولم يظهر لي سبب يقتضي خرقها . فهذا عذري  
في عدم القدوم . وبودي ان ذلك لم يقع » . وتكلم في ذلك مع رسول دولة الانقليز بباريس .

وعزم على الرجوع ، وقابل سلطان الفرنسيين للوداع في قصر تلري (3) ليلاً بمحضر  
أعيان من الوزراء وغيرهم ، فقال له : « الفابور الذي أثبت فيه صغير ، يتعبك في هيجان  
البحر ، وهذا وقت شتاء » ، فقال له الباي : « قد وصلت فيه بأمان وعافية ، وارجو الله ان  
ارجع كذلك » ، فقال له : « أنت في ضيافتني ، وعهدتك عليّ ، فلا أخطر بسفرك في  
فابورك . وقد هيأت لك في طُلُون الفابور الكبير الذي ارتضيته لسفر ابني حين قدم  
اليك » ، فقال له : « لا نردُ كرامة من سلطنتك » . وودَّعه وودَّع الرُّجينة وخرج ،  
وشايحه أولاد السلطان .

وسافر فبات بالقصر السلطاني المسمّى فنتنبلو (4) ، وهو من اعظم القصور وأفخم  
الهياكل ، وبلِصَّفه بلدة ، فأثاء أهلها على عادة البلدان التي مرَّ بها . [ولم تتم يومئذ  
طرق الحديد ، وانما ركب فيها مرة] (5) . وسار على غير طريق قدومه ، فرأى أيضاً من  
الثروة والعمران ما يستوقف الازدهان ولا يحيط به بيان .

(1) ييزع : يطرح ، ينبد .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) كذا في خ و ي ع : « تولري » ، وفي ق : « لوتري » .

(4) Fontainebleau

(5) الزيادة عن ع و ق .

ولما أتى مرسيلية اقام بها يوما وليلة ، واحتفل اهلها لقدمه ، وبالغوا في اكرامه وتعظيمه ، ومنهم تجار يعرفهم بتونس مثل ولد الحكيم قاي الفرنسي طيب جدّه وصاحبه (1) . واليهودي التونسي الوجيه المسمى بالصايم الذي سافر من تونس خوفا على ثروته ، بعد ان دفع مائة الف ريال جُعلا للوزير حسين خوجة لاجل تسريحه ، وعُدّ ذلك من خسران هذا الوزير حيث رضي منه بهذا المقدار ، مع ان ذمته تقى بأكثر من هذا العدد ، وغيرهما .

وشمّ من مرسيلية رائحة الوطن ، وأتى أماكنها المشهورة ، ورأى المرسى الجديد ، والسيول المفعمة بالتاجر ، وآثار الثروة والعمران [وتحقق معنى قولهم « المتجر يقطع سلاسل الفقر » ، لا تكاد ترى واحدا بغير شغل] (2) .

وأتى الدار المعدة لتنظيف السكر ، وصاحبها من أعيان البلد وشيوخه ، وله معرفة وخططة مع نليون .

ومنها توجه الى طولون ، فقابله الاميرال بودين ، واقته اعيان البلد وغيرها مودعين .

وبالجملة فقد صدر من اهل فرانس وسلطانها ورجال دولته ، مع هذا الباي ما بقي أثره ، ولا يُنسَى خبره ، من حسن القبول واطهار المسرة والاعتناء . ولا يُستغرب ذلك في حسن أخلاق هذا الجنس ، وبشاشتهم في وجوه الوافدين اليهم ، وحرّيتهم التي اقتضت أنهم لا يستكبرون ، وميلهم للانصاف ، لكن هذا الاخير في بلدانهم ، فاذا خرجوا منها ربّما بعدوا عن هذا الميل ، إلا ما قلّ منهم .

ووصل الى حلق الوادي صباحا في الثاني عشر من محرم سنة 1263 ، ثلاث وستين (الخميس 31 ديسمبر 1846 م) ، فتلقته العساكر والاعيان ، ونزل في موكب حافل ، وهرعت له وفود الحاضرة وأعيانها .

وبات بحلق الوادي ، فبلغه ان الفابور « الدنت » (3) الذي أتى وراءه ، انكسر بشاطيء العبدلية ليلا . فحمد الله على اللطف ، حيث لم يكن فيه .

(1) في ع و ق : « صاحب جدّه وطيبه »

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) Le Dante

ومن الغد توجه للحاضرة وزار مقام الشاذلي رضي الله عنه ، ومنه توجه الى باردو . واطلقت مدافع السرور من سائر الابراج . ودخل المحكمة من بابها ، وجلس على كرسيه ، فسلم عليه رجال الدولة والاعيان من العسكر وغيرهم . ثم دخل صرايته ، فأثاه أهل المجلس الشرعي ، فقام لتلقيهم على العادة ، وسلم عليهم سلام المشتاق ، وعظم مقدّمهم وجلس معهم (1) ، ففاته شيخ العصر وبركة المصر ، أبو إسحاق إبراهيم الرياحي بما لفظه : « نحمد الله على سلامتك ، ونشكر الله على اللطف بك حيث لم تكن في الفابور الذي انكسر . مع ان سفرك هذا في غير زمان لغير مكان ، وهذا من التمكن في الارض ، والله يقول : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (2) ، ولم يزل ظلم العمّال واللزّامة كما كان ، فاشكر الله بالنهي عن هذا المنكر » . ثم مدّ يده لقراءة الفاتحة وخرجوا ، فقام الباي ، منقّصا من أثر الموعظة ، لملاقاة والدته .

ومن الغد أتته أعيان الحاضرة مهتئين مستبشرين ، وعلت أصواتهم بشكر الله على قدومه ، وإزالة وحشة مغيبه عنهم ، فقرّرت عينه لذلك وقال لهم : « قد بلغني عملكم في مغيبتي ، وتحدثت به البلدان ، وأنا لا استغرب ذلك من أهل تونس » . ودعا لهم ورجعوا مسرورين . يشير بذلك الى ما صنعه أهل هذه الحاضرة وعساكرها في غيبته مما لا يسع جحده .

فقد كانوا كأهل بيت غاب عنه ربّه المحبب إليهم ، لا شغل لهم الا في انتظار قدومه . ولم تقع في غيبته مشاجرة ولا جناية ، وأن الفقراء يستعطفون الناس ، في طلب الصدقة ، بالدعاء الى الله أن يأتي سيدنا على خير .

وفي مغيبه كان عيد الاضحى ، فخرج ابن عمّه وخليفته أبو عبد الله محمد باي من داره لصلاة العيد بالجامع بغير أبهة . ولما خرج من الصلاة قال للحاضرين : « عيدنا هو يوم قدوم سيدنا على خير ، والعيد الشرعي مبارك على الجميع » . ودخل داره ولم يجلس لقبول التهئة على العادة .

(1) في ع و ق : « وأجلسهم عن يمينه » .

(2) س 41 I/22

ولما بلغه ، وهو ببافيس ، ما صبر من ابن عمته وما وقع من اهل الحاضرة ، وقع منه موقعا عظيما وقال : « ما كنت أظن أنني بهذه المحبة في قلوب الناس ، ولم أر من حالي ما يقتضي ذلك ، وقلوب العباد بيد خالقها سبحانه » . وشكر الله على ذلك .

واستأذنه أهل الحاضرة عند قدومه في زينة البلاد ، لإظهارا لسرورهم بأوبته ، فأبى وقال لهم : « في البلاد الفقير والغني ، وربما يتكلف الفقير مضاهاة الغني فيُجحف به ذلك » .



وبعد ايام من قدومه بعث أمير لواء الخيالة ، ابا العباس أحمد ، الى دولة الانقليز ، ومعه مكتوب يتعذر فيه عن عدم قدومه . وقبلته الدولة أحسن قبول ، واستضافته السلطنة وبعض الوزراء ، ورجع مكرما مسرورا .



وانقبض الباي عن مباشرة الحكم في المحكمة ، وتحاماه ما أمكن ، لما رأى حال التمدد وطموه سبله ، وعلم أن الحكم المطلق آن انقشاع ليله ، وصبح الحق كادت ان تظهر طلائع خيله .



وفي صفر من سنة 1263 ، ثلاث وستين (اوائل صفر - اواخر جانفي 1847 م) ، توفي العالم المفتي الامام ، شيخ الطريقة الشاذلية ، ابو محمد الشاذلي بن المؤدب . وحضر الباي جنازته وحمل نعشه ، ومشى في جنازته كواحد من اهل الطريقة ، وهو من أهلها . وقدّم عوضه لخطة الفتوى الشيخ القاضي ابا عبد الله محمد البنا ، ولخطة القضاء ابا عبد الله محمد النيفر ، في يوم واحد . وأحضر لذلك شيخ الفتوى ابا اسحاق ابراهيم الرياحي [وأجلسه حذوه عن يمينه] فقال له في ذلك الديوان : « سدّد الله اعمالك » (1) ، هما أفضل أهل عصرهما علما ودينا . وناهيك بهذه الشهادة من ذلك الفاضل .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وفي هذه السنة ظهر للباي ان يطبع من الفضة سكة خالصة ، ويطبع مقدارها أوراقا في اعداد مخصوصة ، بها طابعه وطابع الوزير أبي النخبة مصطفى خزنة دار وخطه ، وكتابة الورقة بخطوط افراد من الكتاب مختلفة [خشية تقليدها] (1) . وذلك لما ضاق دخل المملكة واتسع خرجها ، بكثرة العساكر والامراء بغير مأمورين ، والضباط بغير مضبوطين ، وغير ذلك مما اقتضته سياسته التي لا يُسأل عنها في ذلك الوقت . وكتب بذلك إعلاما لسائر قناصل الدول بالحاضرة ، نصه ، بعد افتتاحه ، : « اما بعد فان العمران الحضري لا قوام له الا بالنقود التي هي اثمان البضائع ، ورأينا النقود المسكوكة في إيالتنا غير وافية لإدارة مكاسبها ورواج متاجرها ، فاقتضى نظرنا ، المؤسس على مصلحة العمالة بنمو متاجرها ودوران مكاسبها ، ان نضرب سكة خالصة من الفضة صرفها خمسة رياتلات تونسية صغرى ، من الرائج في العمالة . وكذلك نطبع رسوما مالية في اعداد من الريالات الرائجة ، ونحكم بجرياتها في العمالة باعدادها في البيع والشراء وسائر المعاملات ، مثل النقد المسكوك نصا سواء . ونجعل دارا في حاضرتنا ، حاطها الله تعالى ، فيها مبلغ من الدراهم التونسية لصرف تلك الرسوم المالية . والذي يريد صرف رسم بيده فالدار تصرفه له ، على ان يُسقيط صرفا اربعة في المائة ، في مقابلة نقص الدراهم والزائف منها ، ومصروف من في الدار من الكتاب والحساب والخدمة وغير ذلك من ضروريات اقامتها . ولا يتعطل من يريد الصرف ولو ساعة . وتفتح هذه الدار في كل يوم ساعتين ، من قبل نصف النهار بساعة (2) . اما من له دين على أحد قبل هذا التاريخ ، فانه لا يلزمه ان يقبل هذا الرسم من مدينه الا بصرفه المذكور ، وأما بعد التاريخ فلا يطلب صرفا . ومن بيده رسم ثلاثى وخشبي ضياعه ولم يرد صرفه ، فان الدار تعطيه رسما عوضه من غير صرف ، اذا كان مقروء الكتابة لا ريب فيه . وأعلمناكم بهذه المصلحة لتكون معلومة لسائر من لنظركم ويتحقق عندهم ان هذه الرسوم المالية حسابها حساب النقود المسكوكة ، ويعتبر التاجر الصرف المذكور في البيع والشراء . والمرجو من الله ان تكون هذه المصلحة نافعة للسكان ، معينة على اسباب العمران . وكتب في الثاني والعشرين من رجب سنة 1263 (الثلاثاء 6 جويلية 1847 م) » .

(1) الزيادة من ع و ق .

(2) كذا في ع و ق ، وفي ق : « ساعتين من قبل نصف النهار ، وبساعة بعد » .

ولم يكتب على هذه السكة الا ما اعتيد كتبه على سكة البلاد السابقة ، وان كان هذا الخلو من اختراعاته . وقلتُ له : « لو كتبت على هذه السكة : » احمد الله على خلوصها ؟ » فقال لي : « كأنك تريد الاشارة الى اسمي ؟ هذا لا يكون مني ، لان ذلك من حقوق السلطان ، ولا أحوم حول حقوق الدولة علي ، والا صلح بنا بقاء ما كان علي ما كان » .

وكل على هذه الدار التي سماها « دار المال » [وهي القشلة المعروفة بقشلة سيدي عامر] ابا الثناء محمود بن عياد ، وهو [اذ ذاك] المقرب زلفى ، والنصوح الاوفى ، عند الباي . وجعل الوزير ابا النخبة مصطفى خزنة دار ناظرا عليه ، وكتب لهما أمرا في ذلك ، وأبتدأ العمل بهذه الدار في اواخر شعبان (اوائل اوت 1847 م) . واستقام حالها زمنا ، [وقبل هذه الرسوم في سائر الجبايات] (1) ، وحصل منها نفق في ادارة المكاسب ، وتوسعت الدولة ، الى ان هرب محمود بن عياد ، كما سيأتي ، ان شاء الله .

وضرب في هذا التاريخ قطعا من النحاس للاستعانة بها في كسور الريال والتسهيل على الضعفاء ، إلا انه حابى نفسه (2) في الربح ، ضد ما فعل في سكة الفضة ، فانه لم يعتبره فيها . ووافق على هذا الربح في قطع النحاس جميع رجال دولته ، حاشا وزير الحرب ابا النخبة مصطفى باش آغة . ولما صمم على المخالفة قال له الباي : « ان عقلك لا يرجع بهؤلاء العقول ، فهلا اقتديت بهم ؟ » ، فقال له [مداعبا] (3) : « يا سيدي ، حاولت نفسي على السرقة والخطفة فأبت » ، فتجاوز له عنها متبسم . إلا أنه ، مع هذا الربح الذي سمع فيه ما سمع ، لم يضرب الا القدر المعقول المحتاج اليه في النفقات اليومية في البلاد . وغالب السكة في دولته فضة ، وقتلتها غطت عيب ربحها ، حتى انه لا يقبلها في غالب الجباية ويقبل الرسوم المالية .



وفي هذه السنة 1263 (1847 م) استعفى ابو عبد الله محمد باي من السفر بالمحال . وبعث يطلبني من الباي ، لابلغ عنه رسالته ، فأثبته وهو ببستانه في المرسى ، وقال لي : « انما بعث اليك لتحسن عني التبليغ الى سيدنا ، فاني عجزت عن السفر مرتين في

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) في ع و ق : « حابى الدولة » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

كل عام ، لما مسني من التعب البدني والمالي ، لانه يلزمني ما لا يلزم غيري من اعتبار لمقامي ، وغير ذلك من المعاذير الراجعة في الحقيقة لعذر واحد ، وهو قصور يده عن التصرف ، فثبّطته عن هذا العزم بما استطعتُ إلى أن قلت له : « هذا أمر يرجع الى عادة في بيتكم ، فلا أنقلُ عنك شيئاً إلا بحضرة أخيك وتلّوك في الدرجة » ، وهو ملك هذا العصر ابو عبد الله محمد الصادق باي . ومرادى ان يكون عوناً لي على مراجعته ، فأحضره وأعاد مقالته ، فقلت له : « أترضى هذا من أخيك ؟ » فقال لي : « قد راجعته قبل قدومك فأصرّ ، ولا تسعني مخالفته » ، فرجعت الى الباي وبلغت له خبر الاستعفاء ، فقال لي : « لا سبب في ذلك الا قيصّر يَدُ التصرف ، وخواصّه اعتادوا ما كان سابقاً ، والوقت لا يقتضيه من وجوه كثيرة ، والعُمّال والزرّامة عليهم ثقل ، فلا يمكن لهم ، والحالة هذه ، الخلاصُ مع الدولة وارضاء باي المحال وخواصّه » ، ثم قال لي : « هل عارضته بشيء ؟ » فقلت له : « قد عارضته وطلبت حضور أخيه ، وهو على رأي سيادتكم » ، فقال : « الله يهديه » ، ثم قال : « يصعب علي تقديم أخيه وهو تلّوه في السنّ » ، لما فيه من مخالفة عادتنا ، فارجع اليه وقل له : « لو فكّرت في الحال ما طلبت هذا الاستعفاء ، وان استعفيت من السفر فلا يسعك الاستعفاء من اسم باي المحال » ، لانه في المعنى ولاية عهد ، وبه هناء المملكة وصلاح بيتنا . ولهذا نبعت للجريد وباجة من يحصلُ به خلاصُ الجباية وتأمين السبل ، ويخلص عادة باي المحال السابقة ، ويأتي بها اليك ، ومهما تيسّر لك السفر فأنت في خُطّتك » . ولا بلغت له ذلك ، عليم النصيحة ورضي [باسم] (1) الخطة .

وكره الباي [اظهار] (2) تسليم ابن عمّه ، فأولى ابا العباس أحمد زروق ، وهو من مماليك عمّه ، عمّل الجريد ، وصار يخرج اليه بصفة عامل ، ومعه عقد من الخيل في محلة صغيرة لا عسكر بها . وأضاف اليه عمّل الهامة ليستعين بالمزارقة منهم . فأمن الطرقات وكفّ عادية الهامة ، واستمال رجالاً منهم كأحمد بن يوسف وأمثاله ، وشيخ زاويتهم وبركتهم الخير الوجيه أبي عبد الله الحاج محمد كوكبة ، استعان بهم على اهل الفساد ، بالرهبة تارة والرغبة اخرى . وله في ذلك أثر جميل ، وان كان مقروناً بشدة وصرامة الا انها في موضعها .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وبعث لباجة وجبّكها آغة في خيل أيضا ، وأمره ان يستخلص عادة باي المحال<sup>١</sup> ويبحث بها اليه [ (1) ] .

وفي هذه السنة هرب ابو عبد الله محمد [بن حميدة] بن عياد لدار قنصل الانقليز ، لمشاحة مالية وقعت بينه وبين ابنه محمود ، وقد امتزج بالبأي وداخله مداخلة اقتضت غيرة أبيه [وهو غيور على الرئاسة] . وعظم عند البأي هروبه لمكانه من الدولة ، وقد كان بالامس رسوله [ورسول عمه] الى فرنسا ، فكاتبه [وهو بدار القنصل بقلم العبد الفقير] (2) بما نصّه :

« حفظكم الله تعالى ورعاكم ، وحاطكم بحمايته ووقاكم . الموقر المحترم الامجد الارشد الهمام الزكي الاعز ، احد الاعيان ، من اهل الشان ، ابننا محمد بن عياد ، امير لواء ، حرسه الله بعين العناية . اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فانه بلغني عنك ما شوش فكري ، وضاق عن احتماله صدري ، لانك تعلم منزلتك عندي ، وانك من خاصة اهل ودي ، فكيف يليق بك الهروب ، او يمستك وانا موجود شيء من الكروب ، وعلى كل حال فلست لي بمطلوب ، وما كنت اظن ان الغيظ يبلغ بك الى هذا الامر . وما أنا ابعث اليك الاعز المقرب الثقة ابننا محمد المرابط امير لواء ، وانت تعرفه وتعلم قربه مني ومكانته عندي . وعزمت عليك بحياة رأسي ومعرّتي عندك ان تخرج الى دارك ، وترخي على اوطارك ذيل استارك ، وأنت في أمان مني ، ولن ترى إلا ما تعهده من صفاء باطنتي ، وخلوص سريرتي . اما بقاؤك على ما أنت فيه تلحقني منه معرة ، لانك من أكابر خاصّتي وأعظم أحبّتي . فكمن عند ظني ، ولا تتراخ ولا تُمنّ ، واعلم انك لي ومنّي . وفي هذا كفاية ، ودمتم في أمن الله وحفظه . والسلام . وكتب في رجب سنة 1263 (جوان — جويلية 1847 م) .

فأتاه محمد المرابط ، وحاوله على الخروج ، فاعتذر بهنّات عدّها على ابنه فيها خروج عن الطور ، فاغتم البأي لذلك . ومن فسدت بطانته كان كمن غصب بالماء . والسبب في عدم خروجه ان الرجل جنكته التجارب وجال في الآفاق ، لا ينخدع بزخارف ملوك الإطلاق . وبقي في مهربه ، وآلت النازلة الى المخاصمة لدى مجلس

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .



متجري حضره امين التجار والعشرة بيت الباشا ، تحت رئاسة أبي عبد الله محمد باي ،  
بالنيابة عن الباي ، بعد استعفائه من مباشرة السفر . وباشر كل منهما الخصام بنفسه ،  
وكانت حالة تنفرها الطباع ، وتمجّتها الاسماع . وسببها الشح المطاع من الابن ، والهوى  
المتبّع من الأب .

[وحضر في اليوم قنصل الانقليز] ، ونفس الباي في النازلة مع محمود ، وانتصر ابو  
العباس حميدة ابن عبد الرحمان بن عياد لجدّه ، ولحقه الى دار القنصل ، مشاغبا عمّه .  
[وصرف كسبه في ديون جدّه ومرضاته ، برورا به] . وطال هروبه بدار القنصل ، ولم  
يخرج الا في ذي الحجة سنة اربع وستين (نوفمبر 1848 م) . بتجديد أمان من الباي  
[له ولحفيدته] على يد قنصلي الانقليز والفرنسيس بمكاتيب لهما . ونيز الخدمة نافضا يده  
منها ، ولازم كسر بيته الى ان توفي على حالة تشبه زهد الحكماء (1) .

وكثرت الاقاويل من اهل البطالة في النازلة ، فمنهم من يقول انها حيلة [من الاب  
وابنه] للحصول على هذه الحماية ، [اذ لا أمان لثلهما ولسائر الناس من الملك المطلق] (2) ،  
ومنهم من يحققها ، الى غير ذلك من الارجيف .



وفي مدة هروب ابن عياد وحفيدة ، هرب الفقيه الوجيه الخير ابو عبد الله محمد  
العنابي ، قاضي رأس الجبل ، الى دار هذا القنصل ، وعدل عن الهروب الى دار  
الفرنسيس لنسبته الى عنابة . وذلك أن امير لواء عسكر غار الملح ، صالح شيبوب ، أخذ  
ابنيه غصبا للخدمة بصراية غار الملح ، وفداهما بمال فأخذه ولم يسرحهما ، ودهاه ما لا  
قيّل له به ، فأحوجته الضرورة الى هذا الهروب ، فوقف معه (3) القنصل وخرج بأمان له  
وليّنيه ، مكاتب من الباي . وعظمت عنده هذه النازلة الشنعاء في الاسلام وظن ان ابن  
عياد اغراه على ذلك وحسن له الهروب ، فبعثني إلى شيتخا تقي العصور وعالم المصير ، أبي  
إسحاق ابراهيم الرياحي ، لاتكلم معه في شأن النازلة ، وبقاء هذا الرجل في الخطة ،

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) وقف معه : ساعده أعانه (لهجة تونسية) .

بعد ان صدر منه ما ينافيها ، وخاطبته في النازلة إجمالاً ، وهولت له الحال ، وانه يؤدي الى استنقاص الخطة الشرعية في عيون العامة ، الى غير ذلك من الخطابة التي لا تروج على مثله ، رضي الله عنه ، فقال لي : « يا بني تريد ان تخذعني وانا رببتك ؟ انكم تريدون عزل الرجل بطلب مني ، لتعتمدوه في التجريح ، وأنا لا أرى جرؤحتّه بما صدر منه . وإن شئت تجريح ابا بكر الصديق [فدونك وإياه] حيث جعل أهله وماله في حماية مشرك لما هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم . والمسألة مبسطة في الروض الأئف للعلاّمة السهيلي (1) . وحاصل ما نراه وندين الله به ، ان هذا الرجل فعل ما يجب عليه [او يباح له] (2) ، ولا يُجرح المسلم بفعل الواجب . وذلك انه يجوز أو يجب على المسلم ان يدافع عن نفسه وأهله وماله من ظلمته ولو أدى ذلك الى القتل ، وناهيك به . وان مات حال المدافعة عدّ من الشهداء ، وناهيك بالشهادة . وان عزل البايع هذا الرجل فاني لا اقطع المخاطبة معه فيما يتعلق بالفتوى ، لاني لا أثق بغيره في بلدته . والنصيحة ان البايع يتغافل عن هذا الامر ويطوي بساطه . والعامة تنبّهت الى ان الالتجاء ، عند الضرورة ، بغير المسلم لا محذور فيه . وقد كان جهّالهم يرونه كفراً ، والآن علموا الحق وصاروا يوجهون الحرج الى من يلجئ المسلم الى الاحتماء بغير اهل الملة . ولا معارض لهم من الشرع ولا من العقل . وأتنتي أسئلة في ذلك فأفتيت فيها بالجواز (3) . وان شئت فاكتب إلي سؤالاً أجيبك فيه بخطي ، وأوضحها لك بما أدين الله به . ويبعد عندي أنك تجهلها ، لانها في متون الفقه المتداولة بين أيدينا ، الى غير ذلك في هذا المعنى .

ولما بلغت ذلك للبايع عظم عنده ، ورآه ذريعة لخرق سياج السياسة ، [وحاذبا للتنظيمات الخيرية] (4) ، وطوى بساط النازلة ، وعلم موقع نصيحة الشيخ ، وجعلها مناط سياسته ، وتجاوى الاسباب المفضية لذلك بما أمكنه (5) .

(1) بروكلمان ج 1 : 413

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) في ع و ق : « يجوز هذا الاحتماء » .

(4) الزيادة عن ع و ق .

(5) كذا في خ ، وفي ع و ق : « ما استطاع ان يطلب مواء » .

وفي سنة 1264 (1847/48 م.) ، أتى الولي المجذوب الشريف السيد عبد الواحد من بلده مساكن الى المحمدية ، وتيمّن الباى بقدمه ، وزاره مرارا ، واجزل صلته (1) ، وإن كان السيد على درجة من الزهد واحتقار الدنيا لا يرى في الوجود غير الواحد الموجود .



وفي سنة 1265 ، خمس وستين (1848/49 م.) ، توجه عزيز مصر ابو الفضل عباس باشا الى الدولة العلية العثمانية ، ونال من فخامتها جزيل الإكرام والعناية ، وتفضلت عليه السلطنة برتبة الصدارة العظمى ، ومازج رجال الدولة ، ورأى مفاوضاتهم في شأن تونس ، وانتقادهم على الباى في جموده مع العادات السابقة ، وتخوفه من القلوم الى دار السلطنة ، وإن هذا التخوف ربّما يفضي الى ضعف اللحمة الاسلامية .

ولما رجع لمصر ظهر له السعي في ازالة ما بنفس الباى من الافكار ، فكاتبه بما حصّله : « إنني توجهت الى السلطنة العلية ، وحصل لي من الفضل والإحسان ما لا يسعه شكري ، مع ما فعله أبني وأخي مع الدولة ، ولم تعتبر الدولة ذلك ، وصار عندها نسيا منسيا ، ولم يصدر منك ما صدر منا ، [ولم نر سببا لهذه الجفوة] (2) .

والنصح يقتضي ان تترك هذا الفكر . فإن رأيت ان تجعل بيننا موعدا بمرسى معينة كمالطة أو غيرها نجتمع بك فيها ونترافق الى دار السلطنة ، ونرى من جزيل الفضل والاحسان ما تذكّرني به ، وتلتزم بنزر معين من المال في كل سنة وهو أقل من الهدية ، الى غير ذلك من الترغيب .

ووصل هذا المكتوب الى المحمدية ليلا في ظرف مكتوب وكيل تونس بمصر . والوزير [مصطفى خزنه دار] (3) بيستانه لمرض به ، فبعث الي بالمكتوب وأمرني بفضته ، فإن كان به ما يفوت بفوات الوقت اخبرته به في الحين .

ومن الغد ناولته المكتوب واخبرته بمضمونه واردت قراءته ، فقال لي : « لا اسمع منه شيئا حتى تحضر بقية الجماعة » ، فتوقفت ، فقال لي : « ان هذه نازلة تتعلق بعموم

(1) في ع و ق : « واجزل صلة اهله » .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

المملكة ، لا أسمعها وحدي » ، [وكأنه يريد بذلك جلب قلوب وزرائه] (1) . وأمر  
بقدمهم فوراً . ولم يكن معه وقتئذ غير وزير الحرب أبي النخبة مصطفى باش آغة .  
ولما حضر الوزراء قرأت عليهم المکتوب ، واتفق الرأي على جوابه ، وشكر صنيعة على  
الاعتناء والنصيحة .

وأمرني ان أتوجه لوزيره وثقته أبي النخبة مصطفى خزنة دار لتخلفه بمرض ، فأتيته  
ودفعت له المکتوب وأخبرته برأي الجماعة ، فقال : « هو أمر بديهي » .

ومن الغد جاء الوزير ، وأعيد إعمال الرأي ، فوقع الاتفاق على مكاتبتة ، وأمرني  
بذلك ، فكتبت عنه بما نصه :

« المقام الذي طلع في افق الاسلام شهابا ، واستحق الصدارة العظمى إرثا واكتسابا ،  
فكسها من ملابس الفخر جلبابا ، وفتح بفضلته للخير أبوابا ، ويسر بعدله للعرمان  
أسبابا ، مقام الصدر المطاع ، الآتي من الكمال بما لا يُستطاع ، حتى ملأت محاسنه  
البقاع ، وشنت أخباره الاسماع ، عزيز مصر ، وفخر هذا العصر ، اخونا السيد عباس  
باشا مشير مصر القاهرة ، لا زالت بسعاده باهرة ، وبسياسته زاهرة ، وعلى من ناوها ظاهرة .

اما بعد السلام ، المناسب لذلك المقام ، فانه بلغنا كتابكم الذي هو على الصفاء  
والوفاء أوضح عنوان ، وعلى الود والإخاء أقوى برهان ، تنطق بالفضل فصوله ، وتشير الى  
كرم الطباع فروعه وأصوله ، ومجدكم معدن نُضَّارِه ، ومطلع أنواره ، جاريا في ميدان  
النصح إلى أقصى مضماره ، معلنا بأن سعادتكم لما فزتم بمشاهدة الحضرة المجيدة ،  
والعظمة السلطانية ، لا زالت بالعز والنصر حربية ، ناشرة لواء عزها على الملة الاسلامية ،  
وحصل لكم من العناية ما الدولة له أهل ، وأنتم له محل ، ظهر لكم في جهتنا جفوة ، ومعاذ  
الله ان يكون سببها مني ، او يخلج ذلك في ظني ، مع دولة هي عز الاسلام ، وحماه  
الذي لا يرام ، مات سلفنا في خدمتها وفضلها ، وعشنا في وارف ظلها ، آمنين بعدلها ، ولم  
يقع لنا من فضل سلطاننا وإنصافه ، الا ما وقع لاسلافنا من السادة أسلافه . أمين الاسلام  
والوفاء ، مقابلة هذه النعم بالجفاء ؟ بل سعيانا لما يزيد في مرضاته ، والفوز بعلي توجهاته ،  
كما هو الواجب لسلطنته العلية ، وعدالته العُمرية ، وأستغفر الله ان يخطر بالبال مفارقة

(1) الزيادة عن ع و ق .

الجماعة ، او تقصير من الاستطاعة . ومع هذا فلم أر الجوادى في خدمة الدولة كسوة ، ولا لصارمى في طاعتها نبوة ، توجب شيئا من الجفوة . والله يرى ان هذه نيّتي ، وعليها طويّتي ، ما هجس ضلّته بفؤادى ، ولا سرت في طاعتها إلا على (1) سنن آبائى وأجدادى ، شاكرًا منها الايادى ، على تأييد اعتيادى . حتى ان كتابكم الاعز وصلنا على حال شغل باحضار ما نتقرب به إلى بابها ، وعلى جنابها ، من تقديم الهدية ، طبق الاصول الاعتيادية . واذا بلغ للابواب العلية ما أنا برىء منه ، فالله هو المطلع على الحقيقة والكُنْه ، الى عدله الالتجاء ، وفي فضله الرجاء ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وهو الذي يجزى كل نفس بما كسبت . والمحقق من عدل مولانا السلطان ، وركن اهل الإيمان ، اذا جاءه نبأ يتبينه كما هو صريح القرآن . فاعتمادي على عدله وتقواه ، واستنادى لمراقبته لله ، لانه أئده الله من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، ولذلك فوَضَ أمرَ هذه المملكة إليه . وأنا ممن يعلم قوله تعالى : « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » (2) ، وان زخرف الوشاة مقاتلهم ونمّقوا ، فقد خاب من حمل ظلما ، ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما . وسعادتكم ، كتب الله لكم أجر من ساهم وأعان وقوّى ، وشمّر في الصالحات عن الساعد الاقوى ، إذ نبهتنا لهذه الجفوة ، لنبادر لإزالتها بما يقتضي الصفة ، ولكم بذلك يد عندنا تُدَكّر ، وبكل لسان تشكر . واذا كانت القلوب متعاضدة ، والانفاس على المراء متواردة ، يظهر في الغيبة أثرها كما يظهر بالمشاهدة . والله يعرفكم عوارف السعادات جملا وأفذاذا ، كما جعلكم في المهمات ملاذا ، ومن وقّع الخطوب عيادا ، ويجازيكم أحسن ما جازى به من مَحَضّ النصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم . وعلى عزيز جنابكم السلام التام . وكتب أوائل جمادى الثانية سنة 1265 (أواخر أبريل 1849 م) .

ولما بلغه الجواب بعث فاضلا زكيا ثقة ألعيا فصيحًا من علماء حضرته وهو ابو المودة الشيخ خليل الغزلات ، مع أبى عبد الله محمد بدر الدين الصفاقسي ، وكيل تونس بمصر والاسكندرية ، ليتكلما مع الباي مشافهة ، فاجتمعا بالوزير أبى النخبة مصطفى

(1) في خ و ع و ق : « عن سنن » .

(2) مس 103 1/3 .

صاحب الطابع ، وقررا له رسالة عزيز مصر ، وظهر من الشيخ خليل انه يروم الاحتجاج على نصيحة العزيز (1) ، فقال له الوزير : « إني مأذون بسماع مقالتك وتبليغها » .

وبعد ذلك حضرا عند الباي ، وأجابهما بمضمون جوابه مختصرا مجملا .

ولما علما انه لا يريد إبداء أعداره ، طلبا جواب المكتوب (2) ، فأمرني أن أكتب عنه بما نصّه :

« المقام الرفيع شأنه ، الواضح في المعالي برهانه ، المشتمل على المكارم المتعددة عمله ولسانه ، مقام سليل الصدور الاعيان ، وعين الصدور الاركان ، عزيز مصر ، وغرة وجه العصر ، ومن تعز مناقبه عن الحصر ، أخونا السيد عباس باشا لا زال كما يختار ، وآثاره تخلدها أقلام الاقدار .

اما بعد سلام يعبق عرقه ، ويزكو بكم وصفه ، فانه بلغنا كتابكم الكريم المفصح عن الود الصميم ، فتلقيناه بيد الوداد ، الراسخ في الفؤاد ، وتحققنا منه المراد . وحضر رسول جنابكم ووكيلنا بطرفكم المعمور ، التاجر الوجيه الثقة ابننا محمد بدر الدين ، وأدى إلينا رسالته بأوضح بيان ، ومضمونها توجّهنا إلى التشرف بالابواب العلية ، والحضرة السلطانية ، التي تتسابق إلى مرضاتها الاعمال والنية ، لنفوز من فضلها بكل أمنية ، ونجعل لها مقدارا في كل سنة بدل الهدية . فسأني في للتوجه عدم الإمكان ، في هذا الزمان ، مع ان جنابكم وعد بالمرافقة ، والصحبة والموافقة . والانسان أسير الاقدار ، مسلوب الاختيار ، ومن الاعذار ما لا يتحمله الثقرار ، ويجمل فيه الإضمار بدل الإظهار ، والله المطلع على خفيات الاسرار . وأما أداء المقدار في كل سنة بدل الهدية ، طبق أصولنا الاعتيادية ، فعلى هذه العادة مات سلفنا ، والمرجو بفضل الله وكرم السلطنة ان يبقى ذلك في خلفنا ، على ان خزائن الدولة ، غنمها الله ، لا يظهر فيها هذا المقدار ، المحمول من نازح الاقطار ، وخروجنا عن سنن الآل ، يفضي الى اختلال في الاحوال ، ويرى الشاهد ما لا يؤدّى بالمقال . والمحقق من شيم السلطان ومراقبته لله في عبادته ، أن يقوى ما اعتدناه من آبائنا وأجداده . وقد قررنا لرسولكم إجمال ما فصلناه ، وزبدة ما حررناه ، والله يحفظ

(1) اي اثبات وجاعة النصيحة المذكورة .

(2) لعله يريد جوابا ثانيا عن المكتوب الاول .

الجميع من الزلل ، في القول والعمل ، وهو المسؤول ان يقوي بكم الشوكة الاسلامية ، ولا يقطع عنكم ما عودكم من المواهب السنية . وعلى عزيز جنابكم السلام التام من حافظ عهدكم ، وصاحب ودكم » . وكتب ثامن شوال من سنة 1265 (الاثنين 27 اوت 1849 م) .

ولا تحقق عند الباي ان الصدر الاعظم ابا النخبة مصطفى رشيد باشا غير راجع عن رأيه ، ازداد خذره . واختار من ثقائه ابا عبد الله محمد خزنه دار عامله بسوسة ، وبعثه بالهدية للدولة ، وفوض له في الجواب عن هذه المطالب بما يراه من وجوه الامتناع ، وان يسبر بفطنته حال القوم ، وهو ممن يعتمد عليه في ذلك ، فبلغ الهدية ، وقوبل بأحسن قبول ، وخلا به الصدر الاعظم ، وأعاد عليه ما يراه من النصيحة ، فالتزم بتليغها ، وأكد عليه مطلب قدومه لإسلامبول . ثم كتب له جواب مكتوبه وسرّحه .

ولا أتى بالجواب كان فيه ما معناه : « ان هدايا الوزراء قبّلت طبق الامر السلطاني وهدية السلطان صدر التفضل بتوقيفها » ، ففهم الباي من هذا اللفظ انها لم تقبل ، وان مطلب المال في كل سنة لم يترك ، مع ما قرره الرسول من النصيحة ، وأتى بها مرسومة في بطاقة من غير تصحيح ، فساء ذلك وقال : « لم يبق للسياسة مجال ، والله فينا علم غيب نحن صاثرون اليه » ، فقال له وزيره ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « ان طرق السياسة لم تنقطع ، وبقي منها ان تعين الآن شقفا يحمل جوابك عن هذه النصيحة ، وتظهر براءتك مما نسب اليه ، حتى تكون في صورة مظلوم » ، فأمر أبا عبد الله القبطان كشك محمد بالسفر عاجلاً [ويسافر معه الكاتب ابو الحسن علي الدراوازي] (1) ، وأمرني أن اكتب عنه ما نصه (2) :

« الجناب المقصود لبلوغ الآمال ، ونجاح الاعمال ، [المبني اساسه على ذرى الشرف والكمال] ، جناب ركن الدولة وشمس ضحاها ، وقطب رحاها ، صدر صدور الكبراء ، ومركز دائرة الوزراء [ومرجع انظار الامراء] ، المشير الافخم ، والصدر الاعظم ، السيد مصطفى رشيد باشا ، لا زال محطّ الرحال وقبلة الوجوه ، بالغاً من الله ما يؤمله ويرجوه .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كل الزيادات الموجودة في نص هذه الرسالة منقولة عن نص اضافته الشيخ القروي صاحب ق الى نسخته منها الى أن بالنص الاصل خلا ، فكانه عثر على هذا النص الاصل في خزانة الدولة التي كان يديرها ، وسنشير في تعاليفنا الى هذا الملحق بحرعى (م ق) .

اما بعد تقديم [التحية المناسبة لرئيسكم العلية ، وتقرير] ما يجب للسلطنة من فروض الطاعة ، بحسب (1) الاستطاعة ، فان هذا العبد الذي مات في خدمة الدولة سلفه ، وعاش في فضلها خلفه ، وروابطه مع الدولة العلية ثابتة الاساس ، معلومة في الناس ، واضحة وضوح الصبح ، غنية عن الشرح . كما أن ما جُبل عليه سلطان زماننا من كرم الطباع ، وطول الباع ، أمرٌ انعقد عليه الإجماع ، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع ، [فهو الناظم لكلمة الدين بعد انتشارها ، ومقيل عثارها ، والآخذ بثارها ، والمخلد لآثارها]. والامان الذي مهّده لاهل الإيمان ، واضح للعيان ، لا يختلف فيه اثنان ، ولا يخطر بالبال ما ينافيه ، لأنه من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . وطالما تمنى هذا العبد الوفود الى الحضرة العلية ، ومشاهدة الانوار المجيدية ، لو ساعدته الزمن ، وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، وما صدّه — والله — عدمُ الامان لانه [— والحالة هذه —] من المستحيلات العقلية مع انه لم يصدر منه (2) خلل في عمل ولا نية ، [والله المطلع على كل خفية ، لكن الانسان أسير الاقدار ، مسلوب الاختيار ، ومن الاعذار ما لا يتحملة التقرار ، ويجمل فيه الاضرار بدل الاظهار] ، فأعلل النفس بأن التوجه انما هو تعرض لعناية الدولة ، والمقام انما هو لحفظ ما لها في هذا القطر من الصولة ، ونؤثر واجب الخدمة ، على التعرض لمزيد النعمة ، والنصح في خدمة السادات ، مقدم على نفع خاصة الذات . فاقنصرت بالضرورة على السنن المألوف ، والمسلك المعروف ، من تقربني الى [ذلك] الباب العلي بتقديم الهدية ، طبق الاصول الاعتيادية ، في هذا الوجع الذي أشرقت عليه الانوار العثمانية ، وحمته الشوكة الخاقانية ، وان كانت الدولة عن أضعافها غنية ، [وما هو الا لاظهار ما للسلطنة من اليد العلية] ، فما راعني الا ما في مكتوب الوزارة (3) من أنه صدرت المساعدة من حضرة صاحب الخلافة بالتفضل بتوقيفها ، وأن هدايا الوكلاء العظام صارت في حيز القبول بمقتضى الرخصة السلطانية . ففهم العبد من التوقيف عدم القبول ، ومن عدم القبول نقصان الرضى . وفي المكتوب المذكور ما يشير الى ذلك ، مع ما بلغه الرسول من تفسير الإشارة بصريح

(1) في م ق : « بغاية الاستطاعة » .

(2) في م ق : « مع انه لم يصدر من مظهر نيتها خلل » .

(3) في م ق : « مكتوب صدارتكم العظمى ، وجنابكم الاسمى » .



العبارة ، كما ذلك محرر في صحيفة (1) ، فحزن للملك القواد ، وماج في تيار الانكاد ، إذ لم يصدر منا ما يقتضي ذلك ، ولا سلطنا في غير مسالك .

أما كون سلامة تونس وسعادتها متوقفة على تأييد الروابط [القديمة] (2) الى الدولة العلية ، فهو من المعلوم ضرورة وجاحده مُنكير للبديهيّات . وأما التبعد والتوحش الموجب لأنواع المحاذير ، فمحله اذا صدر منا خلاف انطوى عليه ضمير ، أو فعل يقتضي نوعا من التغيير (3) . اما — والحالة هذه — فان العبد لم يجحد حقاً معتادا ، ولا أضمر بشهادة الله عنادا ، ولا وطأ لأسباب الشبهات مهادا . ولم يصدر منه الا المعلوم من سالف الازمان ، وأقره السادة القادة من آل عثمان ، والاصل بقاء ما كان على ما كان . فلا مخاطرة — والحالة هذه — بالنفس ولا بالوطن . اما النفس ، فوجود الامان من ظل الله في أرضه ، والقائم بواجب الاسلام وفرضه ، وعدائته العُمرية ، ونيته الخيرية ، وشفقته على البرية ، بأكثر من هذا الامان حرّية . وأما الوطن فانه في حماية دولته ، محوط بصولته ، يدافع عنه بقوته ، ويكافح من ناواه بشوكته ، ولا منافاة بين الذب عن هذا القطر الاسلامي وحمايته ، وبين التفضل باستمرار عادته .

واستغفر الله ان يخطر بالبال ، والحال الحال ، ما لا أقدر أن أفوه به من توهم الاستقلال ، أعوذ بك اللهم من هذا المقال .

كيف ، ومناير القطر في كل جمعة بتنادي بطاعته ، مع الشكر على تقرير عاداته ، [التي بها صلاح جماعته] ، ولا رواج للبرهم والدينار ، الا باسمه العالي في سائر الاقطار ، وأشرف ألقاب هذا العبد هو ما جعلته له السلطنة العلية ، وأهله لنيله من المراتب السنية ، بمحض فضلها ، وكمال عدلها .

وعدم إمكان الحضور ، لهذا العبد الشكور ، اذا كان سببه صلاح الامور ، والمثابرة على دوام حفظ الجمهور ، لا يتوقع منه المحذور .

(2) في م ق : « .... نقصان الرضى ، وكذلك لهم من مكتوب صدقاتكم العظمى ، ما يشير الى ان في سيرته ما ينال الرضى العالي ، وسبع مشافهة من الرسل الى الباب الجبلي ، ما يفسر تلك الاشارات ، بصريح العبارات ، كما هو محرر في صحيفة يدهم ، فحزن .... »

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) في م و ق : « والتبعد والتوحش الموجب لأنواع المحاذير ، اما هو اذا كان من التابع بفعل او ضمير ، او شبهة تشير الى نوع تغيير ، اما والحالة هذه الخ . »

واختلاف البشر في مدارك العقول معقول ومنقول ، وصدق الخدمة يقتضي التصديق في المقول ، [والله المطلع على خائنة الاعين وما تخفي الصدور] .

هذا ، وطلب الوزارة - شد الله أزرها ، وقرن باليمن نهيا وأمرها - من العبد الفقير ، أن يودع لامانتها ما في الضمير ، يوجب أن أشرح نيّتي ، وما انطوت عليه طويّتي ، فأقول والله شهيد على سرّي وعلائيّتي : « هذا العبد الذي نشأ في طاعة الدولة العلية ، ورفل في حلل مرضاتها الجليلة ، وتغذى بلبانها ، وعاش باحسانها ، واستظلّ بأمانها ، وتشرف بخدمة سلطانها ، من بيت هو عاشر آله في الخدمة ، ومظهر ما للدولة من النعمة ، أعظم أمانيه دوام رضى مولانا السلطان ، وظل أهل الإيمان ، وإن تبقى خدمته على سنن أبيه وحده ، ونيل هذا هو سعادة جده ، وإن هذه الإيالة ، الطائفة على هذه الحالة ، لا يُراع لها سرّ ، ولا يتكدر لها سرّ ، بحماية القوة السلطانية ، والشوكة الخاقانية . [والله يرى أن] بهذا الحال حفظ طاعتها ، وصلاح جماعتها ، وهو السبب في اجتماع الكلمة ، في هذه الامة المسلمة . والله يقول : « وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » . واختلاف عوائد الآفاق ، لا ينافي الطاعة والاتفاق ، ولا يكون ذريعة لافتراق . وتمسك البلدان بعاداتها ، مخلوق مع ذواتها ، [ولا يومهم خلا في طاعتها] .

والمأمول من الحضرة العلية أدام الله نصرها ، [وقرن بصلاح العباد أمرها] ، اذا رأى هذا العبد في مقعد صدق ، وحقق أنه نطق بحق ، أن يترقّ لهذه الفئة القليلة ويرحم ضرّاعتهم ، ويجمع بابقاء عاداته الجميلة جماعتهم . حاشا فضله وإنصافه ، أن يترع حيلة تفضّل بها أسلافه ، بل المأمول من كرمه الزيادة ، وهو المحيي لمآثر أسلافه السادة . [وهذا العبد لم يقصر به العمل ، عن بلوغ هذا الامل] .

هذا ما في الجَنَان ، نطق به اللسان ، بلا شبهة ولا تمويه ، ولا خواطر تُنافيه . فاذا ساعد القَدَرُ بالقبول ، فهو المظنون المأمول ، (اعتمادا على حديث : « انا عند ظن عبدي بي » ، وإن كانت الاخرى فالله مع الصابرين ، وهو سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . والله يعلم أننا ما غيرنا ، ولا أضمرنا غير الذي أظهرنا ، ويوم تُبلى السرائر نُسأل عما حرّرنا .

وهذا المكتوب يشرف بلوغه الى الباب العالي ، المستوجب لكل المعالي ، (مظهر التفاتكم) الثقة الفاضل المؤتمن نخبة أقرانه ، لنباهة شأنه ، ابننا محمد أمير لواء عسكر البحر ، ومعه الكاتب الثقة الخير العفيف الفقيه ابننا علي الدرنأوي . وجناب الوزارة ينق بأن ما يُلْقَى الى الحاملين من المقال ، يصل الى العبد الفقير على أحسن حال . والمرجو أن يعود إلينا بخير ييسط النفس ، ويعيد لها الانس . والله يُدِيم للدولة العلية المجيدية عزا لا يُطَاوَل حدّه ، ونصرا يمضي فيمن عاندها حدّه . والسلام [من الفقير الى ربه تعالى عبده المشير احمد باشا باي] . وكتب في 20 ذي القعدة سنة 1265 (الاحد 7 أكتوبر 1849 م) .

[والسبب في طول هذا المكتوب هو الجواب على ما في الصحيفة من النصيحة بالتصريح او التلويح] (1) .

وكان من جواب الوزير الصدر الاعظم ان المراد بالتوقيف هو القبول على اسلوب آداب الكتابة باللغة التركية ، لان ما يقبله السلطان يوقف في خزانة المسلمين ، ولا يقبل السلطان لنفسه شيئا . واقنع الباي هذا الجواب ، وهو مع هذا الحذر لم يحدث نفسه باستقلال ، ولا سام ربط الاسلام باخلال ، ولا حام حول الخروج من تلك الظلال ، وان امتلأت أسماعه بأقوال الضلال ، المنتجة للاضمحلال .



وفي شوال من هذه السنة 1265 (أوت — سبتمبر 1849 م) وقع من عسة زاووة بباب باردو سوء أدب ، سببه ان الباي كان بالمحمدية ، ووصل منها الى باردو بعد الغروب ، وأمامه أمير آلاي الخيالة ، اسمه خليل من جالية تُرك الجزائر ، في طائفة من الفرسان ، ونحكتفه مثلها على العادة . واصطف عسكر زاووة لسلام الباي في غير موضعهم ، فانتهرهم خليل التركي وضرب بعضهم وعاملهم بعنف وشدة . ورام ستر تعديه بالشكاية الى الباي في الحين بأن أنفادوا من زاووة تجاسروا عليه ، فاغتاز لذلك ، على غلّوه في حماية العسكر النظامي ، وأمر في الحين باحضار المتجاسرين منهم ، فمنعهم لإخوتهم ودخلوا محلّ مبيتهم وتسَلّحوا ، فبعث الباي الى الداي وغيره من ضبّاط الحاضرة ، خشية أن تسمع

(1) الزيادة في ع و ق .

بقية زاوة فيصدر منهم ما لا ينبغي ، وأخرج لهم بلوك (1) من العسكر ، فخرج واحد منهم بسيف في يده مسلول ، فقتل بالرصاص في الحين ، وبقي إخوته جاثمين في محلهم ، فأمر باخراج المدافع لهدم محلهم وهم به ، فتناقل وزير الحرب ابو النخبة مصطفى باش آغة تناقلاً أبقي به على رمق أولئك المساكين ، وأمر هناء الحاضرة وعدم تحييدها في الليل . وأعانه على ذلك ابو محمد خير الدين ، وكان يومئذ أمير آلاي . وأتوا محلهم وأخرجوهم الى السجن مدعين للحكم ، ولم يبق لصراخ المدفع موضع بعد سجنهم . واستعجل الباي في النازلة ، وعظمها على حقارتها ، انقيادا لهواه ، حتى كادت ان تكون فتنة ، لولا لطف الله .

ومن الغد أحضرهم لديه [بديوان المحكمة] من السجن ، وعين ستة من رؤوسهم بحسب ما توسمه فيهم بنظره ، ولم يسمع منهم مقالاً ، وأمر بقتلهم خنفاً ، [وهكذا تقتل المسلمون في الملك المطلق القهري] (2) ، وعاقب الباقي بالضرب والسجن .

وأبطل عسة زاوة من باردو ، ستر لتعصبه وغلطته ، ورفقوا لما خرق بشهوته . وندم بعد ذلك ولات حين ندم ، وقد سبق السيف العدل . وبقي أياها أسيفاً حزينا ، لأنه يكره الجراحة على سفك الدماء ، ولا يستسهله الا في تربية العسكر على القاعدة العسكرية ، لا سيما وقد كان بالحاضرة يومئذ رسول عزيز مصر المتقدم ذكره .

وللنقد في النازلة مجال ، وهي من نتائج قضايا الاستعجال . واذا قسته باستعجال أمثاله من ملوك الإطلاق ، ترى بالفكر والعين معنى أخف الضررين .



وفي السابع عشر من محرم قاتح سنة 1266 ، ست وستين ومائتين وألف (الاحد 16 محرم — 2 ديسمبر 1849 م) ، ظهر في المملكة التونسية مرض وبائي يعبر عنه في ارض الخناز بالريح الاصفر ، وأصله من أمراض الهند ، وغبر عنه في بلادنا بالكتوليرة ، وتلقى هذا الاسم من أطباء الافرنج .

(1) في ع و ق : « طائفة » .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وصورته ، والعياذ بالله ، أن يصيب الإنسان إسهال وقسي " ، فيصفر لونه ويسود ، ويموت في ساعات أو قليل من الايام ، وقل من ينجو ، ولم يتقدم مثله في هذا القطر . وأول ظهوره في جبل الرقبة ، ثم انتقل إلى باجة فدام بها قليلا ، ومات بها الكثير ، فعزم الباي ، بإشارة بعض الاطباء ، على التحفظ من وصوله إلى الحاضرة بمنع الخلطة . فأمر أمير لواء عسكر الخيالة ، ابا العباس أحمد ، أن يرتب عسة من العسكر تمنع القادمين من باجة ونواحيها إلى الحاضرة . وأمر أبا الفلاح صالح بن محمد كاهية ان يتوجه في عقد من الخيل لجهة أخرى (1) . ومن المقلود لا يغني الخلد .

وارتحل الباي إلى بستان وزيره أبي النخبة مصطفى خزنة دار المعروف بقرطاجنة على ساحل بحر حلق الوادي ، يوم الخميس الثامن والعشرين (2) من محرم (13 ديسمبر) ، ومعه خواص أتباعه . واستصحب لعسته عددا من العسكر في اخبية ، أمر عليهم الشريف ابا محمد حسن المقرون [امير لواء] . وأمر صهره وزير الحرب ابا النخبة مصطفى [باش آغة] أن يتوجه [بأهله] إلى بستانه المعروف بالكرم ، على حالة تحفظ ، وهو لصق قرطاجنة ، بحيث يأتي كل يوم للاجتماع بالباي . [والوزير خزنة دار بأهله في مسكن وحده بقرطاجنة] (3)

وأقام متحفظا على عادة الكرنيتية ، واشتد خوفه من المرض ، وضيق بعدم الخلطة في الكرنيتية تضيقا لا يلزم عند الاطباء ، حتى قال بعضهم ان التحفظ بالكرنيتية لم يكن في الملة الاسلامية ، وهي من اختراع الامم الافرنجية ، فنحن أدرى بكيفيتها ، فيعرض عنهم ، حتى وقع الارجاف بأنه سافر من المملكة خفية وأبقى ختمه بيد وزيره أبي النخبة مصطفى خزنة دار ، فصار يخرج بعض الايام أمام القصر ، وربما يصل إلى قرب اخبية العسكر لتراه الناس .

وقلت له يوما : « قد بالغنا في الخوف » ، فقال لي بديهة : « يقبح الخوف اذا كان من قيرن تراه ويراك وتبال منه ويتال منك ، أما من سطوة الله فاذا لم يجمل الخوف فلا يقبح ، ولعل الشجاعة في مثله من سوء الادب مع الله ، ولسنا من رجال التوكّل » ،

(1) كلما في ح ، ولى ع و ق : « ان يتوجه بوجع الكاف الى الجهة الغربية » .

(2) هو 27 حسب التقويم

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ثم قال لي : « لو سبق القضاء والقدر وميت بهذا المرض ، أخشى أن أقول عند حلوله لو فعلتُ الكرنيتية ما حلَّ بي ، مع اعتقادي أن لا فاعل الا الله ، وكان الشيخ محمد يرم ألف رسالة لعمتي في جواز التحفظ من الوباء ، وهذا مثل الوباء » ، فأرختُ له العنان ، إذ لم يكن موضع جدال .

وقال بعض الحاضرين ، وهو ابو النخبة مصطفى خزنه دار : « ان ميت الوباء شهيد » ، وقد جاز التحفظ منه ، وهذا لا نص في ان ميته شهيد . وسأل عن ذلك ، فكتب له العالم التحرير ابو عبد الله محمد الطيب الرياحي بأن ميته شهيد ، لانه مبطون والمبطلون شهيد ، كما هو صريح حديث الموطأ ، في تقرير نفيس . وخالفه الشيخ المفتي ابو عبد الله محمد بن سلامة . وكل منهما مات بهذا المرض ، رحمهما الله .

ولا قرب المولد النبوي من السنة 1266 ، كاتب شيخ العصر إمام الجامع الاعظم ، أبا إسحاق ابراهيم الرياحي ، بالاجتماع يوم المولد على العادة ، ولا يتوقف على قدمه . وأمر بالزيت لمآذن البلاد وغير ذلك مما عوَّده ، ووقع الاجتماع وإطلاق المدافع .

وبعد الانفصال كاتبه الشيخ بما نصه : « سيدنا الذي هو بالمعقبات محفوظ ، وبعين العناية الإلهية ملحوظ ، بعد الدعاء لكم وهو في الحقيقة لنا ، بانسدال الستر وكمال الهنا ، فانا قد امتثلنا أمركم السعيد ، وكان يومنا بركتكم ، وان لم يحضره شخصكم ، يوم عيد . ومن بركات هذا اليوم أن ألهمنا الله قراءة آيتين فيهما تفريج الكرب وتيسير العسير ، وشفاء الحرج الذي في الضمير ، جعلناهما ورّدا بعد الفراغ ، وكررناهما ستا وستين عدد اسم الجلالة تعرضا لإفاضة اللطف العظيم ، من الاسم الجامع لاجل التعميم ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . والسلام على علي ذلك المقام ، والحمد لله رب العالمين . والآيتان هما قوله تعالى : « مَبِّجَعْلُ اللّٰهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » (1) . وقوله تعالى : « فَانْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا اِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » (2) .

وفي أيام مقامه بقرطاجنة ، أتى قنصل من دولة الانبريال ، فخرج وقابله مقابلة كرنيتية ، وأتى بمكاتب من دولته تقتضي عمل شروط ، وأحسن قبوله ووعده ان يكون

(1) من 1/65 و 7 .  
(2) من 1/94 و 5 و 6 .

عمل الشروط بعد زوال المرض والخروج من الكرنيتينة . وعاقه المرض عن إتمامها فعقدتها ابن عمه بعده .

ولم يزل على هذه الحالة من شدة التحفظ والتحذر ، وهو مع ذلك لم يفرط في شيء من سياسة المملكة . وتأتيه المكاتيب من كل ناحية ، ومطالب العسكر ، فيصدر جوابها ، على كثرتها ، من الغد . ولم يكن معه من الكتبة غيري ، وغير الاكتب البارع أبي عبد الله محمد العزيز بوعتّور ، وهو يحرضنا على الاستعجال بأجوبة المكاتيب .

وفي قرطاجنة اتاه نعي أمير لواء الخيالة أبي العباس أحمد ، وهو المأمور بالعسة في الجهة الغربية (1) . فكاتب الآلاي وعزّاهم بأمرهم .

ثم انتقل من قرطاجنة سادس ربيع الثاني (الثلاثاء 19 فيفري 1850 م.) الى المحمدية ، وهو في تحفظ الكرنيتينة ، وفيها أولى أبا محمد خير الدين أمير لواء عسكر الخيالة .

ثم وقع بها المرض فرجع الى باردو ، فوقع به المرض ، فانتقل الى غار الملح وأواخر رجب من السنة (اوائل جوان 1850 م.) ، وصاحبها يومئذ أبو الفلاح صالح بن عثمان شيبوب ، أمير لواء عسكرها المعاوضين . وفيها أتاه نعي الشيخ المفتي أبي عبد الله محمد ابن سلامة ، فوقع بها المرض وكثر في العسكر ، فرجع الى المحمدية في شعبان (جوان - جويلية) واستقر بها ، ثم رجع الى قرطاجنة ثانيا ، ومعه الاكتب البارع ابو عبد الله محمد الباجي المسعودي ، لانه سرحني الى حمّام الانف لمرض أصابني . وقد كان همّ بالتوجه الى جربة ، لولا أعيان من رجال الدولة عارضوا ميله .

وهو وإن اشتد جزعه في هذا المرض إلا أنه فعل مع أهل الحاضرة في أيامه ما لم يزل ذكره حسنا جميلا .

وذلك أن هذا المرض لما أتى الحاضرة نزل أولاً بفقراء اليهود ، واشتد عليهم خطبه ، وفرّ القريب من قريه ، فأحضر لهم قشلة سوق الوزر ، ونقل اليها المرضى ، وأجرى

(1) في ع و ق : « المأمور بالعسة لمنع القادمين من باجة ونواحيها » .

عليهم الجرايات الواسعة ، وتطوع للمداواة الفقراء الطبيب مَصْكُرو الصبنيولي ، وله بذلك يد حسنة في البلاد اقتضت مزيدَ حبه . وجعل بربضي المدينة أطباء ، وصرف في هذه الشدة أموالاً عظيمة ، مع طعام وكسوة للفقراء من أي ملّة [تشهد بذلك صحائف الدفاتر] (1) ويأتيه كل يوم عدد من مات بالخاصرة . ومَن مات من أعيانها في أول الامر الفقيه الماجد ابو عبد الله محمد ابن الامام أبي عبد الله محمد الشريف ، والعالم التحرير ابو عبد الله محمد الطيب ابن عالم الملة أبي اسحاق ابراهيم الرياحي ، فاهتز لموته وتأسف لفقده ، وكانت له صباة في الشيخ والدّه ، فأمرني أن اكتب عنه معزياً وهو في قيد الكرنتينة بما نصه :

« العالم العامل الذي صبره على النوائب جميل ، وشكره على المواهب بمزيد الخير كفيل ، بركة البلد ، والمتحلي بثوب الصبر والجلد ، على مرارة فقد الولد وأي ولد ، محبنا الشيخ سي ابراهيم الرياحي باش مفتي المالكية ، جعله الله ممن قال انا لله وانا اليه راجعون ، اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون .

أما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، ولا راداً لما أراد الله ، فانه ساعنا ما غيركم ، وكدرنا ما حيركم ، بمصابكم ومصاب أهل العلم بولدكم الطيب ، وغمام العلم الصيب ، الذي شكت فقده الدروس ، وألسنة الاقلام وبطون الطروس ، وهذا الخطب لا يغني فيه الدفاع ، ولا ينفع معه الا الاسترجاع ، ومثلكم من يتلقاه بالتسليم ، من قلب سليم ، ومن الذي سالم الايام فسلم من غوائلها ، وتمتع بنائلها ، سهامها مفوقة لكل غرض ، من جوهر وعرض ، والدنيا ليست بدار قرار ، وما عند الله خير للأبرار . أين الامم السابقة ؟ أين أصحاب العزائم الصادقة ؟ كل قديم على ما قدّم ، وجدّ إلى ما أعدّ . جعلنا الله ممن عمل عملاً باقياً ، وأسلف سعياً إلى درجة القبول راقياً ، والصبر أنفع الدخائر ، والله يقول : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ » (2) فقد سهّل مرّ فقده ، كبل خطب من بعده ، وسلّى كل واجد عن وجده . وهذه المصيبة نتسلّى عنها ، بأن عند الله ما هو أعظم منها . والبركة فيك وفي بقية بنيك ، وستبلغ ان شاء الله فيهم أمانيك . وفرطك هذا ترى في بنيه ، أكثر مما رأيته فيه ، وعندك والحمد لله من يقوم في عليّ مقامه

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) من 21/33



وزيادة ، ونقل الخطط إليه أعظم شهادة . فاشكر الله على نعمائه ، واصبر على قضائه ،  
فإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب . ولولا ان الله يقول : « وَذَكَرْ فَكَانَ  
الذِّكْرُ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » (1) ، ما خاطبت بهذا قطب الملة وعلم الدين . والله  
يجعل ذلك خاتمة الفجائع وطلبة التهاني ، ويبلغنا من طول بقائكم غاية الاماني .  
والسلام من مساهمكم في المصاب الفقير الى ربه عبده المشير احمد باشا باي .

وكتب في 28 أشرف الربيع سنة 1266 (الاحد 13 جانفي 1850 م) .

ولا وصل المكتوب للشيخ وهو في [حزن] (2) ماتمه ، أمر الكاتب البار تلميذه  
أبا عبد الله محمد الباجي المسعودي ، وكان حاضرا بين يديه ، ان يكتب جوابه ، فكتب  
عنه ، بعد صدر بليغ ، ما نصه : « سلام كريم ، من قلب كريم ، ورؤوف عظيم ،  
ورؤوف وريحان وجنة نعيم ، فقد ورد الينا كتابكم الفخيم ، المسلي عن النبا العظيم ،  
والخطب الجسيم ، الذي قابلنا فيه قضاء الله بالتسليم ، وقلنا يا نار كوني بردا وسلاما  
على إبراهيم ، فكان كالصبح المنبلج لآثر ليل بهيم ، جبر القلب المصدوع ، وكفكف  
غرب الدموع ، وأعاد بعد الآرق طيب الهجوع ، وآنس بلطيف خطابيه القلب  
المفجوع ، وسلّى عن فقيد لولاه كان الصبر في حيز الممنوع » . وختمه بدعاء ، وأمضاه  
الشيخ بختمه .

وانما لم نقل هذا الجواب بتمامه لان من الشدة في هذه الكرنينة ان المكاتب لما  
تأتي يقع تبخيرها ، ثم يخرج لها الكاتب وهي عند أخبية العسة ، فينتقل منها  
بخطه ما به الحاجة ، وبعد ذلك يحرقها الامير الأمور بالعسة ، ولا تدخل لساحة القصر  
الذي به الباي ، وهو من الزيادة في الغلو (3) .

واشتد حال هذا المرض في شعبان ، ومات بسببه في الحاضرة اكثر من مائتين في  
اليوم ، فأشار العالم الفقيه القاضي الحنفي ابو النخبة الشيخ مصطفى ابن شيخ الاسلام  
ابي عبد الله محمد بن حسين بيرم (4) بجمع أربعين شريفا اسمهم محمد ، يجتمعون في

(1) ص 51/55

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) في غ بعد قوله « في الغلو » بياض بقدر ثلاثة اسطر ، والجملة الاخيرة ساقطة من ع و ق .

(4) كذا في ع و ق ، وفي غ : « ابن الشيخ محمد بيرم » .

جامع الزيتونة من الصباح الى الظهر ، و يقرؤون سورة يسّ اربعين مرة ، ويدعون الله بدعوات حرّرها لهم ، ناقلًا ذلك من بعض الكتب [عن بعض الصالحين ، والاعمال بالنيات] ، فاجتمعوا [بجامع الزيتونة] (1) وقضروا إلى من يجيب المضطر اذا دعاه ، فتراجعت الشدة ونقص عدد الموتى من ذلك اليوم شيئاً بعد شيء ، حتّى اضمحلّ بفضل الله ورحمته .

والاشراف المنتخبون لهذا الدعاء هم : السيد محمد محسن وابنه السيد محمد ، والسيد محمد ابن السيد احمد الشريف ، والسيد محمد ابن السيد محمد ابن الامام السيد محمد ابن السيد عبد الكبير الشريف ، والسيد محمد ابن السيد أحمد وكيل القراء ، والسيد محمد ابن عاشور ، والسيد محمد ابن السيد علي الشريف شيخ طريقة سيدي محمد بن عيسى ، والسيد محمد ابن السيد محمود بن عثمان ، وابنه السيد محمد ، والسيد محمد العربي البشيرى ، والسيد محمد بن عاشور ، والسيد محمد السقاط ، والسيد محمد ادريس ، والسيد محمد بن حسين ، والسيد محمد القلشاني ، وابنه السيد محمد ، والسيد محمد الحجّيج ، والسيد محمد الشمّاع ، والسيد محمد بن عبد الكريم ، والسيد محمد فقيومة ، والسيد محمد بن ابي بكر بن حمّودة ، والسيد محمد العنّابي ، والسيد الحاج محمد القلاّل ، والسيد الحاج محمد الحشايشي ، والسيد محمد الدّوّني ، والسيد محمد النقّاش ، والسيد محمد الغربي ، والسيد محمد النيفر ، والسيد محمد الغربي العطّار ، والسيد محمد المحجوب ، والسيد محمد زقية ، والسيد محمد التومي شيخ الطريقة القادرية ، والسيد محمد ابن الحاج عبد الله ، والسيد محمد سعيد ، والسيد محمد التومي ، والسيد محمد النابلي شيخ طريقة سيدي عبد السلام ، والسيد محمد بن حسن بن عمر ، والسيد الحاج محمد شنيق ، والسيد محمد شيل والسيد (2) ، والسيد محمد عنون ، والسيد محمد الرصّاع (3) .

وكان الوزير ابو النخبة مصطفى خزنه دار يقول : « انتخاب هؤلاء الاشراف شهادة لهم بثبوت النسب الشريف تغنيهم عن الحجة [المكتبة] (4) .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) يباض بقدر كلمتين في خ و ع و ق .

(3) العدد يتجاوز الاربعين ، ولعل ذلك ناتج عن تكرار بعض الاسماء

(4) الزيادة عن ع و ق .

وفي هذه السنة أتى للباي نيشان من دولة سردانيا ، وقبله باحترام ، وتوقف في حمله  
لانه يقرب من [شكل] الصليب ، فأفتاه بعض الراسخين في العلم بالجواز [إذا لم يعتقد  
معتقد أهله] (1) ، وأفنى بالمنع بعض المتورعين .

وبلغ الباي ان الشيخ ابراهيم أصابه شيء من المرض (2) فكتبه سائلا عن حاله ،  
فاجابه بما نصه :

« الحمد لله الذي شرفنا بسؤال سيدنا المشير عنا ، ولولا كرم طبعه وشماخة مجده  
لا نكون لذلك أهلاً وما كنا ، اللهم شرفه بالزيادة ، في مدارج السعادة . وبعد  
فالذي أعرف عليّ مقامكم به من أحوالنا على ثلاثة أقسام على طريق الاختصار ، اذ  
التفصيل لا يحتمله الليل والنهار . القسم الاول حالنا مع خصوص سيادتكم ، وما لها في  
السويداء من عظيم ودادتكم ، وهي الشفقة التي للوالد على ولده ، واللحمة التي بين  
القلب وكبدته . والقسم الثاني ، حالنا مع سائر الناس ، وهي الصبر على أذى اللئيم ،  
والشكر الجميل للولي الحميم . والقسم الثالث ، حالنا مع الله عز وجل ، وهو الصبر على  
البلاء ، والرضى — ان شاء الله — بالقضاء ، فلا أحزن على ما فات ، ولا أفرح بما هو  
آت ، واذا قلت : متى نصر الله لسيدنا المشير ، يقول كتاب الله : ألا ان نصر الله  
قريب . هذا جواب ما ظهر لي من ظاهر المكتوب ، وما وراء ذلك من شأن علام الغيوب .  
والسلام التام ، الفائح منه مسك الختام ، لحضرتكم التي بها عز الاسلام ، من ابراهيم  
الرياحي » .

أوائل رمضان ، عام 1266 (اواسط جويلية 1850 م) .

وكتبه أيضا في الشهر ، سائلا عن حاله ، فأجاب بما نصّه :

« سيدنا ومولانا ، ومن بنعمته وإحسانه تولاّنا ، أبقي الله للعالمين شمسك ، ولا عدم  
البرية أنسك . أما بعد فقد بلغنا الكتاب المبرور ، المهدى إلي الحظ الموفور ، من لطائف  
السرور ، بشدة اعتناء سيدنا ، ومسرته — حفظه الله — بعافيتنا ، فأأسني بلذيل خطابه  
المحبوب ، الانس الذي وجدته بالقميص يعقوب . ونحن الآن ، بحمد الله ، في عافية وافية

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) في ع و ق : « تشويش باله » عوض « شيء من المرض » ..

وفضل أسنى ، فليزدد سيدنا مسرةً وهناء . لا زال فضله مشهورا ، وسعيه مشكورا ،  
وجميل مآثره في كل كتاب مسطورا . والسلام من معظم قدركم ، الشاكر . فضلكم ،  
ابراهيم بن عبد القادر الرياحي ، لطف الله به ، آمين . في 12 رمضان سنة 1266  
(الاثنين 22 جويلية) .

وأصيب الشيخ بهذا المرض أواسط الشهر ، وتوفي أواخره ، وحزن  
الباي والمصر لفقده . وبعث لاختص تلاميذه المرموق عنده بعين الإجلال ، وهو العلامة  
الفاضل أبو العباس احمد بن حسين القمّار ، وكان قاضيا بالكاف فأولاه رئاسة الفتوى  
بالحاضرة ، ودروس جامع صاحب الطابع ومدرسته ، فامتنع وأصرّ ، وألزمه القبول . وقدّم  
لإمامة الجامع الاعظم الشيخ الفقيه الإمام الشريف ابا الثناء محمود محسن .

ولم يزل بالمحمدية في الكرنتينة ، وكاتب أهل الحاضرة باعقائهم من القدوم له  
يوم العيد للتهنئة .



وفي هذه السنة سافر محمود بن عياد الى فرانسة ، واصحبه الباي بمكاتيب في  
الوصاية به ، وأوامر في سراح زيت من المملكة ليبيعهما على إسقاط شيء من دراهم السراح ،  
ويتعجل الثمن لشراء القمح والشعير ، لان المملكة توالى عليها عسر الجذب وعسف  
العمّال ، وزعم انه فعل ورجع .



ولما ارتفع المرض ، وقد أثر في عدد اهل المملكة نقصانا واضحا ، لا سيما عسكر  
الخيالة ، أمر الباي أمير لواء الخيالة أبا محمد خير الدين بجمع عسكر عوض من مات ،  
يأتي بهم من كيسرى وبرقو وما والاها .

وعارضه في ذلك وزراؤه بأن الناس لم تزل في دهشة المصيبة العامة ، ويؤدي ذلك  
الى النقص في العمران ، مع عدم الاضطراب الى العسكر والحالة هذه ، فأعرض عن مقالهم  
ورسم لخير الدين عددا لا يأتي بأقل منه ، فتوجه وأتى بالعدد المأمور به ، وقال له :

« يا سيدي إنني تركت تلك الجهة فارغة » ، فقال له : « حسبك تنفيذ ما أمرتك به ، وما وراء ذلك أنا أعلم به » . ووقع في تلك الجهة نقصان بقي أثره ، وعُدَّت من شهواته واستعجاله .



وفي محرم من سنة 1267 ، سبيع وستين (نوفمبر - ديسمبر 1850 م) ، وجَّه الباي نيشان آلِه لملك سردانية ، ونواشن لوزراء وأعيان من دولته ، مع احد المقرين لديه وهو صالح بن عثمان شبيب امير لواء . وكان الوزير جوزاب راف وقتئذ رسولا عند الدولة المذكورة ، فكاتبه ليقدم الرسول وما معه للدولة . وقبلت الدولة النواشن أحسن قبول ، ورجع الرسول بنواشن من تلك الدولة لأعيان من رجال دولة الباي .



وفي ربيع الاول من السنة 1267 (جانفي 1851 م) ، رتب الباي قانونا على الزيتون والمراجع بصفافس وقراها ، يؤديه المالك أخصب ام أجذب ، وكتب لهم منشورا بذلك مثل ما تقدم . وهذا القانون ، على ثقله ومخالفته لصريح الشريعة الاسلامية وحالة البلاد ، هو أحد الشرئين (1) بالنسبة لحالة الملتزمين ، لأنها أفنت الامل وقطعت العمل ، اذ الملتزم لا يسعى الا في نفعه ، وليس وراءه متعقب ولا وازع ، هو الخصم والحكم .



وفي ليلة المولد من هذه السنة بات الباي بالحاضرة ودار بها ليلا على عادته ، [مختلطا] (2) مع عامة الناس . وحضر موكب المولد بالجامع الاعظم ، وقرأ التأليف الشيخ الإمام الشريف ابو الثناء محمود محسن ، وكان يوما مشهودا . وقد كر مصاب المملكة بعالمها الشيخ ابراهيم الرياحي ، قدس سيره .

وفي الخامس والعشرين من رجب السنة 1267 (الاثنين 26 ماي 1851 م) ، قدّم لخطبة القضاء [بالمذهب المالكي] ذكي العصر ونحريير المصر ، الشريف ابا عبد الله محمد الطاهر بن عاشور ، [وقد كان استشار فيه شيخ الاسلام ابا عبد الله محمد ييصر ،

(1) في ع : « خير الشرئين » وفي ق : « خير » .

(2) الزيادة عن ع و ق .

فعابه بسن الشباب ، وفي علماء الحاضرة مشيخة . فقال له : « هو في العلم متقدم أو متأخر ؟ » ، فاعترف بتقديمه ، فقال له : « اذاً لا يضرُ صغرُ السن » [ (1) ] .

وابتهج بولايته لانه من ثمرات عنايته بالعلم . وقال : « ان هذا القاضي من علماء عصري » .

وقدّم لخطبة الفتوى العالم العامل الشريف العفيف ابا عبد الله محمد النيفر .

وفي اواخر شعبان السنة 1267 (اواخر جوان 1851 م.) قال لي الباى : « ان سمرنا في رمضان يكون ابتداءه بقراءة « الشفاء » بحيث نختمه ليلة خمس وعشرين منه ، ونبيت بتونس ليلة سبع وعشرين على عادتنا » ، فابتدأنا قراءته أول ليلة من رمضان في المحمدية . أقرأ بحضرته نبذة صالحة منه ، ويقابل معي وزيره [وابنُ تربيته] (2) ابو النخبة مصطفى خزنه دار بنسخة صحيحة ، ومعنا شرح الشهاب للمراجعة . ويسأل اذا توقف في فهم شيء ، بحيث لم تكن قراءة تعبداً بالالفاظ . ورأيت منه ذكاء يطير شره ، وتنبلج غرره . وكان يقرع سنّ الندم على إضاعة شبابه ، في غير العلم واسبابه ، ويستعمل وقت القراءة غاية الادب الواجب لسماع الاحاديث النبوية . وحضر معنا ليلة شيخ الاسلام ابو عبد الله محمد بيرم ، وهو الذي قرأ تلك الليلة ، وشاهد من سؤاله ومشاركته وألمعيته ما أعجب به .

ولما ختمنا الكتاب قال : « هكذا ، ان شاء الله ، في كل رمضان » . ووفى بنبذره ، فلم يزل يقرأ « الشفاء » في كل رمضان ويختمه ، إلى أن لحق بربه .



وفي ثامن شوال من السنة 1267 (الاربعاء 6 اوت 1851 م.) ، أتاه وزير البحر أبو الثناء محمود كاهية ، وهو في بيت البحر [من حلق الوادي] ، وقال له : « ان قبطان الفرقاطة « الحسينية » أتى شاكياً من بحريتها بأنهم قاموا وتجاوزوا على ضباطهم [ونجا هو بنفسه هارباً] » ، فغضب لذلك وأمر باحضارهم ، فأثوه بثمانية أنفار من اهل جزيرة

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

قرقنة . ولما أحضرهم لديه اعترف بعضهم بأن ذلك كان على وجه اللعب وأنكر البعض ، فأمر بقتل الثمانية في اليوم وهو في بيت البحر . وقُتِلُوا في الحين [هدفا بحب الرصاص] على شاطئ البحر . وبقي هذا القبطان متخوفا من البحرية زمنا . وهذا القبطان اسمه محمد من جالية تُرك الجزائر بعد أخذها ، وفي طبعه شدة لانه فاجأ الوزير بقوله ان بحرية الفرقاطة قَامُوا (1) ، فبلغ الوزير المقالة كما سمعها من غير تثبيت ولا تدبر ، مع ما يَعْلَم من شدة الباي في تربية العسكر ، [واستعجاله في ذلك] . وندم بعد ذلك [على استعجاله] ، لو ينفع الندم . [والعجول مخطيء وان ملك ، والمتأنى مصيب وإن هلك] (2).



وفي رجب من سنة 1268 ، ثمان وستين (أفريل — ماي 1852 م) ، قَدِم للباي أمير لواء من الدولة العلية العثمانية بنيشان افتخار ، فعظم الباي مَقْدَمَه ، واهتزَّ لقبول النيشان ، وجمع خاصَّته ورجال دولته وأهل المجلس الشرعي يوم قبوله بالمحمدية ، وختم المجلس (3) بدعاء من شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بيرم نصَّه : « سبحانك يا من لا تتوجه الاطماع الا إليه ، ولا تنتظم الامور في سلك الاستقامة الا بالاعتماد عليه ، نسألك ان توجه من خزائن فضلك صلاة وسلاما الى رسولك محمد الذي ألبسته من الكرامة تاجا ، وأدرت على متبعيه العامة سراجا وهاجا ، ونسألك الرضى عن زواهر نجوم أصحابه ، ومن تعلَّق بعكسي جنابه ، من آل الكرام واوليائه وأحبابه . اللهم أيد دينه القويم ببقاء خليفته خاقان الخواقين ، ومن جعلت بيده مقاليد سياسة الدنيا والدين ، وأعطيته من التشريف بخدمة حرمك رايةً تلقاها باليمين ، مولانا السلطان أمير المؤمنين . اللهم اجعل مساعيه فيما يُرضيك ناجحة ، وجواري عزماته في بحار الاسعاد سابحة ، وانصر جيوشه على من ناوأه حيث توجهت غادية أو رائحة ، وامدد اللهم ملكنا أسد هذه البقعة ، وشاه هاته الرقعة ، بمدد نصرك واسعادك ، وأعنه على القيام بمصالح عبادك وبلادك ، واجعل طائر صيته على فتن العلياء صادحا ، وبندَر همته في أفق المعالي لائحا ، وعِصم جميع أقطار المسلمين بالعافية ، وأمطر عليهم سحائب نعمك الكافية ، وفيشثهم ظلال كرمك

(1) قاسموا : شاروا .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) في ع و ق : « وختم الموكب »

الضافية ، واجمع كلمتهم على إعلاء الدين ، ولا تُرنا فيهم سيفين مختلفين (1) يا رب العالمين . ونضرع إليك ان لا تجعل نفوسنا الى ما لا يرضيك جانحة ، وتقبل دعاءنا بحرمة أسرار الفاتحة » .

وبعد ذلك رجع الرسول الى منزله ، وحصل له غاية الاكرام والتعظيم ، وسافر .



وفي السابع والعشرين من شعبان السنة 1268 (الاربعاء 16 جوان 1852 م) ، سافر محمود بن عياد لفرانسا في فابور الباي ، واطلقت لسفره المدافع ، واصحبه الباي مكاتيب الوصاية به ، [وأوامر في تسريح زيت من المملكة] . وأظهر أن سفره لتبديل الهواء ، ومداواة مرض به ، وترك ابنه ابا الريع سليمان قائما مقامه [في خطه] (2) . وكان من أمره ما يأتي بيانه .



وفي يوم الاربعاء الثالث عشر من شوال (3) السنة 1268 (السبت 31 جويلية 1852م) ، قبل الزوال ، أصيب هذا الباي بفالج في شقه ، وكنا بين يديه ، فحملناه الى بيت منامه . وكان معه الحكيم « كوادريني » الروماني ، فأمر بحك بدنه بالخرذل وخيرق الصوف ، وبعث وزيره مصطفى خزنة دار الى طبيبيه الحكيمين المشهورين ابراهيم لمبروزو وكستل نوفو ، فحضرا من حلق الوادي ، وفصداه لما حان وقت الفصد ، وقاما بعلاجه قياما يشهد به كل واحد من خاصته ، حتى انهما لا ينامان إلا بالتناوب . وبعد أيام أشارا عليه بالنقلة من المحل الذي مرض به ، فانتقل من محل النحس الى حلق الوادي . ولم يزالا في علاجه ، وتعديل مزاجه ، إلى أن وقف وصار يبدل الخطي ، متوكثا على رجل ثالثة هي أبو عبد الله محمد المرباط أمير لواء ، ويكره رجله المصابة . واهتزت البلاد سرورا بوقوفه .

وفي عيد الاضحى شهد أضحيته [بحلق الوادي] ، وأمر باطلاق المدافع لتضحّي الناس .

(1) في ع و ق : « متخالفين » .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) الثالث عشر من شوال هو السبت حسب التقويم



وأناه أهل المجلس الشرعي وإمام الجامع الاعظم [ومعه بعض الايمة] ولاقوه بمحل سكناه من حلق الوادي ، وقام لدخولهم متوكئا . و[من الغد] أتته جموع الحاضرة فوقفوا أمام الصرايا ، ونزل اليهم لابسا جبّة صوفٍ خلقة وبلغة [في رجلية] كان يلبسهما الولي المجذوب السيد عمر عبادة بالقيروان ، [للتبرك بلباسه] ، وللباي اعتقاد فيه . ودار عليهم متوكئا يكرّ (1) رجله المصابة وهو يقول : « مرجبا بأهل بلادي ، وهذا حالي كما ترون ، والرجاء في الله أن أعيش لخدمتكم » ، فذرفت دموع [بعض] (2) القوم ، ودعوا له ، وقرؤوا الفاتحة ، ورجعوا محزونين .

ولما استقر بحلق الوادي ، حرّكه جاذبه الى المحمدية ، فنهاه الاطباء عن ذلك ، فأمر ببناء قصر على ربوة قريب منها ، وسماه الصالحية نسبة الى وليّ قبره بالمحمدية اسمه سيدي صالح . [وجعل به بستانا جلب أشجاره من البساتين وجلب لسقيها الماء على الإبل من الآبار القريبة اذ لم يكن على ماء] . وصرف عليه ما ينشئ بلادا يتنفع بها (3) . وتمّ في أقرب وقت على أعجب ما يرى ، [كما خرب في أقرب وقت] وسكنه أياما قليلة . ثم أمر ببناء قصر بحلق الوادي ، في موضع برج الخريطة قرب باب رادس ، وبنى مسجدا بقربه اذ لم يكن بحلق الوادي مسجد . [وتمّ هذا القصر على احسن حال ، وهو الآن محلّ سكنى ملك العصر] (4) ، وصرف عليه أموالا لها بال ، حتى قال بعض الناس : « إن الباي أراد ان يبقى المملكة لمن بعده فارغة من المال والعمران » . لكن من ينظر بعين الإنصاف يقول : « هو وإن تركها فارغة من المال وأسبابه ، إلا ان الله جماها من تركها مثقلة بهم الدّين ومذلته » .

وتمّ هذا القصر ايضا في أسرع وقت ، وسكنه أياما . وبقي مدة مرضه يتردد بين قصر الصالحية بالمحمدية ، ودار وزيره أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع بحمام الانف ، وقصره الجديد بحلق الوادي .

(1) يكر : يجسر (عامية تونسية) . (2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) في ع و ق : « وصرف على ذلك من الاموال ما يصلح سائر الخراب بالخاصرة » .

(4) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وفي مدة مرضه أتاح رسول من السلطنة العلية ، أميرُ لواء ، في فابور مخصص لعيادته .  
وقبله بحلق الوادي ، وسُرَّ بقدومه ، وعظم عنده موقع هذه العناية . ولما سافر أصبحه مكتوباً  
بالشكر والثناء ، على هذا الاعتناء .

وأتاح أيضاً رسول مخصص من سلطان الفرنسيين بقصد العيادة ، فعظم مَقْدَمَهُ  
وشكر سلطانه .



وفي منتصف ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ذي القعدة 1268 (الاثنين 13 سبتمبر  
1852 م) ، سَرَّت النار على حين غفلة إلى ان وصلت خزانة البارود بالبرج الكبير  
المعروف ببرج زوارة (1) بالجبل الاخضر قرب الحاضرة ، فطارت الخزانة وانهدم [جانب من]  
البرج . وكان ذلك اثر مرض الباي ، فارتاع وهو بحلق الوادي [واهتزت الحاضرة] (2) ،  
وتشامم .



وفي يوم المولد النبوي من سنة 1269 ، تسع وستين (الجمعة 24 ديسمبر 1852 م) ،  
أمرني بقراءة تأليف المولد الشريف بين يديه ، لعجزه عن السعي الى الجامع ، فقرأته  
بمحضر رجال دولته بحلق الوادي . ومن الاتفاق ان صادف وقت الوقوف عند ذكر  
الايات ، وقوف الجماعة بالجامع الاعظم ، أنبأ بذلك صوت المدفع من القسبة . وهكذا  
في كل مولد ، مدة مرضه ، إلى أن سار لشفاعة صاحب المولد .



وفي يوم الاحد التاسع عشر (3) من الشهر (2 جانفي 1853 م) ، أمر بجذب الجفن  
الجديد ، الذي أمر بانشائه في حلق الوادي ، وعام في البحر سريعاً . وكان ذلك في يوم  
مشهود حضره الباي ، على مرضه ، ومعه رجال دولته . وسُرَّ بسرعة جلبه ، وسمّاه في ذلك  
الوقت « شفاء أحمد » .

(1) في ع و ق : « برج زوارة » . (2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق  
(3) ص 21 حسب التقويم

وكان ابتداء العمل فيه يومَ الاحد التاسع عشر (1) من ربيع الانور سنة سبع وخمسين ومائتين وألف (9 ماي 1841 م). وإن لم يحصل الانتفاع به ، مع ما صرف عليه من الاموال الدريعة ، لانه رسم لصانعه مقدار طوله ، فقال له الصانع ، برتميل الفرنسي : « ان هذا الطول لا يخرج من الجاية الى البوغاز ، وان ماء البوغاز لا يرفع مثله » ، فقال له : « نوسّع البوغاز ونغرّقه (2) » . وكان ذلك معنى المثل المشهور في العامة وهو إحضار الحصيرة قبل بناء الجامع .

وكان الوافدون من أهل أوروبا اذا رأوا هذا الشقف ، وبوغاز حلق الوادي ، يعجبون ويضحكون . وهو الآن في الجاية كالجيزة من خشب .

وصدر الامر من المتولي بعده بتكسيه والانتفاع بخشبه ، لانه يلي من الماء السراكد .



وفي يوم الاحد الثامن والعشرين (3) من ربيع الثاني من السنة 1269 (6 فيفري 1853 م) ، وجه الباي من اعيان رجال دولته امير اللواء أبا محمد رشيد [امير عسكر الساحل] (4) الى سلطان الفرنسي في غرض سياسي ، وأشرك معه في الرسالة محمود بن عياد ، وهو يومئذ يباريس . ورجع الرسول في شعبان (ماي - جوان 1853 م) ، وبقي ابن عياد يباريس .



وفي السنة (1852/53 م) بلغ نعي والدته السلطان عبد المجيد خان ، فعين الباي فابورا بعث فيه ابا عبد الله محمد علي آغة في غرض التعزية ، فبلغ مکتوب التعزية ورجع . وفي هذا المکتوب أمرني بتبديل الاسلوب في الخطاب للحضرة السلطانية ، بمحضر وزيره أبني النخبة مصطفى خزنه دار ، وقال لي : « أيها الشيخ أنت لساني الذي أتكلم

(1) هو 17 حسب التقويم

(2) التفريق : التميمي (عامية تونسية)

(3) هو 26 حسب التقويم

(4) الزيادة عن ع و ق .

به خارج الحاضرة ، وإن تخوفنا ونُفِرْنَا من الدولة العثمانية أراه يجرُّ بنا الى العدم ، ومعاذ الله أن اكون سببا في إخراج هذا الصقع الاسلامي من يد المسلمين ، وخروج روحي أهون علي من ذلك . وهب ان الدولة انتزعت من يدي هذا الملك ، أَلست بمسلم ؟ ، الى غير ذلك في هذا المعنى . ثم استرجع وفاضت دموعه ، ساعه الله ورحمه .



وفي شعبان من السنة 1269 ، توقفت دار المال في صرف الرسوم المالية ، لعدم وجود المال الناضٍ بها ، الموكل لامانة محمود بن عياد بمقتضى خطه . وبيان السبب في ذلك يستدعي مقدّمة ، هي ان هذا الباي مطلق التصرف بمشيئته ، وفي طبعه شغف بكثرة عدد العسكر النظامي ، لسياسة انفردها ، [لا سيما بعد التنظيمات الخيرية ، لانه ظن ان الدولة العثمانية تغصبه على ذلك ولو بحرب ، لانه من باب تغيير المنكر بالفعل ، وهو من الواجب على القادر ، في شرع الإسلام ، بل ربما كان أفضل من الجهاد ، لان دَرءَ المفاسد مقدّم على جلب المصالح ، فثمرة الجهاد تكثير سواد المسلمين ، وثمره التنظيمات إصلاح ما فسد من أمرهم المؤدّي الى ضعفهم وضمحلّهم . وللرجل مشاركة ، وفكر يعلم به ذلك] ، فجمع من العسكر عددا مستكثرا لا تحتمله قوى البلاد الطبيعية ، فكثّر المصروف على العسكر ولوازمه ، وقلّ دخل المملكة بنقص عملهم منها . وقد كانوا يعمرون الارض بشيء من الزراعة والصناعة ، كل على حسب قبوله واستعداده ، فصاروا حلفاء السلاح ، والتأهب لما تَدْرُوه الرياح ، من نخيل الاستعداد للكفاح ، [وهو على يقين لا يقدر على الدفاع ساعة اذا غصبت الدولة على هذا الوجه في الدين ، وهو التنظيمات . لكن نفس الحريص لا تتصور الخيبة] (1) .

ولما ضاق حال المملكة ، أُنِفَ من تسريع الزائد على القدر المحتاج اليه ضرورة .

وذلك هو السبب في مظالم الجبلد والدخان والمحصولات ، وامتداد أيدي التّزامة والعُمّال امتدادا لم يعهد مثله في قطر من الاقطار ، وهو السبب في نقص عمران البلاد ، حتى ان الباي اذا جلس في المحكمة كاد أن لا يسمع الا شكايات المتظلمين من

(1) ما بين القوسين في الفترة ساقط من ن ، مثبت في ع و ق .

اللزامة [والعمّال] . (1) ولا جواب للمتظلم الا قوله : « اخلص » مع اللزامة ، من غير سؤال ولا استكشاف .

ولا علم ابن عياد الحال ، وكان من رجال الدولة [المقرين زلفى] (2) ، التزم سرا من البايع قبول القمح والشعير بالرابطة ، على ان يدفع عددا معينا من المال في كل سنة ، ويدفع العشرة باثني عشر من الحبوب ، وما زاد على ذلك من التطفيف في القبض والصرف (3) يكون له . وسمي وكيلاً لان الوكيل في الغالب أمين يدفع ما قبض ، فيقع الاحكام عن مشاخصته لانها باعتبار الظاهر مشاخصّة للدولة .

وصار بمقتضى هذا الامر السري المكتتب بخطه فيما أظن ، يقبل العشرة بنحو العشرين ، ويدفع العشرة بنحو الستة . وحسبه دفع مال اللزامة السرية ، ولا نسبة بينه وبين ما يربحه .

[وغير التونسي ربما يستبعد هذا الخبر أو يُحيله ، ومعيار الكيل واحد وقد اخل الاجرام مستحيل . أما التونسي الذي يرى ذلك عينا ، ربما يقول ان العشرة يقبلها بأكثر من عشرين ، وذلك ان الحبوب تكون موضوعة على الارض متراكمة ، فيأتيها الكيال ويملا الوية ، ثم يديرها على الحبوب فتلصق كل حبة بأختها ، ثم يجعل عليها الشاشية وهو ما تراكم من الحبوب خارج الكيلة ، ثم الحملة والذراع وهو ما يحمله صاحب الوية وما يكون بين صدره والوية . ثم يأتي القفّاف بقفّة تحمل ويبتين ويغرف بها من الحبوب المتراكمة ما يستطيع ، ويقبل بها المكيل بحملته وذراعه فتتملى القفّة .

ولا بلغ خبر ذلك للبايع استبعده ، وأتى بنصف قفيز من القمح وأمر بكيله على هذه الكيفية بمحضره في بيت البحر بحلق الوادي . ولا كال وية استحيا ودخل البيت ، وأمر الامير ابا محمد خير الدين ان يحضر لكيل البايع ، فكان النصف ربعا . وقال الكيال لخير الدين : « لو كانت العرمة كثيرة القمح والقفافة مهرة ، يصير النصف بأقل من الربع » .

(1) الريادة من ع و ق .

(2) الريادة من ع و ق .

(3) ل ع و ق : « من القبض والدفع » .

ثم ان الفلاحة من المسلمين يرون أنهم تُجَار الله في أرضه ، والعشر زكاة وهي أخت الصلاة حق لله تعالى ، ربما تسمح نفوسهم بما يمكن احتماله ، ويرون البركة تَخْلُفُه ، الى غير ذلك من مكارم أخلاق المسلمين . فترى المسلم ينظر الايدي جائلة في ماله بالتبديد ، وقلبه يتقطع ، لان الشَّحَّ بالمال جِبِلَّة . ولذلك تجد اكثرهم يدفع عشره بالْحَزْر ، فيأتي بالقفيز ويقبله الوكيل بنصف ، ليستريح . فاذا لم يرض بالنصف وطلب الكيل ، يكون أقل من النصف . لان ما يبقى على الارض ، ويسمى القاعة ، للوكيل والكيال [1] .

وازداد بذلك نقصان الفلاحة حتى كادت ان تنقطع ، وبقيت الهناشر مرعى السوائم ومبيت الوحوش ، وتفاقم الامر ، وعيل الصبر ، وضعفت الطاقة ، وظهرت الفاقة . وصارت أزمّة الاعشار تأتي من البلدان ، واكثر الهناشر مكتوب اسمه مقرونا بلفظ « ايض » ، كناية عن عدم البذر .

وكنت أقرأ على الباي مجموع كل زمام ليجعل عليه ختمه ، حتى قال لي الامير ابو محمد خير الدين : « ما معنى ايض ؟ » ، وهو يعلمه ويعلم سببه ، فقلت له : « معناه لا بذر فيه » ، فقال لي : « لِمَ لم تجمعه حتى يعلم سيّدنا مقدار ما نقص من عمران بلاده ؟ » ، فقلت له : « أشرتُ الى ذلك ولم يُسْتَحْسَن مِنِّي » . وتذكر الناس بهذا الحالد حديث خرافة ، وهو ان الفلاح في آخر الزمان يمر بالمحراث فيضربه برجله ويقول له : « يا سبب فقري » .

والتزم [ابن عياد] (2) مع ذلك القيام بما يلزم العسكر من الكسوة وجميع ما تشتريه الدولة ، على مال معين يدفعه ، فدبّر في إحداث الرسوم المالية بما يروج في السمع ، لضيق الحال . ووقع بها شيء من التسهيل وإدارة المتاجر .

وما زال مصروف العسكر ينمو باعتباره في نفسه واعتبار ما يربحه ابن عياد في بيعه للدولة ، [وازمّة حسابه تشهد بذلك ، فانه لا يرضى في الربح بمثل رأس المال] ، مع ما في طبع هذا الباي من الكرم الخائمي ، [« والجلود يُفْقِرُ والإقدام قَتَال »] خصوصا

(1) ما بين القوسين ساقط من خ ، مثبت في ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

مع خاصته وكبراء العسكر الذين استكثر منهم كثرة فادحة ، فوق ما يلزم عدد العسكر [والزيادة في الحد نقصان من المحدود] (1) .

وتخوَّف ابن عياد من هذا الحال ، لسوء سبيله ، وإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ، فأودع لشيخ الدولة ومقدِّم الوزراء ابي النخبة مصطفى صاحب الطابع بأن الدخل قلَّ والخرج كثير ، ويلزمنا في كل عام شراء جانب وافر من القمح والشعير من خارج المملكة ، بأوامر في سراح زيت تدفع لمن يريد إخراجه ، بأقلَّ من المال المعين بها ، لانه يدفعه عاجلاً ، ويتنظر حضور الزيت للوسق ، فتكلم الوزير مع الوزير المقرب ابي النخبة مصطفى خزنة دار ، وحذَّره عاقبة الامر ، وربما يعدُّ ذلك غفلة وإهمالاً ، فقال له : « أنت اولي بالكلام مني ، لمكانتك المكينة وسنَّك ، فيغتفر لك ما لا يغتفر لغيرك » ، فتكلم الوزير صاحب الطابع مع الباي ، فلم يُصنَّغ لكلامه ، فأعاد الكلام للوزير مصطفى خزنة دار ، وأشار عليه بالتوقف والتصريح بالعجز ، فقال له : « أما هذا فلا يقع مني ، وحسبي أن أفعل ما يأمرني به سيدي ، وتوقفي لا يرفع الضرر ، بل أجلب به ضرراً لنفسي » . وله العذر ، اذ لا قانون يومئذ الا الشهوة الملكية .

ثم تكلم الوزير مصطفى صاحب الطابع مع ابن عياد وقال له : « كاتب الوزير واطلب منه عرض مكتوبك على الباي » ، فكتب له : « بعدم وجود القمح والشعير ، وأوامر السراح لم نجد لها مشترياً في غالب الظن » .

ولما عرض الوزير هذا المكتوب على الباي ، جمع وزراءه في بيت سكناه بالمحمدية ، وناولني المكتوب فقرأته عليهم ، فأطرقوا واجمين ، ينطق لسان حالهم بالانكار ، ففتحت باب الكلام بتهويل أمر المصروف ، « والواجب فيه الآن الاقتصار على الامر الضروري » ، فقال لي بغضب : « كأنك تريد تسريح العسكر ؟ اكتب لي خطك اذا وقع ضرر من تسريح العسكر فأنت المطالب به » . ثم قال : « والله لا أسرح العسكر أو يقطع رأسي » ، وأشار بيده الى رقبته [من شدة الغضب] . ولما تاب له حلمه ، [وعلم الجماعة ان الغضب على مجموعهم] (2) ، قال له وزير الحرب ابو النخبة مصطفى باش آغة : « يا سيدي ، إن الدنيا الآن مؤسسة على الحقوق باتفاق الدول ، وهذا العسكر إن

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

أعددها لزيادة في المملكة أو دفع الاجنبي عنها فالمحقق ان ذلك لا يقع (1) ، وان أعددها لدفع الضرر داخل المملكة فالظاهر انه اكثر من الحاجة ، وان سرحنا البعض فلا مانع من جلبه وقت الحاجة » .

وقال له الوزير الكنت جوزاب راف : « ان الدول بأروبا لا يُبقون تحت السلاح الا القدر المحتاج اليه ، ويسرحون الزائد ، اعتبارا للمصروف وراحة المتسرحين ، مع غناهم الذريع » .

وقال له وزير البحر ابو الثناء محمود بن محمد كساهية : « ان كثرة العسكر تؤدي الى عدم القيام بواجبهم كما ينبغي ، والعامّة تقول في امثالها : قَلَّلْ ودَكَّلْ » ، فأعرض عنهم وقال : « تكلموا في تدبير يقلُّ به المصروف ، غير حال العسكر » ، فقال له الوزير صاحب الطابع : « ان معظم المصروف على العسكر وتوابعه ولواحقه » . ولم يقل لهم تكلموا في زيادة دخل ، لانه على يقين بأن ذلك غير ممكن ، باعتبار حالة البلاد من ضعف مواد الكسب [الطبيعية بها من الزراعة والصناعة والتجارة] (2) ، اذ لا يخفى ذلك على ثاقب فكره . وانفضّ الجمع على غير طائل .

ومن الغد خرج الينا ونحن ننتظره على العادة ، فلم يجد غيبي وغير وزير الحرب أبي النخبة مصطفى ، فقال لي : « هل رجعت عن رأيك ايها الشيخ ؟ » ، فقلت له : « حيث لم يستحسنه سيدنا فهو معدوم » ، فضحك وقال : « صرّح بلفظ الرجوع » . ثم قال لوزير الحرب : « عجباً لك ، كيف ترى تنقيص العسكر وأنت رأسهم » ، فقال له : « يا سيدي ، انما استشرتنا من حيث المصلحة العامة ، والواجب النصيح لك ولعامّة المسلمين . ان هذه المملكة ورثتها من آباءك وأجدادك ولم تأخذها بحرب ، فهي بمنزلة دار حبس يسكنها المستحقون على التداول ، فاذا انقضت دولة أحد المستحقين فلا أقلّ من ان يترك الدار كما أخذها من غير نقص شيء منها ، والاّ ولى أن يتركها أحسن بما أخذها لتلحقه الرحمة وهو في قبره . اما اذا تركها بحال نقص ، يلحقه ضد ذلك . وقد أخذت هذه المملكة ، وعمرانها أكثر منه الآن ، [وقد أخذت في طريق العدم] (3) ، عبارات أشد من هذه ، فتغافل وتجلّد ، وكانت عادته الإعضاء عن وزيره هذا ، لِمَا يعلم من صلابته في الحق وخلوصه .

(1) كذا في ع ، وفي ع و ق : « فهو من طلب ما لا طمع فيه »

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .



ولما أيس ابن عياد من تبديل الحال ، ثيقت أنه ساقط في المهواة التي أريد فيها غيره ، كدثار الجلّولي ودار سليمان بن الحاج وغيرهما ، مع امتلاء صاعه ، فدبر في نجاة نفسه وماله ، وطلب من الباي أن يحاسبه على [لزمة] (1) كساوي العسكر ، فالتفت المحاسبة أن له قبل الدولة خمسة ملايين ريات تونس صغرى ، أخذ فيها تذكرة من الباي محصلها أن « المأمور بدار الجلد يدفع لحامل هذه التذكرة العدد المذكور » .

ولما أتيت بالمكاتيب الى الباي ليمضيها بختمه ، قلت له : « ان هذه التذكرة كرسم مالي ، تُدفع مثل المال الناص » ، ولم يتقدم نظيرها ، فأمرني باعادتها على العادة ، فأعدتها بالإذن للمأمور بدار الجلد بدفع العدد المذكور لمحمود بن عياد ، شاط له في حسابه . ولما ختمها وجهتها لابن عياد ، فأتى بها من الغد وقال للباي : « ان هذا المال الذي شاط لي لم يكن من مالي ، وإنما هي ديون علي ، بعضها لم يحلّ أجله وبعضها حلّ ، فاذا لم تكتب لي تذكرة يقبض حاملها ما بها حتى يتيسر لي رهنها في مبلغ أدفعه لمن حلّ أجل ماله ، تقف الغرماء ونفلس لا محالة » .

ولهذا الباي أمان في من يحبه ، خصوصا ابن عياد ، لما يرى أنه صنيعة . فقد انتشله من مخالب الوزير شاكير صاحب الطابع كما تقدم [في الباب الخامس] ، وأخذ له مالا عظيما من الدولة لا يأخذه مثله بمقتضى تلك العادة ، وأعانه في خصامه مع أبيه ، وقدّمه على أنظاره [وقربه نجيا] ، حتى أنه كان يبيت عنده في بالاصه بقمّرت ليلة في السنة ، منقوشا ذكرها على حجر بيباب البالاص ، الى غير ذلك من انواع الاحسان المسترقّ لحرّ الانسان . وبمقتضى ذلك صدّقه في مقاله من غير إعمال فكر ، وأمره ان يأتي الكتاب ويدفع لهم التذكرة ، ويبلغ لهم الإذن باعادتها على الوجه الاول ، ففعلوا (2) .

ولما أتت المكاتيب للامضاء وجدت التذكرة المطبوعة وأخرى معها على الوجه الذي طلبه ابن عياد ، فقلت للباي : « هذه تذكرة أمس ، وهذه أخرى على الوجه الذي لم تُمضيه » ، فأمرني بعنف (3) أن أمزق المطبوعة ونعطي الأخرى للامضاء بالختم .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) كذا في ع ، ولى ع و ق : « فأمرني بفضب » .

وسكت قليلا ثم قال لي : « تجب إعانة هؤلاء الناس والا تتعطل خدمتهم ، فان توقفهم يوجب توقف الدولة » .

وشرع ابن عياد في جمع كسبه ، وظهر ذلك في الخارج (1) ، فأتى الوزير مصطفى خزنة دار بعض نصحاؤه وقال له : « ان ابن عياد محسوب عليك ، وهو من الناس الذين تعتمهم (2) رئاستك ، وقد بلغنا عنه ما يجب ان نبهك له ، وان كنا نعلم ان له وجهة خاصة مع سيدنا ، لكن عادة الملوك ينسبون غلطهم للوزراء » ، فقال لهم : « وما يدريكم أنني [ما] نبهت سيدنا ، وهذا ما يجب علي » ، فقالوا له : « ربما لا يتذكر ذلك التنبيه » ، فقال لهم : « تريدون أنه ينكر ذلك ، ان أنكرني فأنا راضٍ بجميع ما يقع لي » .

وما قوى عزم ابن عياد على النجاة ، انه دفع مؤنة العسكر بالمحمدية من قمح مصر ، إظهارا لانه اشترى ذلك ، وهو منقطع عن قمح هذه المملكة . واشتكى كبار العسكر من ذلك ، فقال لهم : « ان المملكة ليس بها قمح كثير ، وشراي منها يغلي السعر » ، فرُفع ذلك الى الباي ، فأمر أمير لواء العسكر أبنا عبد الله محمد المرابط ان يقول لابن عياد في صحن القصر بالمحمدية بمحضر اكابر العسكر : « ان سيدنا قال لك : عسكر المحمدية لا يأكل الا قمح تونس ، فدبّر لهم في ذلك والا ندفعك لهم يأكلونك » ، فقال : « اعمل جهدي ، [ورأى بوارق ما خاف منه] ، وخرج ، وعند ركوبه سب نفسه إن بقي في هذه المملكة (3) . وبعد ذلك بمدة تعلل بأنه يريد السفر للتداوي من مرض حلّ به ، [وهو صادق في ذلك ، فان عدم الامن أعظم الامراض] ، وليبيع أوامر السراح ، وقد كان أذنه يبيعها على إسقاط مبلغ كثير من عدد دراهمها ، ومكتوب الإذن بخط ابن عياد [مصحح من الباي] (4) ، فسرّحه الباي وأحضر له الفابور ، إلا أنه لم يعين له يوم السفر ، فظن انه وقع الندم في تسريحه ، فكاتب الوزير « بأن مولانا سرحني للسفر ، وعلى ذلك جمعت احوالي ، وتوقفه الآن يدل على أنني ممنوع » . وناولني الوزير المكتوب ، فقرأته على الباي ، فأحضره وأتته وعين له يوم السفر ، فبعث

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وظهر ذلك للمشاهدة »

(2) في ع و ق : « تشملهم رئاستك » .

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « اعلن بسب نفسه ان بقي في هذه البلاد » .

(4) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

والدُّهُ سرّاً مع أبي عبد الله محمد بوكراع الجربي ، وكان الباي يأنس بتجاهله وتغفّله ، بما محصّله : « ان محمودا ابني مسافر سفسر هروب ، ولدارنا سلف قديم في الخدمة والصدّاقة ، ولا أرضى ان يشينها ما عزم عليه ابني . وآية صدقي انه وسق في الفابور صناديقه ، وفيها سائر دفاتره ، وحجج ديونه ، وأوامر ولايته ، وتذاكر مدايفعه ، وسائر ما تحت يده من الرسوم المالية ، وأوامر سراح الزيت ، وغير ذلك مما يشهد بأنّه غير راجع . فابعث الى الفابور من تشق به ، فان وجدت الحال كما ذكرته فلك النظر ، وإن وجدت الحال بخلافه فدونك والحكم فيّ بما تراه » ، فأعرض الباي عن ذلك ، على عادته في سدّ ابواب الرشايات عن خواصّه ، وقال : « ان محمد بن عياد صاحب غرض ولو مع أولاده ، فأراد ان يُعدي مني خديما ناصحا مثل محمود . ونتحقق أن ما ذكره لا وجود له ، وإذا وجدته كاذبا لا نرضى ان نعاقبه على كذب ظاهره نصيحة ، والرجل شاب في خدمة أسلافنا ، فالحياء يمنعني من ذلك ، ويتغير قلب محمود حيث كان موضعا للشك » . وقال ذلك لمحمود قبيل سفره (1) .

ولما سافر يوم الاثنين السابع والعشرين (2) من شعبان سنة 1268 ، ثمان وستين (14) جوان 1852 م. ، كما تقدم ، ترك ابنه ونوّابه قائمين مقامه في خلاص ديونه ومباشرة أعماله ، وحضتهم على إرسال ما يستخلصونه من المال .

ولما سمع بمرض الباي اشتدّ حاله في طلب ديونه على كيفيات لا عهد بها في المملكة ، ونوّابه يبعثون له الاموال من داره مع كل فابور . وبعث يتقاضى تذكرة الخمسة آلاف ألف (3) من المأمور بدار الجلد ، ودفع له المأمور شيئا منها . والوزير خزنة دار يلاطفه الى ان كتب له مرة ، لما عيل صبره ، : « كان ظني انه لما يصلك الخبر بمرض سيدنا ان تترك كل شيء ، وتقدم لشدّ أزُرنا وإعانتنا على الخدمة في هذا المضيق ، فاذا أنت أشدّ الناس مضايقة ، وليس هذا من الوفاء » ، الى غير ذلك .

ثم ظهر في صحيفة الاخبار بباريس ان محمود بن عياد حصلت له حماية الفرنسيين . ويقال ان من القانون الفرنسي أن من ملك دارا بلوازمها في باريس ، وسكنها بنية الإقامة ،

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وقال لمحمود قبيل سفره : « ان والدك أسر الى بانك غير قادم ، لانك حملت معك سائر ما تحتاجه من المكاتيب ، ولم تصدق بذلك » .

(2) هو 25 حسب التقويم . (3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « الخمسة ملايين » .

وطلب حماية الفرنسيين ، فلفرانسا ان تحميه إذا قبله سلطانها . ولا يخفى ان حمايته من يوم قبول السلطان له ، لا فيما مضى من أحواله . وصعب على الوزراء إخبار الباي بذلك ، لما يعلمون من محبته وشدة ميله لمحمود بن عياد ، وان سماع هذا الخبر يؤثر في مزاجه العليل ، حتى انه لم يتجاسر أحد على إخباره بموت ابنه سليمان .

هذا ، ومحمود بن عياد لم يزل على حاله ، ساعيا في قطع اتصاله ، فظهر له ان بعث من فرانسة رسوما مالية ، وأوامر في سراح زيت مع بعض نوابه ، وشرع نوابه في صرف الرسوم بالنقد ، والذي دفع لامنته من الرسوم أكثر من المال الناض .

ولما كثر ذلك بدار المال ، أتى النائب بها ، وهو القائد نسيم بيشي اليهودي ، إلى الوزير وأخبره الخبر ، فتلطف في إخبار الباي ، فحزن واسترجع ، وقال ما معناه : « من مأسمته يؤتني الحذر » . وقال للوزير : « أنا في فراش مرض [أفعل ما تراه] » ، فقال : « الذي اراه الآن غلق دار المال ، توقيفا للضرر ، ومكاتبه قناصل الدول حتى ننظر في النازلة » ، فكتب لهم بما نصه : « اما بعد فاننا لما رتبنا الرسوم المالية ، كما في علمكم ، وكنتنا على دار المال ابنتنا محمود بن عياد أمير لواء ، وأعطيناه رسوما مالية ، وأوامر في سراح زيت ، وأمرناه مهما يخرج رسما يجعل صرفه عينا بدار المال ، ومهما دفع أمر سراح يجعله احه بدار المال . ثم انه سافر وأقام ابنه مقامه ، ولا توفي أقام ابن أخيه مقامه . ولا تفقدنا دار المال لم نجد بها صرف ما خرج من الرسوم ، ولا بقية الرسوم ، فوجب أن نعلمكم لتنبه على من هو لنظركم لا يقبلوا من نوابه الرسوم المالية ولا أمر سراح في زيت حتى نفصل معه . اما هذه الرسوم المالية الدائره فان أربابها يأتون بها اليها فنجعل عليها علامة الإمضاء ، وذلك في مدة عشرة أيام من يوم التاريخ ، وتبقى دائره في المتجر بين تجاركم ورعايانا كما كانت قبل هذا ، ولا يأتوا بالرسوم الى دار المال لاجل الصرف حتى نعلمكم . وبعد هذا يرجع الحال كما كان ، من أراد ان يصرف بدار المال فله ذلك ، على مقتضى الحكم المسطر في عين الرسم . وقد أذنا الاعز الثقة العمدة الخلاصة ، نخبة الاركان ، وزير العمالة [أمير الامراء] (1) ابنتنا مصطفى خزنه دار ، برسم علامة الإمضاء على الرسوم والأوامر . ودمتم في أمن الله . »

وكتب في 2 شعبان من سنة 1269 ، تسع وستين (الاربعاء 11 جوان 1853 م) .

(T) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وأتى الوزير لدار الباي بالقصة ، وأمرني أن أصبحه [في مدة العشرة أيام] (1) ، ووضع علامته على الرسوم والاوامر ، وأناه بعض نواب ابن عياد بأوامر ورسوم ، فقطن به الوزير وامتنع من إمضائها .

وجمع الباي وزراءه بالمحمدية ، على حال مرضه ، وتكلم معهم في النازلة ، فقال بعضهم ، وهو الوزير أبو النخبة مصطفى صاحب الطابع : « كأنَّ خبر ابن عياد وما فعله لم يبلغ سيدنا إلا هذه الايام » ، فقال : « حذَّرني مصطفى خزنه دار مرارا عديدة على كيفيات مختلفة ، وأنا أكره سماع ذلك منه ، ووقع في نفسي انها غير من قرب محمود ابن عياد إليَّ ، فقلت له : لا تكلمني بعد هذا في شأنه ، فاني أعلم بحقيقته منك ، وهو من المعتمدين عندي ، فكُن في إعانته . ومعاذ الله أن أنسب غلطتي إلى غيري ، ولو كنت في قيد مرض ، ونفسي تأبى ان أجمع عليها بين الغلط ولطخ الغير ، [الموت عندي أهون علي من ذلك] » (2) . ثم قال له الوزير صاحب الطابع : « ما خبر هذه التذكرة التي بها خمسة ملايين يدفعها المأمور بدار الجلد لحاملها ؟ » ، فقال له : « إن هذا ، وأشار إلي ، راجعني في شأنها ونقمت عليه المراجعة ، وحاصل الامر ان نازلة محمود بن عياد لا يتحمل ثقلها غيري » .

ولما انقضَّ الجمع قال للوزير نصحاؤه : « أنت أعلم منا بحال سيدك ومربيك ، وما كنَّا نظن ان يصدر منه هذا » .

وانتقل الباي من المحمدية الى حلق الوادي ، ولم يزل الحال يشتد ، فقال صاحب الطابع للوزير خزنه دار : « أنت بمنزلة ابني ، والموت والحياة بيد الله ، وما كل واحد يفعل فعل سيدك هذا ، فالواجب ان تضع قدمك في الخدمة على أساس ، ولهذا اليوم ما بعده . وان سيدك لم يزل مصراً على رأيه من عدم تسريح العسكر ، وتبديل حال المصروف ، فالرأي ان تحصي على التقريب ما في الرابطة من الجيوب ، وتخبر سيدك بجال دولته جهرا (3) » ، فقال له : « نعم » . ومن الغد قال له في بيت حلق الوادي المعروفة

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) في ع و ق : « علنا » .

بيت الكاغظ التي يجلس فيها لعامة الناس وخاصتهم ، بمحضر الوزراء والاعيان :  
« يا سيدي اني توقفت في القمح والشعير والدراهم ، وابن عباد هرب ، ولا غنى لي عن  
رأيتك ، فأشر عليّ » ، فقال له : « يا مصطفى ، لا أسمع منك شيئا ، وحسبي ان اقول  
لك : دبر في القمح والشعير والدراهم بما تراه من الوجوه ، ولك الإذن في ذلك ، ولا نسرح  
أحدنا من العسكر » ، وقام من موضعه متغيرا منزعجا ، ثم قال للوزير وهو يماشيه :  
« أتسلمني وأنا بهذه الحالة ؟ » ، فبكى الوزير وقال له : « افعل رضاك ولو أدّى الى موتي ».

وأقام في ولايات ابن عباد من سار على سيره فيها ، وصار يبيع في الزيت والحبوب  
لأجل ثم يدفعها بعد تحصيلها [او يدفع ثمنها دراهم] (1) ، الى غير ذلك مما يضيق  
هذا المختصر عن تفصيله .

واقترح في ذلك الاوجال ، وجلى في هذا المجال ، وأبلى في هذه الشدة البلاء  
الحسن ، وأدّى حقوق سيده على أكمل نسق وقدمها على مصلحة الوطن (2) . واستعان  
في ذلك بالقائد نسيم كبير اليهود ، ورأى منه [في الخدمة والنصح] (3) أكثر من عادته ،  
والباي حليف أسف ، وطريح فراش .

وفي هذا المضيق أهدى أمير اللواء ابو عبد الله محمد خزنة دار عامل الساحل (4)  
للباي ألف قفيز شعيرا موضلة للرابطة ، فشكره ودعا له .

وفي هذه المدة بعث محمود بن عياد يطلب اهله وابنه الصبي [احمد] (5) على يد  
قنصل الفرنسي ، فمنعهم الباي من السفر ، فقال له القنصل : « ان مطلبك في محمود ،  
وابنه صبي ، وزوجته لا قيّم عليها ، فلا وجه لمنعهما عن حاميتهما الطبيعي » ، فأصر  
على الامتناع حتى سافروا هاربين ، وأعانهم القنصل . وندم على إصراره ومخالفة نصيحائه ،  
لأنهم أشاروا عليه بتسريحهم لتقوى الحجة عليه فيما يدّعيه من الشدة وتوقع المخاوف (6) .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وقدم حقوق سيده ومصلحة نفسه على مصلحة الوطن » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) في ع و ق : « عامل سوسة » .

(5) الزيادة عن ع و ق .

(6) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وتوقع المكروه وعدم الامان » .

ثم جمع رجال دولته واستشارهم فيما يكون عليه العمل في شأن ابن عياد ، وما تحت يده من الاوامر في سراح الزيت والرسوم المالية ، فاتفقوا ان البايع يكاتب السلطنة الفرنساوية في ذلك ويتنظر من عدلها الإنصاف ، فكاتب السلطنة ، وبعث بالمكتوب وزيره جوزاب راف . وغاية ما حصل ان الرجل الآن له الحماية الفرنساوية ، ولكم أن تطلبوا منه ما لكم عنده من الحقوق .

ولما علم ان النازلة آلت الى جدل وخصام ، وعرض الحجج على معيار الافهام ، واعتذر الوزير جوزاب راف عن مباشرة ذلك ، أتى الامر من بابه ، واستعان على الصعب بأربابه ، وأعطى القوس باريها ، والفرس مجريها ، فكاتب أمير لواء الخيالة أبا محمد خير الدين ، وهو اذ ذاك بباريس ، وأذنه بمباشرة النازلة ، وقبلته الدولة الفرنساوية احسن قبول . وانعقد لذلك مجلس بوزارة الامور الخارجية ، وتأملوا في حجج الطرفين . ودامت النازلة نحو ثلاث سنين (1) ، آل الامر فيها الى ما لخصه خير الدين في كتاب طبعه باللغة الفرنساوية واللغة العربية ، من أهم فصوله أن ما في يد ابن عياد من أوامر الزيت والرسوم المالية لا عمل عليها ، ودعواه رهن الاوامر لم تثبت ، وان ما أخذه من المال الناض في دار المال يردّه ، وانه يتم حسابها فيما له وعليه بتونس (2) التي هي منبت النازلة ، الى غير ذلك مما هو مسطر في ذلك الكتاب ، وهي من عظام خدمة خير الدين في هذه المملكة . ولو تم مراد ابن عياد ، ووجد من خير الدين أذننا صاغية لمواعيده ، كانت المملكة في أسره لوقتنا هذا (3) ، لكثرة ما بيده من الاوامر والرسوم .

والحق انه لا يعاب ابن عياد بنفس الهروب ، لان الخائف على نفسه وماله ، بمقتضى العقل والشرع له ان يتحصن بما يراه مانعا ، [والأ كان ملقيا بنفسه الى التهلكة] (4) ، والدولة يومئذ لا وازع فيها من شهوات الملوك ، والعيب كل العيب في حال الهروب ، لانه لوئنه بما ارتكبه وبما ناضل عليه ، لولا تدارك لطف الله على يد خير الدين .

وسمعت من البايع انه قال : « والله لو ان ابن عياد ردّ اليّ ما أمّنته عليه من الاوامر والرسوم المالية ، وطلب الاستعفاء من الخدمة وسكني أيّ مملكة شاء ، كنت أكتب

(1) كذا في خ . وفي ع و ق : « اكثر من عامين » .

(2) كذا في خ . وفي ع و ق : « على عادة تونس » .

(3) كذا في خ . وفي ع و ق : « في اسره الى ما شاء الله » .

(4) الزيادة عن ع و ق .

له مكتوبا في براءة عرضه يطبعه في صحف الاخبار ، إذ لا ولاية لي على استرقاق قلوب الرجال الا بالإحسان ، وكنت أحاسبه كما يشاء حتى يظهر في الوجود فعلي وفعله . لكن المقدّر كائن لا محالة .

وليت شعري هل يروج هذا في فكر خائف من ملوك الإطلاق ؟

وانما أظننا في هذه المقدمة ، ليرى الناظر أسباب النقص الذي وقع في هذه المملكة الضعيفة كيف تسرّى إليها (1) . ومن سعادة جدّك ، وقوفك عند حدّك . وإذا أدبر الامر كان العطب في الحيلة . واكثر مصارع الرجال تحت بروق الاطماع .

وكان السبب في سفر خير الدين لفرانسا ان الباي لما تحقق عنده الحرب بين الدولة العلية ودولة الموسكو ، رام أن يفعل أكثر من عادات أسلافه مع عسر الوقت .

والعادة ان الدولة التونسية تبعث شقوفا حربية لإعانة الدولة العلية اذا كان لها حرب . ولم يكن له من اليأس ما يوفي بهمته ، فبعث خير الدين لاقتراض مال من بعض ديار المتجر بفرانسا . وكتب له تفويضا بيده ، ولم يعارض في ذلك أحد من خاصته (2) .

وبعد سفر خير الدين جمع رجال دولته ، وهو في فراش مرضه ، وقال لهم : « ان الدولة العلية لها حقوق علينا باعتبار العادة ، منها أن نوجه مراكبنا لإعانة أسطولها اذا وقع لها حرب . ووقع لنا تعطيل عن إرسال شقوفنا ، سببه قنصل الفرنسي بـكلار (3) ، كما تعلمون . ولنا بفضلها حقوق باعتبار عاداتنا ، والمسارة لحقوقها الثابتة تقوية لحقوقنا المبنية على محض الفضل . ورأيت ان لا تقتصر على العادة السابقة ، بل نزيد على ما فعله سلفي بأن نوجه عسكريا بسائر ما يلزمه من الاخوية والمهمات ، ونقوم بما يلزمه في مدة وجهته ، ونبعث ما عندنا من المراكب ، فقالوا له : « نعم الرأي لو ساعدته الجدة ، وأنت ترى ما نحن فيه من الضيق » ، فقال لهم : « الاعتماد على الله » . وهو يرى ان خير الدين يتساهل في الاقتراض ، الا انه لم يصرح بذلك . ثم جمع سائر ما في خزائنه من المصوغ

(1) كذا في غ ، وفي ع و ق : « النقص الذي وقع في هذه المملكة الضعيفة حسا ومعنى ولا زال » وبعد بياض بمقدار ثلاث كلمات ، وفي ق كتب بالاحمر في موضع البياض : « بياض بالاصل » .

(2) كذا في غ ، وفي ع و ق : « ولم يعارض في ذلك غير وزيره وصاحب سره وابن تربيته مصطفى خزنه دار » .

(3) Bécclard



والاحجار الثمينة والجواهر النفيسة ، وتبرع وزيره ابو النخبة مصطفى خزنة دار بجميع ما عنده من ذلك ، حتى حلي زوجته أخت سيده ، وكان لا يرى لنفسه كسبا مع سيده . وبعث بجميع ذلك الى خير الدين وأمره ببيعه ، فلم يجد ما يقارب الثمن ، فتوقف في البيع وكتب يستشير ، فكاتبه الباي منتقدا عليه التوقف ، وأمره ببيع ذلك بما يجد ، وحضته على ارسال الثمن عاجلا ، فامتلأ وبعث الثمن ، وقدره نحو المليونين فرنك ، انفقها في لوازم العسكر الذي عزم على إرساله للدولة العلية من الاقوات والاخية والخيول [وسبق لهم مرتب أشهر] (1) وغير ذلك .

واختار من رجال دولته وثقاته من يستكفي به وهو أبو عبد الله محمد خزنة دار عامل الساحل ، ودفع له جانباً من المال وأمره بالسفر الى اسلامبول ، وفوض له إن وجد من يلتزم له القيام بلوازم العسكر ، يدفع له ما يراه من المال ويرجع لتونس ، والمدد يأتي للملتزم شيئاً بعد شيء ، فسافر لهذا المهم أواسط شوال سنة 1270 ، سبعين (أواسط جويلية 1854 م) ، قبيل سفر العسكر . وأعانه الله على ذلك ، ورجع اوائل ربيع الاول من سنة إحدى وسبعين (أواخر نوفمبر 1854 م) ، بعد أن وصل العسكر ورتب لهم من يقوم بلوازمهم أحسن قيام ، وهم جماعة التجار الجرابية باسلامبول ، ودفع لهم ما حملة من المال .

وكانت هذه الخدمة من عظام حسناته في المملكة . ولم يستعن الباي في هذا الجيش بدينار ولا درهم من أحد على أي وجه ، سوى مصوغ الوزير ، إما لعلو همته التي اقتضت بتبع ما له من الطارف والتالد [بأبخس الاثمان] (2) ، او لما علم من عجز الناس وضعف المملكة .

وقدر العسكر نحو الاربعة عشر ألف مقاتل ، ما بين طبجية ورجال وفرسان وبحرية، حملهم في مراكبه الحربية وكانت سبعة ، واكثرى لبقيتهم خمسة وستين مركبا ، وأمر على الجميع أمير الامراء أبا محمد رشيد [أمير عسكر الساحل] ، وأمره ان يتوجه بمن معه من [أعيان] (3) الضباط لزيارة الولي أبي محفوظ محرز بن خلف وأن ياخلوا من

(1) الزيادة من ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة في الفقرة من ع و ق .

مشهده صنيحاً ، وزيارة الولي العالم أبي الحسن علي ابن زياد تلميذ الامام مالك ، وزيارة مقام الامام الشاذلي رضي الله عنهم . وكان ذلك يوم الاربعاء الخامس والعشرين (1) من شوال السنة 1270 (19 جويلية 1854 م.) ورجعوا لمحلّتهم أمام حلق الوادي .

ورام الباى أن يتوجه لمشايعتهم بنفسه وهو في قصر حلق الوادي ، فقيده المرض عن هذا الغرض ، فأمرني بمكاتبتهم بالتحريض ، وبعث المكتوب اليهم عشية اليوم مع وزير الحرب أبي النخبة مصطفى باش آغة ، ومعه الاكتب (2) ابو عبد الله محمد الباجي السعودي لقراءة المكتوب عليهم ، ونصه : « من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض بجميع الامور اليه ، المشير أحمد باشا باي ، إلى أبناء تربيّتي ، وأقوى عدّتي ، وأهل مودّتي ، وأعزّ أسرتي ، ورجال نصرتي ، عامّة الجيش الذي اختاره الله للجهاد في سبيله ، وأمل فيهم قُطْرُهم أحسن تأميله ، المرؤوس بأمر الامراء ، ونخبة أعيان الكبراء ، ابننا رشيد . تقبل الله جهادكم ، وقوّى استعدادكم ، ونصر جموعكم وآحادكم ، وكسبت بكم أضدادكم ، وزين بأثركم الجميل وطنكم وبلادكم .

اما بعد السلام على جميعكم فردا فردا ، ايها الجند الذي اتخذ عند الرحمان عهدا ، أنتم الفئة المختارة الى (3) الجهاد على بعد الشقّة ، والاجر على قدر المشقة ، وهذا أوان سفركم ، وفتح الآذان الى ما يُنقل من خبركم ، ولا بدّ للأب من وصاية بنيه عند السفر ، من أمير الامراء إلى آخر نقر .

اعلموا قوّى الله عصببتكم ، وعجل أوْبَتكم ، ونصر وجهتكم ، أن الله المتفضل بالمنة ، جعل الجهاد بابا من ابواب الجنة ، ووعد المجاهدين بالدرجات العالية ، والنعم المتوالية ، تحت بيض السيوف وسُمر الاسنة . وتذكروا قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِندَ اللَّهِ عِلِّيُّهُ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (4) . مُشْتَرٍ وَفِي ، وربح لا غائب ولا خفي .

(1) هو 23 حسب التقويم .

(2) في ع و ق : « ومعه الاديّب البارع » .

(3) كذا في غ و ع و ق .

(4) س 111 1/9 .

وقال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » (1) ، الى غير ذلك من القرآن العظيم في هذا الخصوص ، والحديث الشريف النبوي المنصوص .

يا ايها الشُّجْعَان ، كتاب الله بين أيدينا ، ولسان الشريعة بالنصر والجنة يُنادينا ، وأيسر من ذلك يحرك حمية الدين ، ويثير الغضب لله ولرسوله ولاخواننا المؤمنين .

يا أهل الهمم العلية ، والنفوس الالوية ، والغيرة الدينية ، أقيموا فريضة الجهاد فقصداً تأكدت الفرض ، وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والارض . واعلموا ان الجَبَانَ وإن مات يترك العار ، ويستقبل في آخرته النار ، إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون . فكونوا في طاعة الله يدا واحدة ، بقلوب متعاضدة ، وأنفاس على فخر وطنكم متواردة ، ولا تنسوا حقَّ وطنكم وبلاذكم ، تربة آبائكم ومَنِيَّت أولادكم ، ومستقرَّ قلوبكم وأجسادكم ، لا تُكسِبوه العار ، بقبح الشعار ، والحرص على العمر المستعار ، فالخلد لا ينجي من الاقدار ، والدار الآخرة هي الدار . وتحققوا من أبي نُصْحِكُمْ ، المثابر على ربحكم ، ان لواء وطنكم وأرضكم ، هو ما يظهر للابصار من عِرْضِكُمْ [فَاللَّهِ اللَّهُ فِي عِرْضِكُمْ نَظْفُوهُ] (2) ، اللهَ اللهَ في عِلْمِكُمْ فانصروه ، اللهَ اللهَ في حسن الثناء فاربحوه ، اللهَ اللهَ في العار فلا تقربوه ، فقد قالت الاحرار : « النار ولا العار » ، وهو بشهادة الله أطول من الاعمار .

وأوصيكم بطاعة كبرائكم بالقلب والقلب ، فان ذلك للعز والنصر أعظم جالب ، ومن خالف رئيسه لم يؤمِّل رئاسة ، واومن قوته وأذهب بأسه . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقَيْتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (3) .

وأعظم أمنيته ، ومنتهى محبتي ، ان لا نفارق جَمْعَكُمْ في الامن والخوف ، وان أكون مركز دائرتكم في ملاحم الخُتُوف ، ولا أستاذ براحة عنكم ، بل أكون

(1) س 4 1/6x .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) س 45 1/8 و 46 .

كواحد منكم ، لكن إن فاتكم جسمي فقلبي بين أظهركم ، يشاهد ان شاء الله حسن منظركم ومتخبركم ، ويشر وطنكم بجميل أثركم ، والعين ترقب إيابكم سالمين منصورين ، سعداء مشكورين . ولولا ما تعلمونه من ألم المرض ، ما قدّمتُ على مشايعتكم بنفسي أعزّ غرض . فأشايحكم بنظري ، وأوجه معكم قلبي ، وهو سرّي ولبّي . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (1) .  
وأستودعكم الله الذي لا تخبى ودائعه . اهـ .

وأمرني ان نحضر مكتوب الولاية لاميرهم .

ومن الغد ، وهو يوم الخميس السادس والعشرين (2) من شوال (20 جويلية) ، حضرت المراكب بخارية وغيرها ، وقدم أمير الجيش المذكور ، ومعه أعيان الضباط [لبلباس المراكب] (3) لوداع الباي وهو بقصره في حلق الوادي . ولما وقفوا بين يديه ، دعا لهم ، وأمرني ان أقرأ عليهم منشور ولاية أميرهم ، ونصّه :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور اليه ، المشير احمد باشا باي سدّد الله أعماله ، وبلغه من نصر الدين آماله ، الى من يقف على هذا المنشور ، والخطاب المحرر المسطور ، من أبنائنا أمراء الأمراء ، أعيان الوزراء ، وأمراء الولاية ، وأمراء الآلايات ، وقائمي المقامات ، وأمراء الآلايات ، والبنباشية ، واليوزباشية ، وسائر ذوي الولايات العسكرية ، والجيش الذي وجهناه للجهاد في سبيل الله وخدمة الدولة العلية ، تقبل الله جهادهم ، وكتب لهم السلامة والسعادة ، والنعم المزیادة .

اما بعد فان فارس الشجعان ، وعمدة أهل الشان ، ونخبة الكبراء الاعيان ، الثقة العمدة ، والمختار في الرخاء والشدة ، أمير الامراء ابننا رشيد ، قدمناه ، على بركة الله تعالى وحسن عونه ، أميراً على الجيش الموجه لدار الخلافة العلية ، والابواب الخاقانية العثمانية ، للجهاد في سبيل الله . فليقم بهذه الخطّة عالماً بقدرها ، متّصفا بما يُحمّد من فخرها ، وأوصيناه بالاحتفاظ على الجيش بأن يجعل مصلحتهم مناط نظره وفكره ، وملاك سره وجهه . وعلى سائر الجند عموماً وخصوصاً في هذا السفر ، من أمير اللواء الى النفر ، ان

(1) س 7 1/47 .

(2) هو 24 حسب التقويم .

(3) الزيادة عن ع و ق .

يتلقوا أمره بالطاعة ، ويد الله مع الجماعة ، وليعلموا ان طاعته طاعتنا وهي طاعة الله في الحقيقة، وطاعة الله أسلم طريقة ، ومن عصي أمره ، والعياذ بالله ، فقد عصي أمرنا وأمر ربّه ، ونزع يده من الاسلام وحزبه ، والله تعالى يوفق جميعكم لما يحبّه ويرضاه ، والهدى هدى الله . والله المسؤول ان يُسمِعنا عنهم الثناء الحسن ، والسلوك في أقوم سنن ، حتى يغنموا الفخر لهم وللوطن .

وأستودعه وأستودعكم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وكتب في شوال سنة 1270 هـ .

ولا تمت قراءة المنشور على الحاضرين ، وضعت بين يدي الباي ، فناوله مباشرة للأمير ، وقال له : « هذه أمانة الله عندك » . ودعا لهم وخرجوا ، فركبوا البحر في اليوم ، وأطلقت عليهم المدافع ، وكان يوما مشهودا .

ولا قرب أوان سفر هذا العسكر ، قلت للباي : « نحضر مكتوبا للحضرة السلطانية ؟ » ، فأنف من ذلك لعلو همته ، وبعده عن الإعجاب بنفسه ، وقال : « أي شيء فعلنا حتى نكتب في شأنه السلطان ؟ » ، فقلت له : « هذا اول عسكر نظامي خرج من المغرب الى المشرق ، وهو بالنسبة لملكنا عدد كثير » ، فقال : « حقر عملك يعظمه غيرك . نعم ، لا بد من مكتوب في الوصاية بهم للصدر الاعظم ومكتوب لسر عسكر ، فانا وان جمعنا الاخوة الدينية والخدمة السلطانية ، لا ننسى نسبتنا التونسية » .

ونص ما كتبه للصدر ، بعد افتتاحه : « اما بعد تقديم التحية ، المناسبة لتلك الوزارة العلية ، والفخامة الراسخة الجليلة ، فهذا أمير الامراء ، وأحد اعيان الكبراء ، الثقة العمدة الاحزم ، فارس هذا الميدان ، ابننا رشيد ، وجهه معظم قدركم بهذه الفئة القليلة السابق تقريرها لجليل وزارتك ، ووجهنا معه ابننا محمد أمير لواء . والله يرى ما للعبد الفقير من الاستحياء عند عرضها على الباب العلي ، ويسهل الامر أن ذلك على قدر العبد الفقير لا على قدر الدولة ، ذات العظمة والصولة ، والاعتماد على الوزارة العظمى في الإنهاء والتقدير ، وبهمم الرجال ، تنال الآمال ، وتحسن الاعمال . والمأمول من وزارتك المحموده الصفات ، ان تهب لبائع نفسه لله حسن الالتفات . فاليد في طاعة الله وخدمة الدولة (1) واحدة ،

(1) ق ع و ق : « وخدمة الخلافة » .

والقلوب على ذلك متعاضدة ، والانفاس متواردة . والمأهول ان يرى أميرُ هذا الجيش من عنايتكم فوق الامل ، والله يسدُّه لمرضيي العمل ، وينصر مولانا السلطان ، ويعلي بسطوته اركان الإيمان ، ويدبم وزارتكُم ركننا رفيعا ، وكهفا منيعا ، والسلام .

وكتب الى سر عسكر ما نصه بعد افتتاحه : « اما بعد السلام التام ، المؤدي لحق المقام ، فان العبد الفقير لما رأى ما يجب عليه من الحقوق الدينية ، والخدمة السلطانية ، وما لا يُترك بكله ، لا يترك كله ، جهّز في سبيل الله سبعة آلاف من العساكر النظامية ، ومعها اثني عشر مدفعا بجميع ما يلزمها من الآلات الترتيبية ، وسبعمائة من الخيل للمدافع وغيرها ، وجميع ما عندنا من الشقوف الحربية على قلّتها ، وذلك لنظر أمير الامراء ، وأحد أعيان الكبراء ، الثقة العمدة الخلاصة نخبة أقرانه ، وفارس ميدانه ، ابننا رشيد . ووجّهنا معه الثقة العمدة الحازم ابننا محمد أمير لواء . والمحقق ان هذا المقدار وأضعافه ، لا يظهر في بحر الدولة والخلافة ، وكلُّ يعمل على شاكلته ، ومقدار استطاعته . ومن يبخل فأنما يبخل عن نفسه ، ودينه وجنسه . والله المتفضل بالنصر والمنة ، اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . وقد شرع العبد الفقير الآن في إحضار مثل هذا العدد والعدة ، وسيقدم باعانة الله في قليل من المدة . والله يعلم ما حصل لنا من نهاية الخجل ، لقلّة العدد وعدم إمكان العجل ، وبودنا ان كانت هذه الفئة من الطلائع الاول ، لكن ليس للمخلوق تأثير في عمل . والمرجو من الله ان يجعلهم ممن يشمله قوله : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ » ، ويؤيد مولانا السلطان بنصر عزيز من عنده ، ويجعل جند السماء من جنده . ودمتم ودامت لكم المعالي ، على ممر الايام والليالي ، والسلام . »

وكان ابتداء وصول هذا الجيش للقسطنطينية يوم الخميس الثاني والعشرين (1) من ذي الحجة 1270 (14 سبتمبر 1854 م) ، عند اشتداد الحرب .

وأكرمت الدولة العلية مقدّمهم ، واستضافهم السلطان مدة إقامتهم بدار خلافته ، ووقف بنفسه قدر ساعة وربع في حرّ الشمس من غير وقاية حتى مروا بين يديه . ومن العناية ان جعل منهم طائفة في عسّة اسكي (2) صراية ، وهو موضع عسّة اسلامبول .

(1) هو 21 حسب التقويم .  
(2) كذا في خ ، وفي ع و ق : « سكي » .

وتتابع وصول بقية العسكر جمعا بعد جمع ، وعيّن لهم جهة توجهوا اليها . وكانت سيرتهم في الغرب مشكورة ، وحسناتهم مذكورة ، من الصبر والثبات والتجلى على المشاق ، وطاعة الكبراء ، ونزاهة النفس والحياء ، والتحفظ من مواقع التهم ، والقيام بآداب الغرب ، والالتحام على عادة اهل تونس في غير وطنهم ، فان الغرب تعقد بين المتعادين منهم إخاء واتصالاً ، وغير ذلك مما جلب لوطنهم جميل الذكر . ولا ميرهم آثار جميلة معهم في هذه الوجهة .

ووقع هذا البعث موقعا حسنا عند السلطان ورجال دولته ، فبعث السلطان رسولا مخصوصا من المقرين لديه اسمه مصطفى باشا بمكتوب بمعاني التقريب والمحبة ، بخط يد السلطان ، ونيشان افتخار ، وحكمة مرصعة بثمين الاحجار ، ووسطاها الطغرى السلطانية مطبوعة [في جرمها] (1) . وفروة كان يلبسها السلطان .

وكان وصوله أوائل محرم من سنة 1271 ، احدى وسبعين (أواخر سبتمبر 1854 م) . واهتز الباي لقبول خط السلطان [وقبله مرارا ووضعه على رأسه وتيمّن به] (2) في قصر الصالحية بالمحمدية بمحضر وزرائه وكبراء عسكره وأعيان دولته في يوم مشهود .

وبعد انفصال الموكب قال لي : « هذه ثمرة تحقير صنعنا الذي هو حقير بالنسبة للدولة العلية ، وعدم مكاتبة السلطان في شأنها » .

ولا عزم الرسول على الرجوع ، أمرني بكتب جوابه بما نصه :

« الابواب التي تعنو الوجوه لاعتابها ، وتشرف الملوك بشعارها وكتابها ، ابواب الخلافة العلية المجيدية ، والسلطنة الخاقانية العثمانية ، المخدمومة بالعمل والنية ، والشمس عن مدح المادح غنية ، كيف وقد جعلها الله ظللاً ظليلاً في أرضه ، أقام بها شعائر فرضه ، على يد من اختاره المجيد سبحانه للدينه وعياله ، وأرانا العناية به في حميد أعماله . اللهم أدم هذه الدولة للدول تاجا ، ونورا في الاسلام وهماجا ، وحصنا للعملة وسياجا .

اما بعد تقديم التحية المناسبة لعظمة الخلافة ، ذات الفضل والإنافة ، فقد ورد على هذا العبد الفقير من فضلها المشهور ، ومينّتها المعلقة في النحور ، ما رأيته أعظم من

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

قلدي ، بل لم يختلج في صدري ، ولا حدثني به فكري ، فحسبته فائدة عمري ،  
ونتيجة دهرى ، وملاك سرى وجهرى ، وكان به على سلفى فخري ، وأننى للعبد الفقير  
والتشرف بهذا الشرف من تلك اليد المباركة العلية ، والراحة المجيدة السلطانية ، أعلى الله  
يدها ، وكثر عددها ، ونصر جندها ، وأثار سعدا . ما هذه العناية التي تنطق بفضل  
مسديها وتُعرب ، ما هذه الآية التي هي أعظم من المغرب (؟) ، ما هذا الالتفات  
والتقريب ، المالك لقلب الأريب ، ما ذا يقول العاجز ولا يكاد يبين ، في مكتوب خطته  
يُمنى سلطان السلاطين ، وخاقان الخواقين ، وإمام الحرمين ، وقطب البرين والبحرين ،  
وثالث العمرين ، وسر العباد الصالحين . تلقبته تلقي المريض للشفاء ، وصاحب العهد للوفاء ،  
وأخذت ببركة الخلافة كتابي يميني ، ولولا التبرك أجلته عن اللمس ولو بعيني ،  
وضممته الى صدري ، وسعد به سحري ونحري ، وحفظته في مستقر الإيمان ،  
وجعلته نُصب الفكر والعيان ، وحازت به دارُ خدمة الدولة أعظم شأن ، لا يقوم  
بشكره عمل ولا لسان . سيول فضل ملأت كل ثنية ، وبلغت كل أمنية ، وأباد  
بالمعالي معنية . وكسم تعرف الفقير وسلفه من أنعم الخلافة بالانواع والاجناس ، واستضاء  
من عنايتها بنور يمشي به في الناس . فبينما العبد من نيشان الامتياز في بشرى ، اذ جاء  
الفضل المجيدي بمسرة هذا النيشان الكبرى ، الذي يبعث القلوب الاسلامية ، على مزيد  
الصداقة والغيرة والحمية ، ومعه المرصع الذي أكملت العلامة العلية حلاه ، وأظهرت  
للعيان سره ومعناه ، فضل على فضل من موضعه ، ونور على نور من مطلقه ، ولم ير  
العاجز في خدمته نبيه عمَل ، يستحق به ما فوق الامل . عواطف الخلافة لهذا الإنعام  
هي الاهل ، والنظر لغير ذلك من الجهل . بلغ هذا الكتاب الكريم ، المتلقى بالتعظيم  
والتكريم ، عبْدُ النعمة السلطانية ، المتحلي من التفاتها بأعظم مزية ، أمير الامراء  
مصطفى باشا ، بلَغنا الله وإياه من رضى الدولة ما نشاء ، وحسب العاجز أن يتهل الى  
الكريم المتعال ، بالدعاء لهذا السيد المفضل . اللهم انا عَجَزْنَا عن أداء ما يجب لهذا  
المنعم من الشكر الواجب شرعا وعقلا ، فاجزه عنا بأفضل ما جازيت به خليفة برا رحيم  
عن عبادك المؤمنين ، وبما أنت أهله يا أكرم الأكرمين ، وانظِمْه في سلك الخلفاء  
الراشدين ، وانصر بشوكته هذا الدين القويم المتين ، وأرينا فيه مصداق : « فَأَيَّدْنَا  
الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَتَاصَّبَحُوا ظَاهِرِينَ » (1) . واجعل السلطنة فيه وفي



آله الصالحين ، الى يوم الدين ، بحرمة خاتم المرسلين ، والسلام على أمير المؤمنين ، ورحمة الله من العاجز عن شكر هذه النعم العظيمة ، والمنن الجسيمة ، الفقير الى ربه تعالى عبده المشير احمد باشا باي . وكُتِبَ في محرم سنة 1271 (اكتوبر 1854 م) .

ولم يزل الباي يبعث في العسكر والعُدَّة والدراهم في فابورات اشتراها في تلك المدة لهذا الغرض ، وهو مع ذلك ينتظر خبر الغرض الذي وجَّه له أمير اللواء خير الدين .

وتناقل خير الدين في ذلك لما رأى فيه من الضرر الفادح في الحال والمآل ، والباي يحرضه ويُغْلِظ له في القول ، وهو مع ذلك يتناقل ، اعتمادا على عقل سيده .

✽

وفي يوم الاحد الثاني والعشرين (1) من جمادى الثانية 1271 (11 مارس 1855 م) ، عطف الباي على خديمه أبي الفلاح صالح بن عثمان شيبوب ، وسرَّحه من سجنه ، ورد عليه وظائفه بعد ان انتزعها منه ، لسوء أدب صدر منه في الخدمة ، وأمور نَقَمها عليه ، فسجنه بيته من صراية باردو نحو العام .

✽

وفي شعبان السنة 1271 (افريل - ماي 1855 م) بلغ لتونس ان حضرة سلطان الفرنسيين نيلون الثالث رُمِيَ بحبَّة من رصاص ونجَّاه الله منها ، وقتل الضارب بعد نحو العشرين يوما ، حتى قامت عليه الشهادة بالتواتر المستفيض [على عادتهم من الثاني في الدماء] (2) ، فاقضى نظره تهنئته ، فعينَ لذلك ابن عمه ابا عبد الله محمد المأمون باي وأخاه ابا عبد الله محمد الامين باي ، ووجَّه معهما ثقته المقرب لديه أمير الامراء ابا عبد الله محمد المرباط الغرياني ، والامير آلاي فليجي ابن الوزير جوزاب راف . وكاتب الوزير راف ، وكان بباريس هو وخير الدين ، ليكونا في خدمتهما .

وسافرا يوم الخميس غرة رمضان (3) السنة (17 ماي 1855 م) ، على طريق جنوة [في فابور المتجر] (4) .

(1) هو 21 حسب التقويم

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) هو 29 شعبان حسب التقويم

(4) الزيادة عن ع و ق .

وبقي الباى في قصره الجديد بحلق الوادى على فراش مرضه ، مشغول البال في النهار بأحوال العسكر والتدبير في لوازمه ، وإرسال من يحضر منهم الى اسلامبول ، وفي الليل يسمع كتاب « الشفا في التعريف بحقوق المصطفى » ، على عادته في رمضان . ولم يزل هذا دأبه الى يوم الاربعاء الرابع عشر (1) من رمضان (30 ماي 1855 م.) ، أصبح باكما في لجج سكرات الموت ، ووزرائه وخواصه محدقون به ، قلوبهم وحلة ودموعهم جارية ، يقدونه بأنفسهم لو يقبل الفداء . وبعثوا الامير أبا العباس أحمد زروق الى ابن عمه وولي عهده ، وهو في بستانه بالمرسى ، فأتى في الحين ومعه شقيقه صاحب الدولة الآن ، ابو عبد الله محمد الصادق باي ، وبقي معه الى العصر ، فقال : « أرجع الى محلي لانني ضعيف البدن بمرض » ، فطلب منه الوزراء ان يبقوا معهم أخاه ، ففعل .

وبقي الباى على حاله وجود بنفسه الزكية ، وأرجو انها رجعت الى ربها راضية مرضية ، نصف ليلة الخميس .

وتوفاه الله في عبادة ، وأمارات سعادة ، متمسكا بالعروة الوثقى ، والآخرة خير وأبقى ، فدفع الوزراء ختمه لابن عمه الحاضر وبعثوا لولي العهد فأتى ، وبايعوه البيعة الخاصة . وركب الى باردو ، ومعه الوزير مصطفى صاحب الطابع وأمير لواء العسّة فرحات والعبد الفقير ، لقبول البيعة العامة .

وبقي أخوه مع بعض رجال الدولة بحلق الوادى ، حتى حملوه فجر يوم الخميس ، في كروسة مغطاة بالصنّجق ، إلى داره بباردو .

ودفن صبيحة يوم الجمعة (15 رمضان — 1 جوان 1855 م.) بتربة آله ، على فخامة لم تعهد لمثله . وحضر جنازته العسكر بالسلاح منكّسا .

ولما خرجوا بنعشه من باردو أطلق منه مدفع ، وبعد دقائق يطلق مدفع ، إلى أن رجعت الناس من الجنازة ، بعد ان وضعوا ذلك الجسد على التراب ، والآمال سراب ، وكل ما فوق التراب تراب ، والدنيا أحلام ، والعمر منام . قابله الله بفضله وإحسانه ، وعفوه وغفرانه .

### حال هذا البسلى

كان كريما جوادا متلافا ، يعطي الجزيل ويحتقره ، عظيم النفس ، ما رأته مسّ ديناراً ولا درهما بيده ، الا في غرة محرم لما يتبدل طابع السكة لاجل تاريخ السنة . يُؤتَى اليه بجانب مضروب في اليوم فيحثو منه بيده حثو الثمرة ويعطي وزراءه والحاضرين من يده إلى أيديهم ، جذبا لقلوبهم وربطاً (1) وصلة به ، وهم يثيّمون بذلك على عادة عامة البلد في الثمار ، يشتهون أول مذاقها من يد كريم ، فيقيسون السكة الجديدة على بواكر الثمرات ، وما يبقى يأمر وزيره بتفريقه على من دون الحاضرين . وهو أول من ابتكر هذا الصنع في رأس كل عام . أعطى كثيرا من الرباع [والعقار] (2) لخاصته وأتباعه الذين اوقفوا أعمارهم على خدمته ، وبدلوا نفوسهم في مرضاته . ويقول : « ان الملوك حسبهم الملك وهو الجباية ، والرباع للمالكين من الرعايا ، ومن عمرانها تنمو الجباية » .

ودفع في مرضه مالا له بال [باعتبار ذلك الحال] (3) في دين على ابن عمته وولي عهده ، وقال لوزيره ابي النخبة مصطفى خزنة دار : « لا يستقر لي قرار وابن عمي مدين للوافدين من التجار ، واذا لم يكن عندي مال حاضر (4) فبيع ما تراه مما أملكه بما تسمع من الثمن ، فلا أتهنأ وابن عمي مدين » .

[وكان] عالي الهمة ، متعلق النفس بالمعالي تعلقا أفضى الى ضيق حال المملكة ، لانه طمع في الحاقها بالممالك المتسعة في القوة والحضارة والرفه في أسرع وقت .

ومن ايامه ابتداء التأنق والسرف في الكراريس والابنية الضخمة وغير ذلك مما يدعوه ترف الحضارة ، والناس على دين اميرهم . وهو الذي جعل نواشن الافتخار على اختلاف مراقبها ، وقبيلها منه الملوك وأعيان الوزراء والاكابر من غير المملكة . وبالف في كثرة إعطائها للناس حتى قال له دقرانج (5) مترجم سلطان الفرنسيين : « ايها السيد ، ان النيشان لا يعمل السلطان ، والسلطان يعمل النيشان » . [وارتمض لسماعها] (6) .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وقوة وصلة به » .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) كذا في خ ، وفي ع و ق : « واذا لم يكن عندك ناخ » .

(5) كذا في خ ، وفي ع : « داقرانج » ، وفي ق : « دقرانج » (Des Granges)

(6) الزيادة عن ع و ق .

وتغالى في هدايا الدولة العثمانية ، وقد كانت قبل من الموجود بلا تكلف ، وإذا قيل له ان هذا وأضعافه لا يظهر في عظمة الدولة العلية ، يقول : « نعم ، لكن الهدايا على قدر مهديها ، ونرى لنفسى شيئا من المقدار » .

[وكان] متواضعا ، على علو منصبه وعزة نفسه ، ما شم رائحة كبر ولا إعجاب بفعله .

بلغه ان مولانا الشريف عبد الرحمان سلطان المغرب عزم على عمل عسكر نظامي في مملكته ، وتوقف في المعلمين . ولم يسوغ<sup>١</sup> كونهم من الافرنج ولا من الترك ، للجهل باللغة من الجانبين ، [واختلاف الطباع] ، فقال نبعث الى تونس ، ففرح [الباي] بذلك وانتظر . ولا طال أمر الانتظار ، تحقق ان الخبر غير صادق وقال : « تمنيت لو وقع ذلك » ، ف قيل له : « ومن الذي تبعته ؟ » ، فقال بديهة<sup>٢</sup> : « ابعث الامير آلاي حسن المقرن ، ومعه ضباط من أشراف مساكن الدين بالعسكر . [وعدّ افرادا منهم مثل أبي الحسن علي بن عمر المساكني الشريف ، وغيره من اهل الحاضرة] ، واكاتبه بأننا بعثنا لشريف سلطنتك أشراف عساكرنا ، وجرايتهم علينا ، ونكتفي من فضلك بالقبول » (1) .

و[كان] وفي<sup>٣</sup> العهد وفاء<sup>٤</sup> لم يعهد مثله ، وكاد ان يرى جميع الناس مثله في الوفاء ، وهو الذي غره في محمود بن عياد وغيره . ولعله كان يظن ان الوفاء مقدّم على حفظ النفس والمال . سليم الصدر من الحقد والحسد . ومن صغر الهمة ، الحسد على النعمة . ما ظهر عليه انه تمنى زوال نعمة عن أحد ، بل يسوؤه زوالها بسبب سماوي .

إذا قال له أحد (2) في معرض الإغراء : « إن فلانا طغى [عليّ] (3) بماله ، يقول له : « زاد الله في ماله » ، وربما انتهره .

لم يتحيد على مذنب ، لا سيما إذا لame أو عاقبه ، ويقول : « مثلي معكم كالوالد مع بنيه ، والشيخ مع تلاميذه ، يربّي المذنب على قدر ذنبه ويصفح ، فإذا حَقَقَ يتحيد الابن وتحصل النفرة فتزول الفائدة » . بل ربّما استرضى من ربّاه ، على قدر حاله ، بأنواع من السياسة بديعة الاسلوب ، تسترق<sup>٤</sup> [أحرار] (4) القلوب ، وتنسى بالإحسان ، جميع ما كان .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) في ع و ق : « إذا قال له متظلم » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) الزيادة عن ع و ق .

[وكان] آية الله في الحلم والعفو بعد القدرة . اذا وقف الجاني بين يديه ، يريه من بروق الرعب ما يئأس به من السلامة ، ثم ينجلي سحابه عن عفو أو خفيف عقوبة . يعجن الى قبول الشفاعة في المذنبين [معه] ، وربما حض عليها وزيره [وابن تربيته] ، شديد الحزم ، ماضي العزم ، مقيلاً للعثرة ، مقداما ، سريع الفهم ، ثاقب الفكر ، ومع ثقب فكره لا يتظاهر بالرد على من تقدمه ، ويحترم احكامهم ، الا اذا وجب [في سياسته] نقضها ، فانه يبالغ في ستر ذلك ، ويعجبه قول المأمون لاييه الرشيد : « لا ترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك » ، ومصادقه ما تراه في أوامر قانون الزيت وأمثاله ، متغافلاً عن الزلة ، نزيه السمع عن عورات الناس ومثالبهم ، لا سيما في خاصته ورجال خدمته ، لا تحركه الوشاية ، بل ربما يفعل ضيداً ما قصده الواشي ، بعد عرضها على ميزان عقله ، فصيح اللسان مع شيء من الحبسة تعتريه وقت الغضب ، قوي الجنان في مزاوله المضلات ، شكورا لا تضيع عنده مزايا الرجال . رقي اعيانا من العرب (1) الى درجات ومناصب لم تخطر ببالهم ولا أملوها ، كأبي العباس صميذة بن علي بن عزوز بن عمارة بن دالية [عميد بيت بني رزق من دريد] ، و[وجيه العرب أبي محمد] قظوم بن محمد سيد قومه الفراشيش [وبيت قري الضيف] ، وأبي الفلاح الكاهية صالح ابن محمد الكلاعي ، وكان يشركهم احيانا في التدبير ، اغتباطا بهم ووثوقا بنصحهم ، وغيرهم من الرجال . محباً لاهل المملكة لا سيما الحاضرة ، يحسن لمحسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم ، غاض الطرف عن مساوئهم ، معينا لهم على نواب الدهر ، يعظم أهل البيوت ويعرف منازلهم [سواء كانوا بالحاضرة او بالخيام] . قال له بعض المتزلفين : « ان داركم أقدم دار بتونس » ، فقال له [بديهة] : « ان دار الرصاع ودار القكشانبي ودار القصار ودار العصفوري ودار الغماد وديار الاندلس أقدم من دارنا ، وكذلك بيوت بعض الاكابر من العربان » ، سمى منهم بيت السبوعي في جلاص وبيت جلال بن مسعي في الهامة .

يرى كل واحد من أبناء المملكة أهلاً لكل خطئة ، وموضعا للتقريب ، ولا يتعصب لصنف دون آخر ، لما في ذلك من انحلال العصبية وقطع سلكها ، ويقول : « أصل الملك محبة الرعية ، ولا محبة اذا وقع الالتفات لصنف دون بقية الناس ، واذا

(x) كذا في خ ، وفي ع و ق : « من عرب الخيام » .

انحلّت العصبية انحلت عُرَى الملك والمملكة ، فالواجب الانصاف بين افراد الناس من غير التفات لنسب ولو هاشمي ، ولذلك صاهر أبا عبد الله محمد الم رابط الغرياني من أعيان اكابر القيروان على أخته ، وكان سلفه يصاهرون مواليتهم لاسباب رأوها ، وكان الباشا علي باي بن محمد يصاهر كتابه باللغة التركية ، ومن ذريتهم اولاد ابن الخوجة واولاد الستاري واولاد ابن الكاتب واولاد مهنية وغيرهم ، [لا مطمح في هذه المصاهرة لعربي] (1) .

ولما أمرني بالكتابة الى اهل المجلس الشرعي ليأتوا للعقد توقفت ، فقال لي : « ما سبب توقفك ؟ » ، فقلت له : « أحسب في أيام العدة هل انقضت » ، وكان ذلك بعد موت زوجها رمضان باش مملوك ، فقال لي : « ظننت بك غير هذا ، ومالي لا أزوج أختي من رجل من بيوت بلدها جبرا لخاطر أهل المملكة حتى يرى الكفء منهم انه اهل لهذا التقريب ؟ » ، وأمر شيخ الإسلام أبا عبد الله محمد بيرم بانشاء خطبة ، [إظهارا للعناية ، وهو أول خطيب من الحنفية في مثل هذا العقد] (2) فأنشأ خطبته البليغة المشهورة ، ونص المقصود منها ، بعد حمد الله والثناء عليه وعلى رسوله وفضائل النكاح ، ما نصه : « هذا وما كان النكاح بالمحل الذي ذكرناه ، والمقام الذي شرحناه ، بحيث تبين انه من الدين ، وسنن سيد المرسلين ، وأمتن الله به في كتابه حيث قال : « كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ » (3) ، وكان ذلك من معلومات مولانا نخبة الملوك الاكابر ، ورقاة الآسرة والمنابر ، ووارث الملك كابر عن كابر ، صاحب الصيت الشهير ، الملك الافخم المشير ، ذي القدر المنيف ، الغني باشتهار مآثره عن التعريف ، صدر منه أيده الله الامر المطاع ، الذي يسرع إليه الاتباع ، بايقاع هذا العقد السعيد ، المزدوج لكمال المناسبة بيوم العيد ، المشرقة في سماء المسرة زواهره ، المنظومة بلبنة الايام جواهره ، بين عقيلة بيت الرئاسة ، المحرزة بأخوة مولانا الرتبة الشامخة من النفاسة ، رضيعة لبان المجد ، البالغة من الصون والعفاف إلى أبعد حد ، الحائزة بنسبها العريق في الملك الدرجة المعلومة ، الطاهرة الجلييلة السيدة قطومة ، وحليف المناصحة لمولانا في خدمته ، المثابر على مرضاته ولو يبذل مهجته ، المتغذي لكمال قرينه بلبان نعمته ، أحد كبراء

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) س 54 1/44 .

الاجناد ، القائمين بالمحافظة على عِمارة هذا النّاد ، الناصح الرئيس الضابط ، أبي عبد الله السيد محمد المرباط ، أمير الطائفة الخامسة من العسكر المحمّدي المنصور . وذلك لما رأى مولانا من تأهّل جيده للبس هاته القلادة ، وعدم قصوره عن أن يُعْمِل في المجد زناده ، لتدرّعه من عِراقة الاصل بسلاح ، وتدرّجه من بيت عِفّة وصلاح ، فشده ، أيده الله تعالى ، عَصْدَ رِفْعته بعلاقة المصاهرة ، ورصّع قاج عزّه بهذه الدّرة الفاخرة ، فتلقى النعمة قائما بشكرها ، وتلقف الامانة ملتزما برعيها وبرّها ، باذلاً لها من المهّز المناسب ما أوجبه الدين القويم ، وتضمّن تفصيله غير هذا الرقيم . قرن الله بالسعادة أوّل أمرها وآخره ، وعمّ ببلوغ المراد مستقبله وحاضره ، وهنأ مولانا الامير بما ملكه من هاته المملكة وخوّله ، وأضفى عليه لباس النعم وحلّله ، ووصل بالتوفيق والتسديد قوله وعمله ، وبلغه من الدنيا والآخرة أمله ، كما اختاره لحراسة هذا القطر وأهله . وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين .

وخطب بها يوم العقد في موكب مشهود ، وبنى الزوج بزوجه في داره بالمحمدية كأمثاله ، [حتى كان ما كان ، مما يأتي من حوادث الزمان] (1) .

ومن إنصافه أن أمير لواء العسّة أبا المسرة فرحات ، أحد أعيان مماليكه أناه يوما مخبرا بمملوك أتى هاربا يريد الخدمة بالصرايا ، فقال له : « يا بني ، ان القدر الموجود عندي فيه بركة ، وقد ربّيتهم كأولادي يعلمون طبعي وأعلم طباعهم ، وأي حاجة لي في أبني من سيده أدخله في مسكني ؟ ان شاء الخدمة فثبته في العسكر » ، فقال له : « هو صغير » ، فقال له : « فليكن في المسيقا » ، فقال له : « انه مملوك ، فكيف يكون في المسيقا ؟ » ، فغضب وقال له : « ان الناس عندي سواء ، واذا أكبرت المملوك عن المسيقا يلزمني أن أكبر عنها أولاد المملكة الذين أنا واحد منهم » ، وعدّد له أفرادا من أولاد المملكة بالمسيقا . ولما خرج ، قال للحاضرين وكنت معهم : « ان فرحات لم يشم رائحة السياسة ، ولو درى ما قال هذا الكلام في مجمع » ، فاعتذرنا عنه بكلام لم يترجّح في سمعه ولا قبيله بطبعه .

ومن أمثالها انه صلى الجمعة بجامع صفاقس لما توجه للأعراس ، وكان الخطيب يومئذ الشيخ الفقيه الخير أبو عبد الله حمد الفراتي ، فخطب بما أعدّ الله لامراء السوء

(2) الزيادة عن ع و ق .

الظالمين ، ونعى جور الجائرين . وكنت حذوه فرأى بوجهي أثر ذلك . ولا فرغ من صلاة السنة ناجاني بما لفظه : « لا يخلو ، اما ان أكون موقفا او غير موفق ، فان كنت موقفا فالحق ما قال ، لانه نقله عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وإن كنت غير موفق فلا أجعل نفسي معنى للمقاصد ، بل اقول مثله ، تبعيدا للتهمة عن نفسي » . ولم يُظهر للخطيب شيئا .

وقد فعل في المساعب مع سكان المملكة (1) من إعطاء القمح لضعفائهم مسويا في ذلك بين المسلمين واليهود والنصارى من رعايا الدول ، وكلمه في ذلك بعض خاصته ، فقال : « ان المهاجرين الى مملكتنا ، وان انتفعت المملكة بهم وانتفعوا بها ، نراهم كالضيوف ، وللضيف حق » .

وفعل مع سكان الحاضرة ، زمن مرض الكوليرا ، ما تحدثت به الرفاق ، وطار خبره للآفاق ، من إعطاء المسكن والكسوة للعراة ، والاطباء والادوية والاقوات .

وأعظم مزاياه على أهل بيته وقوفه في استمرار عادات وطنه مع الدولة العلية ، والمخاطرة بنفسه دون خرق سياجها ، معترفا بطاعة الدولة العلية ، كما تقدم في مكاتيبه للدولة ، وإن ندم على ذلك في آخر أمره ، لما فيه من شبه انقسام في الاسلام يوجب وهنا . وصرح بندمه مرارا لوزرائه ، مشفقا من ذنبه ، تائبا الى ربه . وأنا أشهد له بذلك بين يدي الله ، وهو أعلم به منا . وشاهد الحال يصدق هذا المقال . والله درُ القائل :

إن القيداح اذا اجتمعن فرآمتها بالكسر ذو خنق وبطش أيسر  
عزّت فلم تُكسر وإن هي بُدّدت فالوهن والتكسير للمتبدد

لكن التوبة مركبة من الندم ، بشرط الإقلاع ، وهو بشهادة الله مما استطاع .

وما خفي الرشد لكنّه أضلّ الخلوم اتباع الهوى

وعبد الشهوة أذلّ من عبد الرقّ ، ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، والله في خلقه أسرار ، وسبحان من أقام (2) العباد فيما أراد ، وهو اللطيف الخبير .

(1) كذا في غ ، ولى ع و ق : « مع سكان الحاضرة » .

(2) في غ و ع : « أقام العباد » ، ولى ق : « أوقع العباد » .



وكان ، ساعده الله ، نزيه النفس عن العقوبة بالمال ، وهو أول من أبطلها في المملكة ، اذ كانت بلا قانون يُعتمد ، بل كانت على قدر كسب المذنب ، وتارة تستأصله . حتى ان مشايخ توزر اذا تولى أحدهم يعتبر في مشاركة ولايته ما يقربه (1) من كسب المتولي قبله ، لانه يأخذه من محبسه ويحمله معه معتقلاً لبلده ، ويتنوع في تعذيبه ليُخْرِج منه المال ، وربما مات بعضهم بالعذاب . ومن العجب ان المتولي على يقين بأنه آيل لمثل ذلك يومَ عزله ، فاقتلع جرثومة هذه المفسدة والمعرة وقبح الاحدوثه ، وان كان والده ازال منها شيئاً .

ولا يقبل الهدية من العمال الا من دار بن عياد ، على كره منه ، إرضاءً له ، ويقول : « ان هدية العُمال فساد للأعمال » . ويقبل الخيل من أعيان العربان لما في طباعهم من الانفة لردّها ، وتطيره برداً ما سمّاه الله خيراً وعقده بنواصيها .

غضب مرة على أمير لواء عسكر غار الملح ، أبي الفلاح صالح بن عثمان شيبوب ، لاسباب ظهرت له ، فسجنه بمحله في صراية باردو ، ثم رأى بعض أهل الصرايا راكبا على مركوب له ، فاقشعرّ لذلك وقال لوزيره مصطفى خزنة دار : « إني رأيت فلانا راكبا على مركوب صالح » ، فقال له الوزير : « لا علم لي بذلك » ، فقال له : « سل عن ذلك ، فاني سجنّت الرجل عقوبةً ولم نرد أخذ شيء من ماله » ، فقال له الوزير : « إن كسبه بيد أتباعه ووكلائه ، وقد أوصيتهم بالاحتفاظ عليه حتى تعفو عنه ان شاء الله ، وإني في إعانتهم على حفظه من غير أن نسأل عن مقداره » ، فسُرّ بذلك ودعا له .

وكان يقول : « ان العقوبة بالمال تفتضي ان الحاكم يحب وقوع المخالفة ، بل كثرتها ، ليحصل المال المحبوب في طبع البشر . . والحاكم انما جعل وازعا لمنع وقوع المخالفة » .

وعلى نفرته من عقوبة المال ، فهو شديد في أمر الجباية ، لا يرى فيها رفقا ولا يسمع فيها شكاية متظلم ، غاض الطرف عن العُمال . جوابه للمتظلم : « اخلص فيما عليك مع اللّزام » . ومن يتظلم من سوء التقاضي ، جوابه : « اللّزام يعرف » . حتى قال لي بعض الخدّاق من الكتاب : « لو قال المتظلم يا سيدي ان اللّزام عرف وعمل بمقتضى معرفته ، وإني شاك من معرفته ، ما يكون جوابه ؟ » ، الى غير ذلك مما هذا سبيله .

(X) في ع و ق : « تقريب كسب من كان قبله » .

وهي من أعظم ما عُده عليه ، وجلّ من لا عيب فيه ، حتى آل أمرها إلى غنى امثال بن عياد ، ونقص واضح في عمران البلاد .

ومع ذلك لا يخلو عن إعمال الفكر فيما لا يقتضي فساد السواد الأعظم [من أهل المملكة] . قال له بعض وزرائه لما اشتد عسف اللزامة في شأن الجلد والدخان [وغيرهما] (1) - وفرض خسارته - : « لو جمعت هذا المال وزدت عليه مثله ووزعته على سائر أهل المملكة ، كان أنفع وأحسن » ، فقال له بديهة : « لا أعادي إفريقية في يوم واحد ، لأن كل من تطلبه يصير بطبعه عدوا ، وفي حالتنا الآن نوع تستر لا يقتضي اجتماع القلوب على النفرة في يوم واحد » .

ولاقى في ذلك مرارات المواعظ نطقا وكتابة من شيخنا العالم التقى أبي إسحاق إبراهيم الرياحي ، وكان يخشى دعوته ويهابه ، ونقص ذلك من شهواته بعض الشيء .

ومع ذلك كان مثبتا في الدماء ، يتخرج من قتل النفوس ولو قصاصا ، الا فيما يرجع للعصيان وتربية العسكر . حتى ان مستوجب القصاص يؤتى به آخر ديوان الحكم ، وتقرأ الحجة بمحضره جهرا ، ويأمر بنفوذ القصاص ، ويقوم فوراً ويبقى يومه مغموما [مكروبا] (2) .

وفي أيام مرضه وهو بالصالحية ، استوجب قاتلو المهندس بنوا الفرنسيين القصاص ، وكانوا أربعة ، فتخرج للباس ثيابه ، وأمر باحضار ديوان المحكمة ، فقلت له : « الظاهر ان هذا تعب زائد [وانت بحال مرض] ، فان القاتلين يؤتى بهم الى بيتك الذي أنت فيه ، وتأمر بما تراه » ، فتعجب من مقالتي وقال لي : « انها نفس انسانية يراد إقلاؤها ، ولا تقتل بني آدم في المقاصر من غير ديوان ، تعظيما لحرمة النفس ، أتراها دجاجة ايها الشيخ ؟ » ، فقلت له : « ان النفس لما قتلت نفسا أخرى ارتفعت عنها الحرمة وصارت كاللدجاجة » ، فقال لي : « هذا معتبر في القدوم على القصاص منها ، اما الاعتبار الديني فلا بد من ملاحظته » [وكان مَحْجَاجا] (3) ، فخرج ، ولم يحضر باش حانية الترك . ولما نادى رئيس البوابين باش حانية على العادة ، تقدم أحد الخوانب ثم تأخر ، ظنا ان المقصود ذات باش حانية ، فأمره بالتقدم وأولاه باش حانية في اليوم .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وكذلك فعل في قصاص آخر وهو [على مرضه] (1) بالصالحية في المحمدية .

يحمل الكلّ ، ويعين على نوائب الدهر ، ويرحم عزيز القوم . استأذنه ابو عبد الله محمد قرمانلي ، من بيت قرمانلي ملوك طرابلس ، وهو بمالطة في القدوم الى تونس [للسكنى بها ليدفن في مقابر المسلمين] ، فأذن له ، وقدم بابنيه أبي محمد حسن وأبي الثناء محمود ، وعظم مقدّمه وأجرى عليه جارية كافية . ولما توفي دفنه بتربة الملوك من بني أبي حفص بسيدى محرز . ولم تزل الجارية جارية على بنيه ، مع ما لهم من الإجلال والاحترام [المناسب لمقامهم] (2) .

وكذلك فعل مع أبي الربيع سليمان بن جلاب ، عزيز قومه في تقرت من بلاد الصحراء ، ويسمى بالباي ، وبيتهم من بقايا بني مرين ملوك المغرب ، كما ذلك في تاريخ الوزير أبي محمد حمودة بن عبد العزيز . وأجرى له جارية ، مع معاملته بما ينبغي لمقامه ، والوفاء له بما فعل جدّه مع جده ايام غربته . وهذا شأنه مع من كبا به جواده ، وتولى عنه اسعاده . وكثير منهم في الحاضرة ، كالتاجر أبي عبد الله محمد هارون الاندلسي ، وأبي عبد الله محمد البامري وغيرهما مما يطول تعدادهم .

[وكان] متألفا لرجال دولته ، آخذًا بمجامع قلوبهم ، يراهم كجوارح بدنه ، يسره ما يسرهم ويسوؤه ما يسوؤهم . يعود مرضاهم بنفسه او يبعث أحدا من خاصته ، ويأتي منازلهم لا سيما في رمضان ، ويقترح فيها ما يشتهي من الوان الطعام ، تأنيسا لهم . ويهش لكل واحد على قدر منزلته ، مانحا لهم حق التساوي في أصل عنايته ومحبته ، وان اختلفت كميتها (3) باختلاف الاوصاف ، بحيث لا تجد في رجال دولته من يرى نفسه مبعدا او مكروها . يتكلم مع بطانته تكلم الأكفاء ، ويباسطهم ويمازحهم ، فهو كما قال الشاعر :

أزال حجابي عني ، وعيني تراه من المهابة في حجاب  
وقربني تفضله ، ولكن بعدت مهابة عند اقتراب

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة من ع و ق .

(3) في ع و ق : « مقاديرها » .

ويتحمل مخاشنتهم له في النصيحة ، وإن لم يعمل بها ، لا سيما وزير الحرب أبو النخبة مصطفى باش آغة ، لأنه جِدِّي الطبع . وهو في قلوبهم أهيأ من أسد ، وفي أعينهم أعظم من أحد ، مع حب امتزج بالارواح ، امتزاج الماء بالراح ، لا تحرك رواسيه عواصف الرياح . ويقول : « ان الله لما توفي أبي عوضني من سميت أبا وهو مصطفى صاحب الطابع ، وأخا هو مصطفى وزير الحرب ، وابنا هو مصطفى خزنة دار . والوزراء أعضاء ، والإنسان لا يتألم من أبيه وأخيه وابنه وأعضائه ، والعامّة تقول : من تضربه يده لا يتوجع ، لا سيما وقبول النصيحة أو تركها بيدي » .

ولما توفيت والدته أراد التصديق عليها بتسريح [بعض] (1) المسجونين في الديون ، فأمر أبا محمد خير الدين أمير لواء الخيالة ان يحصيهام لذلك ، فأحصاهم وقال له : « ان جميع المسجونين او اكثرهم في سجن العمال واللّزامة ، وهذا زمامهم » ، فارتضى لذلك وقال له : « خذ من الوزير ما عليهم وادفعه عنهم » ، مع انه انما أمره باحضاء الدين لا بسببه ، ولم يظهر له تغيرا من ذلك ، لانه كان يستنجه ويقربه .

وكذلك لما هرب ابن عياد وبقيت خططه شاغرة . قال لوزير خزنة دار : « تكلم مع خير الدين يباشر أحوال رابطة الطعام (2) » . ولا كلمه ، امتنع وقال : « إن اردتم مني ان أباشر مثل ابن عياد فطبعي . ينعني من ذلك ، وما بالذات لا يتخلف . وإن أردتم أن أباشر بما يقتضيه الحق والعقل ، ربما ينقص من دخلها نقص فادح يشين عرضي » . ولما بلغ ذلك للباي قال : « صدقني » . ولم يتغير ولا نقصت منزلته عنده .

وكذلك عرض ولاية الدخان على أبي عبد الله محمد [خزنة دار] (3) عامل سوسة ، فامتنع مدّعيًا بأن أوقاته مستغرقة في خدمة أعماله ، ولا يمكن ان يقبل ذلك الا بنقص من خططه . ولما بلغه ذلك ضحك وقال : « ليس هذا علوه ، وانما علوه هو علو خير الدين ، لكنه غطاءه بسياسة » . ولم يتغير ولا نقص من تقريه ، بل زاد في حظوته .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) هي ادارة مطامير خزن الحبوب للدولة ، وهي خادج باب سمعون ، بقى اسمها الى الآن ، حيث المستشفى المعروف بهذا الاسم اليوم .

(3) الزيادة عن ع و ق .

ونخواصه يتحققون منه هذا الخلق الكريم [من محبة شيعته وذويه] (1) ، حتى ان صميذة بن علي بن عَزَّوَز لما توفي بتونس ، أمر الوزير بكتمان ذلك عن الباي ، خوفا عليه من انفعال مزاجه بالحزن لفقده ، وهو في فراش مرض .

ومن تألفه لرجال دولته انه لا يحجب والدته عنهم ، ويقول لهم : « هي أمي وأمكم » . ويوم العيد يأتي بهم اليها ويقول لها : « أولادك أنك ، وأنا اكبرهم ، للهنا بالعيد » ، فتدعو لهم وله . ومَرَضَتْ فلزمها تبديل الهواء ، واشتهد أن تكون بحلق الوادي ، فقال لها بديهة : « تكوين في دار ابنك وزير البحر محمود بن محمد كاهية ، وديارهم انما هي بيوت من داري » ، فحملها الى داره وبقيت مدة هي أم الدار وآله كبناتها وخدمها . وتكرر نزولها بدار الكاهية .

ولما جذب للبحر الجفن الذي أنشأه بحلق الوادي أيام مرضه كما تقدم ، اقترحت عليه أخته الصغرى ، زوج الوزير أبي النخبة مصطفى خزنة دار ، أن تشاهد ذلك [فأسعفها لانه يصطفئها] . وكانت والدته بحلق الوادي في دار الوزير المذكور ، فأتى بها اليها وباتت ليالي . وهو أول ملك باتت أمه وأخته في دار وزير غير محرم ، [الا انه لم يدخل الدار] (2) .

وفي أيامه استعفى وزيره في الامور الخارجية ، وهو خادم ابيه ، وعمه من الرضاع ، الكنت جوزاب راف ، لمكاملة وقعت بينه وبين قنصل الدولة الفرنسية الكولير دي لقو ، فظهر له ان يسلم في الخدمة ويسافر لباريس لمحاكمة القنصل ، فاستعظم طلب الإعفاء وكاد ان يعده ذنبا ، فقلت له : « يا سيدي ، ان الامور لا تتوقف على أحد » ، فقال لي : « أنت لم تصل لهذه المتلة عندي إلا بعد سنين ، فاذا فقدت لا بد من سنين يحصل فيها مثلك » ، فقلت له : « لم تخل المملكة من رجال تتقوم بهم خططها » ، فقال : « نعم ، ولكن مرادي الامتراج ، وهو لا يحصل دفعة » ، وأنا رجل في أسر مألوفه ، وقد ألفتكم وألتموني . نسأل الله ان لا يفرق جثعتنا » . وكاتب الوزير المستعفى بما معناه [لانه لم يحضرني لفظه] : « أنت حر تفعل في نفسك ما تراه ، ولست أراك خديما حتى تستعفي ، إنما أنت شيء ورثته من آباي ورضيع أبي ،

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وأنت تُقرُّ بذلك ، ولك عليّ بهذا حق لا أستطيع جَحْدُه . فعليك أن لا تستعفي ، وعليّ ان لا أعفيك » . إلى غير ذلك مما ألجأ الوزير إلى ان جاء متنصلاً من فعلته ، قائلاً : « إن مثلك لا يستعفي العاقل من خدمته ، وأتحمل لاجلك ما عظم عليّ احتماله ، ولو نزعت مني خطتك ما فارقت خدمتك » . إلى غير ذلك مما خصه الله به من مغناطيس قلوب الرجال ، فهو مصداق قول القائل :

عليك محبّات القلوب تهافتت كما حول بيت الله يجتمع السّفَرُ  
وما حبّهم كان اختياراً وإنما لحبك من يبصير سجاياك يضطرُّ

وله في تعظيم الجناح النبوي والادب معه آثار مشهورة . مدحه شاعر ، وهو احمد فارس (1) صاحب الجوائب ، بقصيدة عارض بها قصيدة كعب بن زهير في المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهي « بانث سعاد » المشهورة . فلما قرأت مطلعها بين يديه ، اقشعر وقال لي : « هذه معارضة لبانث سعاد ؟ » فقلت له : « نعم » ، فأمر للشاعر بجائزة سنية ، وقال لي : « مزّقها الآن » ، فقلت له : « بعد قراءتها نمزّقها » ، فحلف بالله « لا نسمعها ولا يسمعها أحد من خاصّتي » . وبقي يستعبد بالله أن يعارض مدح المصطفى بمدحه ، مع انه لا محذور في ذلك . لكن الاعمال بالنيات ، ونية المؤمن خير من عمله .

ومن آثار ذلك محبته في آل البيت النبوي وتعظيمهم والتشيع لهم ببرّه وصِلاته . وكان يسمّي ما يعطيه لهم « هدية » ، ولا ينطق بلفظ الإحسان على عادة بلدنا في تسمية جوائز الملوك إحساناً أو صدقة ، تفرقةً بينهم وبين غيرهم ، ويقول : « قبولهم مني إحسانٌ لي » .

وقال له بعض الوشاة : « ان الشيخ محمود محسن لا يحبك ، ويذكرك بسوء ، ويحب ابن عمك » ، فقال : « ما أبعدني لو أحبني ، وان كان لا يحبني فماذا أصنع مع ابن علي وفاطمة رضي الله عنهما ؟ » . وزاد بعد ذلك في مبرّته وإكرامه . وقلت له : « أترى ان ابلغ للشيخ [من تلقاء نفسي] (2) ما بلغك ؟ » ، فقال لي : « والله ان الخبر لم يصبح عندي ، ولا شك ان سماعه يسوؤه ، ولا أرخص لك في إدخال إساءة على شريف » .

(1) الشدياق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وكنيت في بعض الاحيان اقول له : « ان غلو سيدنا في السادة الاشراف غلو شيعية » ، فيقول لي بديهة : « لا اعتقد بخلاف مذهب أهل السنة في تقديم الخلفاء الراشدين على حسب تقدمهم ، ولو كنت حياً يوم الجمل ويوم صفين ، أقاتل مع سيدنا علي ، محبة في آل بيت الرسول ، وان آخذني ربي بذلك فأرجو رحمته على ما خلقه في » .

وكان محباً للعلم ، معظماً للعلماء ، عارفاً بمنازلتهم (1) ، ذا وكوع بفن التاريخ . قرأت بين يديه كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة مرارا متعددة ، وكتاب المنتظم [في اخبار الرشيد والامين والمأمون والمعتصم] (2) ، وغيرهما من كتب التاريخ الاسلامية ، واذا ذكرت له مقدمة ابن خلدون ، يقول لي : « نعرفها » ، ويستشهد منها بما يوافق غرضه . وتاريخ نبلون الاول المعروف (3) .

وكان يتأسف على ضياع شبابه في غير طلب العلم ، وهو بشهادة الله موضع أسف لمن علم فطرته السليمة وفكره الوقاد . ولذلك اجتهد مع ابناء تربته ومماليكه بالصرايا في تعليم القرآن والكتابة ، وضم اليهم شيخ تجويد . وضم الى ابن تربته ووزيره أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، الشيخ العالم أبا زيد عبد الرحمان الكامل ، والفقيه ابا النخبة الشيخ مصطفى بوغازلي الحنفي ، فأخذ عنهما ما حصل به مشاركة . ولذلك ترى غالب مماليكه فصحاء يجيدون القرآن (4) ويحسنون الكتابة .

[وكان] معتقدا في الصالحين ، يحب مجالسة أهل السلوك منهم ، كالشيخ أبي النخبة مصطفى بن عزوز ، ويتباعد من المجاذيب مع تعظيمهم واعتقادهم ، ويشتهي معرفة الخلدان منهم ومن غيرهم . وكثر ذلك أيام مرضه حتى آل به الحال الى استكشاف عاقبته من العزامين على اختلاف أصنافهم ولو من غير أهل الملة . وفي المثل : « الغريق يتمسك بشجرة » .

وكان وزيره خزنه دار يُجِلُّ مقام سيده عن ذلك ، ويباشر هؤلاء بنفسه ، راضيا بنسبته إليه دون سيده ، وان كانت حالة سيده تنافي ذلك [التستر] (5) ، لانه سوي

(1) في ع و ق : « عارفا بما لهم من الفضل » .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) « المعروف » في خ ، و « المعروف » في ع و ق .

(4) كذا في خ ، وفي ع : « يجيدون القراءة » وفي ق : « يجودون القرآن » .

(5) الزيادة عن ع و ق .

الظاهر والباطن ، صادق اللهجة ، مترفع عن ضده ، ويقول : « لو كان الكذب مباحا ما حسُنَ من مثلي ، لأن سببه في الغالب الخوف » .

[وكان] شديدا في مواضع الشدة ، هينا في مواضع اللين ، له شيء من الاوبة الى الله عند سماع الموعظة ولو من غير أهلها . دخلتُ اليه في ليلة من رمضان ، قبيل وفاته ، لقراءة « الشفاء » ، فوجدته على فراشه واجما مطرقا مفكرا حزينا ، ووزيره جالس بين يديه ، فقلت له : « لا بأس عليك ، مالي أراك مطرقا ؟ » ، فقال : « لما أنا فيه ، أنا الآن نصف إنسان ، طريق فراش ، أتوقع ان أكون كلاً على من يحبني ، ومحمود بن عباد في فرانس يخاصمني على مالي بمالي » ، فأردتُ تقوية قلبه وقلت له ، على غير سنن الادب الواجب على مثلي للمثله : « أي شيء جرى لك ؟ » ، فأجابني بصوت شجي : « أتحب لي أكثر من هذا ؟ » ، فقلت له : « اشكر الله يا سيدي ، ففي الحديث الشريف : ما من مصيبة الا وعند الله أعظم منها ، وأعظم من فقد اليد والرجل ، فقد العقل ، وفقد اللسان ، وتفرق الخاصة ، وانجلال الحامية ، وثورة العامة ، وصوله البغاة ، وانقطاع الجباية ، وغلبة الدين ، وقهر الرجال ، الى غير ذلك مما يهون هذا الحال ، وأنت على ما أنت تبعث في الجيوش من المغرب الى المشرق ، والكلمة مسموعة ، والامر مطاع ، والرعية في حزن لمرضك ، والدولة دولة ، وقد ابقى الله عليك نعمة العقل . وان هروب ابن عياد لم تهرب به المملكة . ومتى احتاجت الناس لقوة بدئك وسرعة مشيك ؟ فان تيمورلنك أخذ الاقطار وهو نصف إنسان محمول على أعناق الرجال في الحروب . فالواجب عليك يا سيدي شكر الله تعالى القادر القوي ، فاني أخشى اذا لم تقبّد نعمته بالشكر ، يرسل علينا نقمة أشدّ مما نحن فيه ، والله على كل شيء قدير » ، فبكى ، رحمه الله ، واسترجع ، وقال : « يا ربي إنني نائب اليك ، راضٍ بما حكمت به عليّ ، نشكرك على نعمتك » . ثم أمرني بالقراءة ، ولم يزل نادما مستغفرا من مقالته .

والحاصل من ترجمة هذا الامير انه ذو همّة عالية ، استصغر بها ما أقامه الله فيه ، فحمل هذه الإيالة ، على ضعف حالها ، وضيق مجالها ، ما لا طاقة لها به من التقدم في ترف الحضارة ، والاستكثار من الجند ، والإفراط في تكثير قادتهم ، وغالبهم أسماء بلا مسميات ، مع التفتن في الكرم الخاتمي ، فجاد وما لديه قليل .

وَأَتَعَبُ خَلَقَ اللَّهُ مِنْ زَادِ هَمُّهُ وَقَصَرَ عَمَّا تَشْتَهِي النَّفْسُ وَجَدُهُ



إلى غير ذلك من مقتضيات علو النفس [والإمرة] (1) المطلقة ، حتى تجاوز الحدود ، وهو نقصان من المحدود ، والتقدم للغاية تأخر عنها ، والزيادة على الكفاية نقصان منها ، ولا يخلو الانسان من ودود يمدح ، وعدو يقدر .

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نَبَلًا أَنْ تَعْدَّ مَعَايِهِ  
وَمَنْ الَّذِي مَا سَاءَ قِسْطٌ وَمَنْ لَهُ الْحَسَنَى فَقِطْ ؟

وإذا تتبع المنصف ما له وما عليه ، يجد سيئاته مغمورة في حسناته ، « والحسنات يذهبن السيئات » . وأرجو الله ان يكون من الذين « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » . وناهيك انه لم يترك على البلاد تباعة . وبعض الشر أهون من بعض . ومن استبطنه وخالطه ، يعلم ذلك علما يقينياً . ولا أزكيه ، وقد ذهب الى ربه العالم بما أودع فيه . وهذا بموازنته مع مَنْ تقدمه من غالب آل بيته ، وأمثاله من ذوي الملك المطلق ، والا فالكمال وراء ذلك كله لله .

ومن مآثره قصر باردو وقشله ، وابنية المحمدية والصالحية بها ، [وليتها لم تكن] ، وقصر حلق الوادي وجامعه ، وقشلة الطبجية ، وقشلة الخيالة [بمنوبة] ، وقشلة غار الملح وتوابعها من المباني ، وزاوية أبي مدين الغوث ، وزاوية على ضريح المجذوب الحاج فرج امام سيدي عبد الله الشريف ، وزاوية لمقابر الاشراف قرب دار المملكة بيطحاء القصبة ، وأعجوبة دار الملف [على وادي مجردة] (2) ، وغير ذلك .

وهو الذي رتب وجقا من البصباحية بسوسة والمنستير ، وجقا بقابس قاعدة وطن الاعراض ، وجقا بالجريد ، وكلها محتاج اليها فيما يراد منها . وغير ذلك من المآثر الواضح في الجامع الاعظم خبرها ، وعلى العلم والعلماء والاشراف أثرها .

واتفق ليلة الاربعاء الخامس عشر من رمضان ان كان درس الشفاء فصل « ومن توقيره صلى الله عليه وسلم برُّ آل له وذريته » . واستزاد القراءة في تلك الليلة ، ومهما أردت القطع يشير علي بالزيادة ، [تلذذا بفضائل آل رسول الله صلى الله عليه وسلم] (3) ، الى أن ادرك منا التعب .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

واصبح نهار الاربعاء باكما يعالج سكرات الموت ، ووزراؤه وخواصه محذقون به ، قلوبهم وجلة ودموعهم جارية ، يفلدونه بأنفسهم لو يقبل الفداء ، إلى آخر ما قدر له من انفس المدي (1) .

وبعثوا [الامير] أبا العباس أحمد زروق الى ابن عمه وولي عهده ، وهو في بستانه بالمرسى ، فأثى في الحين ، ومعه شقيقه صاحب الدولة الآن ابو عبد الله محمد الصادق باي ، وبقي الى العصر ، ثم قال : أرجع لمحلي لاني ضعيف البدن بمرض ، فطلب منه الوزراء ان يُبقي معهم أخاه ، ففعل . وبقي الباي على حاله وجود بنفسه الزكية وهو في السكرات ، الى آخر ما قدّر له من انفس الحياة ، نصف ليل الخميس . وتوفاه الله في عبادة ، وأمارات سعادة ، متمسكا بالعروة الوثقى ، والآخرة خير وأبقى . فدفن الوزراء ختمه لابن عمه الحاضر ، وبعثوا لولي العهد فأثى ، وبايعوه البيعة الخاصة . وركب من فوره الى باردو ، ومعه الوزير [مصطفى] (2) صاحب الطابع ، وأمير لواء العسة فرحات ، والعبد الحقير . وبقي أخوه مع الوزراء ورجال الدولة في حلق الوادي ، حتى حملوا الميت فجر يوم الخميس ، في كروسة مغطاة بالصنّجق ، الى داره بباردو . ودفن صبيحة يوم الجمعة ، حنو أبيه بتربة آله ، على فخامة لم تعهد مثله . وحضر جنازته العسكر بالسلاح منكسا . ولما خرجوا بنعشه من باردو أطلق منه مدفع ، وبعد دقائق أطلق منه مدفع آخر . وهكذا الى ان رجعت الناس من الجنازة ، بعد ان وضعوا ذلك الجسد على التراب ، والآمال سراب ، وكل ما فوق التراب تراب ، والدنيا أحلام ، والعز منام .

قابله الله بفضله وإحسانه ، وعفوه وغفرانه ، وهو الغفور الرحيم .

انتهى الجزء الثاني .

(1) الى هنا ينتهى نـ ، والفقرات الاتية من ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع .

البَيِّنَاتُ السَّابِقَةُ  
فِي ذَلِكَ

الْمَشِيرُ الْبَاسِطُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ

ابْنِ حُسَيْنٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ حُسَيْنٍ بْنِ أَبِي بَكْرٍ



مولده في شعبان من سنة 1226 ، ست وعشرين ومائتين والـف (اوت – سبتمبر 1811 م.) ،  
وأمه حفيدة عثمان داي الشهير الذكر .

قرأ شيئاً من القرآن في أوائل سنه على الشيخ المجود أبي العباس احمد السنّان ثم على  
الفقيه أبي محمد حسن التطاوني .

وتدرب في الفروسية والرماية والنسج على منوال الشهامة .

ولم يعرّج به والده على شيء من طرق التهذيب وأخلاق الكمال (1) التي يجب  
أن يتعلمها مثله من أبناء الملوك ، فكان على الفطرة ، الى الامية أقرب .

وسافر بالمحالّ في حياة عمّه الباشا أبي النخبة مصطفى باي ، وهو الذي رقاّه عن  
حالة الطفل [كما تقدم في الباب الخامس] (2) .

وسافر في دولة ابن عمّه المشير ابي العباس أحمد باي ، مرضي السيرة ، محمود  
السريّة . واستغنى من السفر ، كما تقدم في الباب السادس .

ولما توفي ابن عمّه المشير أبو العباس أحمد باي ليلة الخميس السادس عشر من  
رمضان سنة 1271 ، إحدى وسبعين ، كما تقدم ، استقدمه الوزراء ورجال الدولة من  
بستانه بالمرسى ، فقدم لحلق الوادي وقت السحر .

ولما دخل البيت ورأى ابن عمه طريحا على الارض ، وعند رأسه شيخنا العالم الفاضل  
الصالح ابو عبد الله محمد بن ملوكة ، بكى واسترجع وقال للحاضرين : « كأنني ملقى  
على الارض كأخي هذا » .

ويقال انه نَمى إليه من بعض من له أثارة من علم الحدثان ان مدة ولايته قصيرة  
كجده الاعلى سَمِيّة .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « وأخلاق السياسة » .

(2) الزيادة من ع و ق (انظر ص 197 ج 3) .

ولما بايعه الحاضرون البيعة الخاصة ، قال لهم : « ان بيتنا لا يصلح إلا بكم ، كما انكم لا تصلحون الا ببيتنا » . وفي الحين كاتب الداي وأهل المجلس الشرعي وأمراء العساكر ومشايخ الحاضرة بوفاة ابن عمه وقيامه مقامه .

ودفع له أخوه الحاضر على الوفاة صاحب الدولة الآن خواتم الميت المؤمنة عنده بحضرة الجماعة . ولما أخذها ، أمره أن يبقى مع الوزراء ليأتي بالميت . ونهض الى باردو [فوصله عند الشروق] (1) .

ولما دخل البيت بباردو بكى ، ولم يجلس في موضع ابن عمه ، فتقدم له بعض الحاضرين وقال له : « وددنا ان صاحب هذا الموضع لم يمت ، ولما اصبنا بموته لا تطيب أنفسنا الا بجلوسك في موضعه » ، وأخذ بيده وأجلسه في الموضع .

ولما تجلى النهار ، بلغ الخبر للحاضرة ففرع من بلغه الخبر الى البيعة .

ومن الغد جاء أهل الحاضرة [على العادة] (2) للبيعة العامة .

وقدّم أخاه أبا عبد الله محمد الصادق باي للسفر بالمحال\* ، وألبسه نيشانه . وسرّح أبا عبد الله محمد بن عثمان باي من محبسه بالدار الكبيرة في باردو .

وكاتب جهات المملكة بوفاة ابن عمه وولايته ، فتسابقت البلدان والعروش للبيعة ، طائعين مستبشرين ، على العادة مع كل جديد . وأقرّ الوزراء ورجال الدولة على مراتبهم .

وقال له الوزير أبو النخبة مصطفى خزنه دار : « ان شرفي هو خدمة بيتكم ، لاني نشأت في داركم تحت ظلال نعمتكم ، فنطلب من فضلك ان تحاسبني على جميع ما جالت فيه يدي » ، فقال له : « أنت ثقة مصدق أمين » ، فألح في طلب ذلك ، فأمر أبا عبد الله محمد عامل الساحل بمباشرة حسابه ، فأحضر كُتّابه وقُباضة ودفاتره وأطلع على المقبوض والمصروف . ولما تمّ تلخيص الحساب ، جاء به الوزير مع [أعيان] الدفاتر الى الباي ، وقال له ، بمحضر الوزراء ورجال الدولة : « هذا حسابي ، قبضت في مدة خدمتي ما هو مرقوم في هذا التلخيص ، وصرفت في المدة ما هو مرقوم ايضا ، وكان المصروف أكثر ، وأنا غير طالب له ولا دفعته من مالي ، وليس على دولتكم المباركة

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

دَيْن » ، فقال له بعض الحاضرين من الوزراء بديهةً من غير روية : « أنا أول قادح في هذا الحساب ، ومن أين جاءت هذه الزيادة ؟ » ، فأجابه الوزير بلين وسياسة : « لك ان تنظر في فصول القبض هل نقص منها شيء ، وفي فصول الدفع هل زاد فيها شيء ، وما وراء ذلك [لا تسألني عن] (1) نتيجة أصابعي ، ولي ان أطلبه لو استحللت الخيانة . ولهذا أثبت بالدفاتر ليطلع عليها كل من يريد الانتقاد » ، فخرج القادح ، واستصوب الحاضرون الجواب ، لان وراءه العيان . وقال الباي ، منكرا على القائل : « إنا نعلم ذلك » . وأخذ الأزمّة وصحّحها بخطه في ذلك الجمع ، بعد أن اطلع على تلخيص جوامعها ، فقال له بعد ذلك : « الآن أجدّد خدمتي لسيادتكم على اساس صحيح » ، فدعا له الباي .

وبعد ذلك جعل [هذا الباي] (2) مناطَ نظره التخفيف من الجباية ، والضرب على ايدي العمال . وذلك ، بشهادة الله ، هو الاصل الاصيل في سياسة الممالك ، شرعا وعقلا وطبعاً ، لا سيما في هذه الإبالة المسكينة .

وأسقط من الجباية المرتبة على بيع الحيوانات والانعام اكثر من نصفها ، وقد كانت ربع الثمن .

وأبطل حرساً بأبواب البلاد يفتشون الداخل بها خشية ان يكون عنده الدخان او غيره من الاشياء ، الى غير ذلك مما كان ينقمه على ابن عمه لِمَا يسمع فيه انكار الناس . وتجاهر بذلك تجاهر القادر على تغيير المنكر .

وكاتبه ابو محمد خير الدين [من باريس] في شأن اقتراض المال المأذون فيه من ابن عمه ، فكتب له بأن لا يفعل ، وقال لي اكتب له : « صَبَرْنَا على أنفسنا خير من صبر الناس علينا » ، بهذا اللفظ . وشكر خير الدين في عدم الاستعجال ، [والعجلة والندامة فرساً رهان] (3) ، وأنقذ بها البلاد من هاوية ، وان أوقعها في مثلها غلطا ، كما سيأتي ان شاء الله تعالى . ومن صبا الى الشهوات ، اعقبته البليات .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ورأى هذا الباي ، بحسب نظره ، ان معنى الملك هو انتصابه كل يوم بالمحكمة لفصل المنازعين كصاحب الشرطة ، وكان ينكر على ابن عمه عدم مباشرة ذلك ، ويراه من التفريط ، لانه لم يتوصل لسبب ذلك .

وأحزمُ الناس من لم يرتكب سببا حتى يفكر ما تجنسي عواقبه

وانتدب الوزير ابا النخبة مصطفى صاحب الطابع للخدمة ، وتقدم ، وظهر منه ما يُنكر على كماله ، من الاستعجال بالاعتراض على أمور سلفت كان ينقمها على الوزير خزنه دار ، وهي في الحقيقة صادرة من ابن سيده وابن تربيته أحمد باي ، وحجبه عن ذلك ما يحول بين المرء وقلبه . وقوة الامراء ، تجعل الاوزار على ظهور الوزراء .

ورام هذا الباي اجراء الناس على السذاجة المتقدمة وعادات المسلمين ، وإن خالفها في نفسه وحاشيته وذويه ، فقدّم [صهره] (1) أبا النخبة مصطفى بن محمد بن محمد بن محمد يرم محتسبا (2) فرام تغيير المنكر وحمل الناس على ما رآه من الحق جملة . ولا يخفى ان ذلك كان متعلّفا في الصدر الاول ، فضلا عن هذه الاعصار . قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لابنه : « نخشى ان نحمل الناس على الحق جملة فيتركوه جملة ، وإن الله ذم الخمر مرتين وحرّمها في الثالثة » .

ثم أمر باحضار ما وجده من العسكر والمهمات والخيول مهيا لإعانة من في خدمة الدولة العلية من العساكر التونسية ، وتوجه لخلق الوادي يوم الخميس الرابع عشر (3) من شوال السنة 1271 (28 جوان 1855 م) ، وحضر لركوبهم في البحر ، ورجع في يومه وترك وزير الحرب ابا النخبة مصطفى حتى تمّ ركوبهم ، وشحن لوازمهم .

واختار ابا عبد الله محمد عامل الساحل لسفارة الدولة العلية ليأتي له بفَرَمَان السلاطنة على العادة . وبعث معه جانبا من المال ، لإعانة للدولة . وأوصاه بأن يُشيع بأنه عازم على القدوم لاسلامبول .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) أي قاندا بوظيفة المسببة

(3) هو 12 حسب التقويم .



وسافر يوم الاثنين الخامس والعشرين (1) من شوال السنة 1271 (9 جويلية 1855 م.) ، وأصبحه الوزير مصطفى صاحب الطابع ، ابنه أبا عبد الله محمد رشيد كأحد أتباعه ، وأمرني بالكتابة للدولة بما نصته :

« اللهم بالثناء عليك نتقرب اليك ، وبالصلاة على رسولك وخلفائه المتناسقين ، نسلك سبيل المتقين ، وبشكر نعمك ، نقرع باب كرمك ، وهو باب الدولة العلية العثمانية ، والسلطنة المجيدية الخاقانية ، المخدمومة بالاعمال والنية ، المقصودة لبلوغ الامنية ، الوارد فضلها على الاقطار من كل ثنية ، والشمس عن مدح المادح غنية ، وكفاها أن رفعت من الملة الخفيفة أركانها ، وأقامت للحق قسطاسا وميزانا ، وروت أحاديث العناية الربانية صيحا حسانا ، وورث ملوكها الارض وهم الصالحون سلطانا يتبع سلطانا ، من سمي ذي النورين الى من اختاره المجيد سبحانه لعباده ، وأقام به شعائر دينه وفروض جهاده ، وتولاه باعائه وإسعاده ، وسيّر على يده مصالح أرضه وبلاده . لا زالت القلوب بطاعته مؤتلفة ، والسيوف والاقلام بخدمته متصفة ، والالسن في الإقرار بعجزها عما يجب له منصفة . وبما ذا أحسسي تلك الحضرة العلية الشامخة ، والقدم التي [هي] في كل فضل واسخة ، ضاق نطاق العبارة ، ولم يبق الا مسلك الإشارة ، بالرجوع إلى السنة ، ونحية أهل الجنة ، السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله ، من عبد نعمته ، العاكف مذ نشأ على خدمته ، محمد ابن خديم الدولة حسين باشا باي .

أما بعد ، فالمعروض على تلك الحضرة ولها طول العمر ، ونفوذ الامر ، أن رهين نعمتكم ، وعبد طاعتكم ، وعاشر هذا البيت في خدمتكم ، ابن عم عبدكم ، ومقام أخيه المشير أحمد باشا باي سار (2) الى عفو الله فداء الحضرة السلطانية ، متزودا بما مات عليه من طاعة الخلافة وخدمتها بالعمل والنية ، وفي الحين بادر أهل الإيالة التونسية عموما وخصوصا ، وكانوا بنيانا مرصوبا ، إلى هذا العبد الفقير وألقوا إليه مقاليد أمورهم ، والنظر في حفظ مفردهم وجمهورهم ، فقام العبد بما وجب عليه من جمع الكلمة الاسلامية ، والدعاء على المتأبر للسلطنة المجيدية ، راجيا رضى الخلافة في تأمين البلاد ، وزوال روعة العباد ، وسد طرق الفساد ، واعتصمنا بحبل الله جميعا ، ولبي العبد الفقير سلطتكم

(1) هو 23 حسب التقويم

(2) في ع و ق : « صار » .

سامعا مطيعا ، على عادة أسلافه الخُدَّام ، مع السلف الصالح السلاطين الكرام ، ووسيلةُ هذا العبد انه نشأ في ظل سلطنتكم ، وتغلَّي بِلِبانِ نعمتكم ، وتعرف من نعمكم الانواع والاجناس ، واستنضاء من عنايتكم بنور يمشي به في الناس ، والكرم يرى لسالف الخدمة ، تَأَكُّدَ حُرْمَةِ ، وقد تُرَجِّى العنايةُ من ذلك الباب ، اعتمادا على فضل ذلك الجناب ، ولا يمتُّ بغيره من الاسباب ، وعادات السادات ، سادات العادات .

والامل أن تزيد خدمة عبدكم على خدمة من مضى ، حتى يرى من ظل الله الرضى . والله يعاملني بنيتي ، فيما عرضتُ من أمنيته ، قبل حلول منيتي .

وقد ابتدأ العبد خدمته بما كانت اليد فيه مع من تقدم واحدة ، والقلوب والجوارح عليه متعاضدة ، وهو إرسال طائفة من العسكر إعانةً لتلك الفئة القليلة التي تقدمت ، وبحسن القبول قوبلت ، والامل الذي عليه الموعول ان يشملها [من] الفضل [ما شمل] (1) الاول ، ومعها جهد المقلِّ ومنتهى طاقة الضعيف وعلى قدر المهدي الهدية ، في هذه الإعانة الجهادية ، وعلم السلطنة بالحال والكُنْه ، يقتضي الإغضاء عنه . يقدم ذلك عبدُ السلطنة المكشوف بوثوقه وأمانته ، وسياسته ونجابه ، أحدُ خواصِّ عبدكم ومحلُّ ابنه محمد أمير لواء . وهو النائب عن العبد العاجز في طلب الفضل ، الذي وسيلته الرجاء والامل . وفضل الكرام لا يتوقف على ملاحظة عمل .

اللهم أعنا على ما أوجبت لهذه السلطنة من فروض الطاعة ، وتأدية الحق جهداً الاستطاعة ، واعصمنا بيدها الطولى من الإضاعة ، واحملنا من مرضاتها على سنن السنَّة والجماعة . اللهم انا اليه ناظرون ، وعلى أمره صادرون ، ولإنجاز وعدك في نصر من ينصر دينك منتظرون ، فما فقد شيئا من وجَدك ، ولا خاب من قصَدك . آمين يا رب العالمين ، وسلام على المرسلين ، والخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين . وكتب في شوال 1271 هـ .

ورجع هذا السفير [ناجح المسعى] (2) يوم الثلاثاء العشرين من محرم سنة 1272 اثنتين وسبعين (2 أكتوبر 1855 م) ، ومعه كاهية رئيس الكتاب في الصراية السلطانية ، بالتشريف السلطاني وفرمان الولاية للباي ، وترقى السفير الى رتبة أمير أمراء ، وقبل الباي فرمان في موكب حافل مشهود بباردو .

(1) الزيادة عن ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وكاتب الباي السلطنة الشريفة بالمغرب بما نصّه : « الجناب الذي ننسلي<sup>٢</sup> عن المفقود بوجوده ، ونستضيء في ليل الشدائد بأنوار سعوده ، ونتقرب الى الله بحبه وحب آبائه وجدوده ، ونتحصن بموالاته من كل خطب قبل وروده ، جناب السلطان الرفيع الشأن ، لباب السلاطين الاعيان ، الحائز قصب السبق في كل فضل وإحسان ، وكيف يوفي البيان ، بفضائل من حبه أمان وإيمان ، مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام سلطان المغرب ، لا زال كل لسان بفضلله يُعرب ، ويتقن في ذلك ويُعرب .

أما بعد سلام كريم ، طيب عميم ، تفتّر عن ثغر الوداد مباسمه ، وتهب في تلك الساحة العكورية نواسمه ، فالمعروض الى ذلك الباب لا زال محروسا من غير الايام جنبه، مسدولا عليه ستر الله وحجابه ، أن ابن عمنا ومقام أخينا المشير سيدي أحمد باشا باي سار الى عفو الله ليلة الخميس السادس عشر من رمضان ، بمرضه الذي أصابه منذ أزمان ، ولكم طول العمر ، ودوام الامر ، وفي الحين أجمع أهل الحل والعقد على بيعتنا ، وسارعوا الى الانتظام في سلك طاعتنا ، فلبينا دعوتهم ، وقبلنا باعانة الله بيعتهم ، وجَمَعْنَا الكلمة ، واتمسينا (1) بالصبر على ثقل الامانة في حفظ هذه الامة المسلمة ، وبادرنا باعلام حضرتكم الشريفة ، وسدتكم المنيفة ، لما لنا في بيتكم النبوي من تشيع واعتقاد ، وموالة ووداد ، ووثوق واعتماد ، [وتيمن واستناد] (2) .

والله أسأل ببركتكم وعنايتكم وإعانتكم التوفيق لما يرضاه ، فالهدى هدى الله . والمرغوب من نفسكم الزكية المحمدية ، وهمتكم الحسنية العلوية ، وسلطنتكم المطاعة بالعمل والنية ، المتوسل ببركتها في بلوغ الامنية ، ان يكون دعاؤكم سبب إسعادنا ، وأعظم أمدادنا ، في بلوغ مرادنا . والله يرى أن مرادي الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقني الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . والسلام . [وكتب في اوائل المحرم عام 1272] (3) (اواسط سبتمبر 1855 م) .

وأجابه السلطان بما نصه :

(1) كلما في غ ، وفي ع و ق : « وتدرعنا » .

(2) الزيادة عن ق .

(3) الزيادة عن ق .

« من عبد الله سبحانه المتوكل على الله ، المفوض أمره إلى الله ، أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ، عبد الرحمان ابن هشام أيد الله جنوده ، ونصر أعلامه وبنوده ، تحية تنمُّ بأسرار اليمن في المبدل والإعادة ، وتشرق بأنوار البشائر في مطالع السعادة ، وتفتح للرضى والقبول كل باب ، وتؤم بفيوض الكرامة والإسعاد حضرة الاحباب ، إخوان الوفاء والصفاء والإنصاف ، المختصين بأطياب الشيم وجلال الاوصاف ، ومن تسمى مجدهم وسنأؤهم حتى جاوز العنان الى الافلاك ، ومن نظمت الليالي والايام مآثرهم نظم الآلىء في الاسلاك ، حضرة الفرد المراد بهذه الجموع ، المتحلي من أبهة الملك بكل مرثي ومسموع ، سلطان الممالك التونسية ، والاقطار الافريقية ، الجالس على كرسي قاعدتها التوفيقية ، والحائز بالفرض والتعصيب لمزايا ولاياتها التصورية والتصديقية ، المشير الامجد الباشا محمد باي أسعد الله ذكركم ، وأعلى على الاقدار قدركم .

أما بعد فانه بلغنا كتابكم الذي شفى عن طواياكم النيرة ، وأنبا بشناشكم الطيبة الخيرة ، وهو وإن كان بأوائله أذهل الاذهان ، فقد خف بثوانيه ذلك الخطب وهان ، وذلك أنه نعى أولاً أخاكم الهمام المرحوم ، ثم بشر ثانيا بولايتكم التي هي مركز تدور عليها السعادة وتحوم ، ونحن نسأل الله الذي له الامر كله ، ويده ملكوت كل شيء وعقده وحله ، ان يبعث من حضرة تأييده لمعونتكم من جنود الإمداد ، ما لا تحيط به الاعداد ، ولا يدرك بالاستعداد ، وان يقوِّمكم على الخير الذي جبلكم عليه ، ويساعدكم على هذا الامر العظيم الذي اختاره لكم واختاركم له وتنبئكم إليه ، ولا شك انكم ان شاء الله بذلك أحرىاء ، بأمانة ان جعلكم من طلب الإمارة أبرياء . فسيفت لكم بلا استشراف منكم ولا معول ، اذ لم تجد المعالي عن جلالتم متحول ، فلذلك حطت في ذراكم التزيه أجمالها ، وأناخت في ساحة عزكم أجمالها ، وقصرت على سيادتكم تفصيلها وإجمالها .

فاحمدوا مولاكم الكريم الذي خصكم بأشرف مواهبه ، واسلكوا الى لإرضائه من شكر آلائه أحسن مذهب ، وتعرضوا لمزيد فضله الذي وعد به الشاكرين ، واطلبوه عند ذكره فانه مع الذاكرين .

هذا ، وأنا معكم على ما درج عليه الاسلاف ، من التواصل والاتفاق والاتلاف ، ذات واحدة وبناء مرصوص ، كما هو مُسند منصوص ، فادعوا الله لنا وأمتوا اذا دعوتكم ، لا

سيما اذا انفردتم بالله (1) وخلقتم ، ونحن لكم كذلك ان شاء الله وعلى عهدكم ومحبتكم ، والسلام » .

[في متمم محرم الحرام سنة 1272] (2) (الجمعة 12 اكتوبر 1855 م) .  
وسرّ الباى بهذا الجواب ، وتيمّن بالدعاء من الشريف .



وفي اواسط شوال ثاني شهور ولايته (اول جويلية 1855 م) ، قدم من الدولة الفرنسية قنصل للحاضرة ، اسمه ليون روش ، يتكلم بالعربية بل يحسنها نطقا وكتابة ، ويستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية . جال في اقطار المغرب ، وركض في كل ميدان ، وهبّ مع كل ريح ، فقام الباى لتلقيه في بيت قصره ، وهو أول قنصل قبل بهذه الكيفية الجارية بها عمل الوقت مع سائر القناصل .

وقرامى على الامتزاج بهذا الباى ومدخلته ، تراميا يزري بمنصبه ولم يعهد بمن تقدّمه ، وكأنه آتس ضعفا [في القريحة] (3) فاستعمل الفضول في إبداء النصائح وتلويها . وهو أول من أظهر ذلك من قناصل جنسه . وله في ذلك مراد ، والله المراد فيما يريد .



وفي السابع عشر من الشهر (الثلاثاء 3 جويلية 1855 م) أمر هذا الباى بتنقيص من عدد الشهود المنتصيين بالحاضرة وعملها ، ولم يبق بالحاضرة الا مائتين فقط ، وسلب أوامر ولاية الباقيين ، لما بلغه أن أفرادا منهم يُلَمَزون بسوء في الشهادة ، فقال له الوزراء : « الواجب الاقتصار على الملموزين فقط ، ولا يؤخذ البريء بالمجرم [فكل نفس بما كسبت رهينة] » (4) ، فأبى . وعارضه في ذلك الوزير مصطفى خزنة دار معارضة قوية ، فأصرّ وأدّعى ان سبب إصراره هو ان قنصل الفرنسي طلب منه ذلك ، واذا أسعفه في مثلها يكون ذريعة لغيرها .

(1) كذا في غ و ق ، وفي ع : « بالنية » .

(2) الزيادة عن ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) الزيادة عن ع و ق .

وأمر شيخ الإسلام ابا عبد الله محمد بيرم الرابع بجمع أوامر سائر الشهود بالملكسة ، والذي ينتخبه منهم يكتب له في طرّة أمر ولايته ويرجعه له ، فنقل ذلك على الشيخ ، لانه تقدم مثل ذلك لجدّه ، أيام أبي الحسن علي باي بن حسين ، ورضي الخلق غاية لا تُدرَك ، فقال له : « هذا حمل لا أقدر عليه وحدي ، فالأولى أن تقيّد أسماء الشهود بزمام ، ويعرض الزمام على سائر اهل المجلس الشرعي ، وكل واحد ينتخب من الزمام ماثنين ممن يشهد فيه بالعدالة ، ويعرض ذلك عليك ، فمن شهد فيه الاكثر فهو المنتخب ، ومن لم يعرفه أحد فهو مجهول الحال حتّى يزكّي » . ووقع الانتخاب على هذه الكيفية . ثم ظهر للباي أن قدّم انتخاب شيخ الاسلام فقط ، ويُعرض عن انتخاب غيره ، فتخرج اهل المجلس الشرعي من ذلك ، ولاقي الشيخ بسبب ذلك شدة ومحنة ، وسلقته الالسن الحيدّاد ، كما وقع لجدّه بل أشدّ . ونضّر بهذا جمع من الفقراء المستورين كانوا يرتزقون بالتوثيق ، وانتقلوا من كفاف الى ضيق .



وفي يوم الاربعاء العشرين (1) من شوال المذكور (4 جويلية) قدم من فرانسة ابو عبد الله محمد الامين باي ، وابو عبد الله محمد المأمون باي ، ومعهما أمير الامراء ابو عبد الله محمد المرباط صهرهما ، ومن معهم من الذين وجّتهم الباي أحمد غرة شهر وفاته ، لتهنئة سلطان الفرنسييس بلطف حفّ به ، كما تقدم ذكره .

ولما بلغه وصولهم لخلق الوادي ، أركب لإخوته لتلقّيتهم ، واختلى بالوزير أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع ، والوزير أبي النخبة مصطفى خزنة دار ، ووزير الحرب أبي النخبة مصطفى باش آغة ، وقال لهم : « عزمتُ على عزل محمد المرباط وصالح شيبوب ونفيهما وأخذ كسبهما » ، [وهم ممن يعلم ان ما جاز على المثل ، يجوز على المماثل] (2) ، فقال له بعضهم : « ان احدهما صهر بيتكم » ، فقال له : « نُزلّيه طلاق بنتنا ، وقد استولوا على الكثير من أموال الدولة » . ثم قال له وزير الحرب : « ان محمد المرباط خدم اخاك في مرضه كثيرا ، حتى انه كان يوضّئه » ، فلم يرجع ، فقال له صاحب الطابع .

(1) هو 18 حسب التقويم .

(2) الزيادة عن ع و ق .

« لا بدّ من ذنب تعتمد في ذلك » ، فقال : « لا أكذب عليهما ، ولا نريد خدمتهما ، ولا بد من أخذ كسبهما » ، ولعمري ان هذه المجاهرة باتّباع الغرض ، أحسن من الاسباب الواهية ، فالأقتصار على خطيئة واحدة احسن من الجمع بين خطيئتين ، فقال له الوزير مصطفى خزنه دار ، لما عيل صبره : « لا بدّ من التثبت في ذلك ، فوراءنا ألسنة الناس وصحف الاخبار في الاقطار ، ولا يفوتك أخذ مالهما ، لكن على غير هذا الوجه » ، فقال له : « لا بد من ذلك اليوم ، خشية هروبهما أو إخفاء مالهما ، وانما استأنيت بشيوب خشية هروب المرباط وهو خارج المملكة ، وكلامي لكم انما هو لإعلامكم بمرادي » . وخرج منتظرا للغنيمة الباردة . هكذا بلغنا ممن حضر الموطن ، ودأخل الباي في ذلك من بطانته السريّة .

ولما دخلوا عليه ، قبل أخوه وابن عمه يدّه ، ووراءهما من أؤتمن عليهما ، وهو محمد المرباط . ولما وصل ليقبل يده ، قبضها عنه وأمر بسجنه في بيت لواء العسة ، وأمر بسلب نواشن افتخاره وولايته ، وأمر باحضار صناديق سفره فرجع له منها ثياب المهنة فقط ، وأمر بالاستيلاء على سائر كسبه ، منقول وغيره من طارفه وتالده ، والزمه طلاق زوجته فطلقها مكرها ، وأنا أحد شاهدي الطلاق ، بعد أن طلب الأمان على ريقه ، فأعطاه ذلك . وفي الحين أمر بسجن صالح شيوب ، وسلب سائر نواشنه ، والاستيلاء على جميع ما يملك .

وأمر بحسونة متّالي ومحمد بن الشيخ ومحمود البناني وغيرهم من خواص أحمد باي فسلبهم سائر ما عليهم من النواشن ، وطردهم وأخذ جميع ما نالوه من سيدهم بأعمارهم التي ضاعت مجانا في خدمته سفرا وحضرا .

وأمر بأبي محمد حسن المرباط ، وكان يومئذ كاهية القيروان ، فسلب نواشنه أيضا واستولى على داره بجميع ما فيها ، وسائر ما على كسبه من المنقول وغيره ، وذنبه أن محمد المرباط أخوه .

ولما لم يجد عند محمد المرباط وصالح شيوب مالا ناضا يقارب ما كان يؤمله ، قال لأبي الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، من خواص مماليكه : « اذهب اليهما واسألهما عن كسبهما ومالهما ليدلّا عليه خير من تعذيبهما » ، فامتنع من هذه الرسالة وقال : « لا

أقدر على مواجهتهما بالمكروه » ، فانتدب لذلك أبو المسرة فرحات أمير لواء العسة ، وأتاهما في محبسهما فقالا له : « لا مال عندنا الا ما هو في بيوتنا من الرسوم وغيرها ، وأزمتنا تشهد لنا بذلك ، وإن أراد تعذيبنا فالامر إليه ونحن في قبضته » . وكرر عليهما الإرسال فلم يسمع غير جوابهما الاول ، فأمر بنفسي المربط الى القيروان ، وصالح الى جربة . وتتبع كسبهما من أقاربهما وأتباعهما ، حتى انه أخذ حليّ زوجة صالح شيبوب ، وهي ابنة الوزير أبي الثناء محمود كاهية [خلق الوادي] ، وإن عاوضه لها بما هو دونه [في القيمة] (1) .

وجاء بهذه الاحدثة على غير قياس ، مبنية على غير أساس ، اقشعرت منها الجلود ونبتت عنها الاسماع ، وهدمت الآمال وحسنت الاطماع ، وتحدث أهل الحاضرة بأن لا ذنب لهؤلاء العباد ، الا كونهم من ابناء البلاد ، وهامت أفكار الناس في كل واد ، اذ لم تكن بشبهة ذنب يمكن الى ظلها الاستناد ، ولهجت بذلك صحائف الاخبار ، في معمور الاقطار . وتعجب قنصل الفرنسي من ذلك ، لانه لم يُعهد في دولته ولا في بني جنسه ولا في قطر مما جال فيه .

وأعجب من ذلك أنني فاوضت بعض العلماء في هذا الحال ، فقال لي : « إن ذلك جائز بالكتاب والسنة والاجماع والقياس » ، فقلت له : « رضيتُ منك بالقياس فقط » ، فتهتمهم واختلط ، لان الباي اصطفى اموالهم لخاصة نفسه ولم يجعلها في بيت مال المسلمين ، [ولان هؤلاء ليسوا من العمال] (2) . والى الآن لم نسمع من هذا العالم شيئا من الجواب ، وسأسمعه يوم العرض للحساب .



وفي هذه الايام نقص الباي من المؤذنين بالجامع الاعظم عددا كثيرا ، وقد كانوا مائة وأربعين مؤذنا . وأثر ذلك في أهل الحاضرة ، وذلك أنهم يرون هذا الجامع كعبة البلاد ، يتبركون بسدائنه وتوارثها الابناء من الآباء ، ولا يعتبرون دخلها ، وإن كان من التافه السلي لا يؤبه به ، اذ كان القصد النسبة لبيت الله والتمن بالانخراط في سلك

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .



خدمته ، فترى الاغنياء واهل الوجاهة يتسابقون الى هذه الخدمة ، ويرون رسم أسمائهم في دفترها حرمةً ونعمة ، ويوقفون عليها من أموالهم الاوقاف النافعة .

✽

وفي غرة ذي القعدة من السنة 1271 (الاثنين 16 جويلية 1855 م.) ، نعى الى الباى أن رجلاً يقال له محمد السقا ، كان من العسكر وخرج بعيوض ، يأوي بداره أهلُ الفسوق والبطالة ، ويقصد محله من يريد التستر بمعصيته . وأنكر ذلك المحتسبُ ، وقال للباى : « هذا منكرب يجب تغييره » ، فأمر الباى باحضاره ، مع عواهر من فسقة النساء . ولا وقف بين يديه ، أمر بقتله هدفا للرصاص ، قبل ان يعلمه بذنبه [او يسمع منه كلمة] (1) .

وكان الوزير مصطفى خزنه دار واقفا بين يديه ، فتطارح على تقبيل رجله ، شافعا في إبقاء حياته وعقابه بغير القتل ، قياسا على ما عهده من سيده الاول ، فردَّ عليه منكرا ذلك ، وقال له : « مثلك لا يشفع في مثل هذا » . وقتل المسكين ، ساعه الله .

ثم أمر بنفسى النسوة الى قرقنة ، وأمر المحتسب بالاستيلاء على سائر كسبهن ، وبيع بالسوق ، وأخذ الباى ثمن ذلك لنفسه .

وخرجن منفيات يتكففن من اهل تلك الجزيرة بما يعلمه الله .

وشقَّ ذلك على الناس أيضا ، [حيث رأوا هذا التهاون بالنفوس والاموال] (2) ، وتنوعوا في ذكر الاسباب ، وكلُّها سياب . والعذر له ، فان بعض العلماء في السرِّ أفتاه بذلك ، وأن التعزيز باجتهاد الحاكم ، وذكر له حالة الصدر الاول ، ورام القياس ، ودُّونه فوارق . وكان الفقيه لم يدر قوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منكم بعشر ما أمر به نجا » ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ، عن الترمذي ، عن أبي هريرة . وأي قياس بين الصدر الاول والقرن الثالث عشر ، وبالامس كان المزوار ذا خطَّة معروفة حتى أبطلها مصطفى باى رحمه الله .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

على ان الستر مطلوب في امثال ذلك [شرعا] (1) ، قال صلى الله عليه وسلم لمن أخبره برجل يزني : « هلاَّ سترته بثوبك » . ولم يقبل الشارع في ثبوت الزنا أقلَّ من اربعة شهود ، على كيفية مخصوصة ، واذا نقصَ واحد من الاربعة ، وجب على الثلاثة الباقين حدُّ الفِرْيَةِ . واكتفى في القتل ، وهو أشد من الزنا ، بشاهدين . ما ذاك إلا لامر يعلمه الله . وغاية ما توصلت اليه العقول طلب الستر ، الى غير ذلك مما يُردُّ به هذا الاجتهاد في التعرّيز ، لان الاجتهاد لا بدُّ من بنائه على قاعدة عقلية او سمعية .

على أن قتل هذا الرجل لا مظنة فيه لزجر الغير . والواقع يحقق ذلك . وجرى المحتسب على هذا السنن في هذا الزمن ، فمنع ، بأمر الباي ، النسوة من لبس الكلاسط (2) في الازقة ، ومن لبس النعل الساتر لوجوه أرجلهن ، وألزمهن النعل السابق ، وان كان فيه كشف الرجل وهي عورة . واستعان على ذلك بأوغاد لا يعلمون القبيح من الحسن . وكان من نوابه جاهل من ارادل الناس ، مرّت به امرأة بنعل ساتر لرجلها ، وهو بسوق العطارين ، فأمر أتباعه بتمزيقه في السوق بمرأى من الناس ، فتوسلت اليه ببركة الجامع أن لا يفضحها ، فلم يصغ لتوسلها ، ومزق نعلها ، فرجعت حافية لدارها تعثر في دموعها . إلى غير ذلك مما لا يحتمله طبع الزمان ، ولا يقتضيه شرع الإيمان ، المبني على العدل والإحسان والامان .

وامتدت يد المحتسب الى فصل الخصومات ، ومباشرة الظالِمات ، وتشكى من ذلك الداي وغيره من ذوي الولايات . وكان ذلك على كُره من أخيه أبي عبد الله محمد بيرم شيخ الاسلام . وتكلم الوزراء في ذلك مع الباي ، وبصّروه بمقتضى الحال والوقت ، فتبصّر ونهى المحتسب ، فقصّر [يده] (3) .



ثم نظر في أمر العسكر ، فرأى أيدي الضبّاط تجول فيهم بلا قانون ولا حد معلوم ، يستعملونهم في خدمة أنفسهم كالعبيد ، فأنكر ذلك ، وكتب لكل واحد من أمراء الالوية ما نصّه بعد افتتاحه واسم المخاطب :

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الكلاسط : الجوارب (عامية تونسية) .

(3) الزيادة عن ق .

« اما بعد ، فانه بلغني ان بعض الضباط تمتد أيديهم في العسكر بالسجن والضرب وغير ذلك من استخدامهم في حاجات أنفسهم ، وليس لهم ذلك ، وانما حسبهم الرئاسة عليهم في التعاليم العسكرية والقواعد الحربية ، والترتيبات النظامية التي اليد فيها واحدة ، على حسب الاقدار والمناصب . فاقنضى النظر أن نهجر ذلك عليك ، على مكائلك المكيئة عندي ، أحرى من ذلك . ومن الآن لا يقع عقاب لعسكري بضرب أو سجن إلا عن أمرنا ، فلا يعاقب بضرب من عصي إلا من يده العصا . وإذا صدر من بعضهم ما يقتضي العقوبة ، وخشيتم هروبه ، فحسبكم إيقافه في القشلة ، وارفعوا إلينا نازلته فوراً لتأمركم بالذي يكون عليه عملكم . ولا يستخدم ضابط عسكرياً في حاجة نفسه . وارفعوا إلينا سائر ما يقع في القشلة من حقير وجليل ، بحيث لا يقع بها أدنى شيء إلا عن أمرنا ، وأنتم الامناء على تنفيذه . والعناية بالعسكر ، اللذين هم الشعار والدثار ، تقتضي ذلك . فلا أشرف عندي من خدمة أحوالهم بنفسي . فاجمع سائر من نظرك من الضباط ، واقرأ عليهم أمرنا هذا ، ليعلمه كل واحد منهم ، ويكون حكمه قانوناً جارياً . وحذّره عقوبة المخالفة ، فاننا لا نتجاوزها لهم ولا يسعها حلم بعد هذا التنبيه المسطور في هذا المنشور . وتعدّد الأيدي في العقوبات والاحكام ، مفسدة للأنام . والله الذي كلّفني ويسألني عن حالهم ، أمرني بعدم إهمالهم . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم . والسلام » . وكتب في 17 صفر سنة 1272 (الاثنين 29 أكتوبر 1855 م) .



وكان لا يتحمل استطالة أيدي العمّال على الرعية بالضرب ونحوه من الاستعباد ، شأن غالب الملك المطلق ، لا يبيحون ذلك لغيرهم . حتى انه عزل مملوك أبيه وأحد خواصه محمد علي [آغة] عن ولاية الوطن القبلي ، لانه ضرب إنساناً ضرباً شديداً [أشرف بسببه على الهلاك] (1) ، وحلف إن مات المضروب ليقطن من العامل . وأسقط منزلته وأقصاه عن الخدمة . ويقال ان المضروب مات ووقع مع أوليائه صلح بمال له بال ، بحيث أنهم لم يرفعوا بذلك شكاية . وذلك ، بشهادة الله ، من أكمل خلاله ، وما يعد من كماله .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وفي يوم الاحد الرابع (1) من جمادى الثانية سنة 1272 (10 فيفري 1856 م.) نقل الباي عسكر المحمدية الى قشلة سوق البشامقية بالمدينة ، وحضر يوم دخولهم لها بنفسه ، ومعه أكابر العسكر ، ورفع بها الصنجق ، وأطلقت عليه المدافع من القصبة والابراج . لان المحمدية بنيت على استعجال ، [فتداعت ابنيتها] (2) فلزمها لإصلاح يلزمه مال له بال . وامتدت أيدي الخراب المتوقع قبل إبتائه المظنون . وللباي محبة في خرابها ، شأن غالب ملوك الإطلاق في محو آثار من تقدم منهم ، لا سيما والناس يذكرونها بالشؤم .



وفي رابع شعبان 1272 (الخميس 10 افريل 1856 م.) ، سافر الشيخ العلامة المفتي ابو عبد الله محمد النيفر متطوعا بالحج ، وبعث معه الباي صُرَّةَ الحرمين الشريفين ، في شقف حربي أباحه لركوب الحجاج بلا كراء .



وفي الثاني عشر من الشهر (الجمعة 18 افريل) اتى الخبر بوقوع الصلح بين الدولة العلية ودولة الموسكو ، بواسطة الدول العظام . واجتمع سفراؤهم لعقد ذلك في باريس . واطلقت المدافع بحلق الوادي في الصباح ووسط النهار والعشي ، لإعلانا بذلك .



وفي اوائل أيامه استرجع أشياء كان اقترحها الولي المجذوب الشيخ عمر عبادة بالقيروان ، الله أعلم بمراده فيها إن اقترحها حقيقة . وهي قطع (3) حديد ، وأشياء من الفضة ، ودراهم [من ذهب وفضة] (4) وغير ذلك . ووفى له أحمد باي باقتراحه ، لما له فيه من العقيدة . وساء ذلك أهل الولي الزاهد ، ونقمتها الناس عليه وتحذثوا في شأنها . وهي أحدى أعظم من قيمتها ، لولا الشغف بالرد على من تقدّمه .

(1) هو 3 حسب التقويم .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) كذا في خ ، وفي ع و ق : « قناطر من حديد » .

(4) الزيادة عن ع و ق .

وأمر هذا الباي بضرب سكة من الذهب ، وكتب فيها اسمه مجردا عن لقبه ، في الوجه الذي به التاريخ ، إلا أنه أجهف فيها وحابى الدولة بالربح ، [شأن المتأخرين من ملوك الإطلاق في الاسلام] ، فأجهف ذلك بالتجار ، لا سيما الافرنج ، ورأوا نقصان أموالهم فضجّوا بالشكاية [لقناصلهم] (1) .

ولما تحقق الضرر بالتجار وبالمملكة ، لأن بعض تجار الافرنج صار يضرب مثلها في غير تونس ، ويأتي به ، ولا يعتذر من ذلك ، بل يقول ان السكة تحتّم ما دامت على سَنَن أمثالها ، فاذا اتخذها صاحبها سببا لربحه صارت صناعة وتجارة لا حَجَر فيها ، فلذلك رفع ضررها وأبدلها بسكة ذهب لم يربح فيها الا نحو ما يصرف على عملها . وكتب الى قناصل الدول بما نصّه :

« اما بعد فان سكة الذهب التي ضربناها في إيالتنا على حسب ما اقتضاه الحال ، ظهر لنا في تبديلها مصلحة للعمالة والمتجر ، فاقتضى نظرنا ان نجعلها بتمامها ونعيد ضربها على قدر الريال فضة بونخمسة . فالعمل ان تنبه على سائر من لنظرك ان من عنده شيء منها يدفعه لناظر دار السكة الثقة العمدة الارشد القايمقام ابنتا [قاره] (2) محمد ، ويأخذ منه توصيلاً في القدر الذي يدفعه ، حتى يعيد ضربه ويرجعه لربّه ويأخذ توصيله . ومدة جمع السكة المذكورة بتونس خمسة أيام من غد يوم التاريخ ، بحيث ان من أتى بسكة ذهباً بعد الخمسة أيام تعتبر اعتبار قطعة ذهب لا سكة . وكاتبنا بلدان عمالتنا بأن من ييده شيء منها يأتي به لدار السكة . وجعلنا لابعد البلدان ، جربة والاعراض والجريد ، عشرين يوما من وصول أمرنا ، ولبلدان الساحل عشرة ايام ، وغيرها من البلدان على حسب قربها من الحاضرة . والمعتبر يوم وصولها لدار السكة . ومبدأ دفعها لاربابها بعد مضي نصف شهر من يوم وصولها ، ومدة الدفع نصف شهر آخر ، بحيث يكون الدافع بعد مضي شهر من يوم دفعه خالصا ، بحول الله . ونرجو إعانتكم في هذه المصلحة العام<sup>ة</sup> نفعا للمتجر والعمالة ، ومن الله الإعانة » .

وكتب في 22 (3) شوال سنة 1272 (الخميس 26 جوان 1856 م) .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) كذا في خ ، وفي ع : « 28 شوال » ، وفي ق : « 28 شوال » .

ولما اراد الباي كَتَبَ اسمه على السكة التي خسر منها اكثر مما ربحه ، على ما هو موجود الآن ، عارضه جميع وزرائه ، ومنهم شيخ الاسلام ، معارضة ملوك الإطلاق ، فصمتم على شهوره .

ولما رأى شيخ الاسلام تصميمه ، قال له : « انه وقع مثل هذا بافريقية ، وذلك ان زيادة الله بن الاغلب ضرب مبلغا من الدنانير زنة الواحد عشرة مثاقيل ، وكتب عليها في وجه :

« يا سائرا نحو الخليفة قل له أن قد كفأك الله أمرك كلّه

بزيادة الله بن عبسدد الله سيف الله من دون الخليفة سلّه »

وكتب في الوجه الآخر :

« ما ينبري لك بالشقاق منافق الا استباح حريمه وأذّله

من لا يرى لك طاعة فالله قد أعماه عن سبل الهدى وأضله »

فقتنع بهذا المثال ، وطلب من الشيخ أن يكتب له الايات ، وقد تقدمت في العقد الثاني من مقدمة هذا الكتاب ، وأن فاعل ذلك هو آخر بني الاغلب ، بعثها في هدية من جملة نفائس ، ولم يضربها للرواج في التعامل . ولم يقصد الباي بهذا التصميم خلافا ولا نبذا لواجب الطاعة للدولة العثمانية ، وانما ليرى نفسه انه فعل ما لم يفعله أحد من آله المتقدمين ، شأن ولوع المستضعفين بالإغراب . ويقال ان قنصل الفرنسيس هو الذي حسن له ذلك في السر ، وأوهمه أوهاما لم تكن تخطر بباله ، ولا يحسبها من آماله ، لانه كان يعيب على ابن عمه شدة حذره من الدولة ، ويقول مرارا انه يشتهي التوجه الى السلطان ، الى غير ذلك مما يجري على اللسان بغير روية .



وفي ذي القعدة من السنة 1272 (جويلية 1856 م) ، توفي قنصل الانكليز ، وبعث الباي خاصته وأعيانا من العسكر ، ودفن بموكب يناسب أمثاله ، على مقتضى مقام دولته المعظمة ، كما فعل ابن عمه مع مثله الذي توفي في مدته .

ولما كثر تخفيف الباى من الجباية بالتنقيص تارة وبالإبطال أخرى ، كضريبة المغنين واصحاب آلات المسيقا (1) ، مع توسعه في المصاريف على نفسه وداره ، بمقتضى شهوته ، توسعا يناهز توسع مَنْ تقدمه ، إلا ان المصرف مختلف ، نبههُ الوزراء بأن « مصرف البلاد ، والحالة هذه ، كثير ، وإذا نقصت الجباية فمن أين المصرف ؟ » ، فأجابهم بأن « إبقاء الجباية بأيدي العمال على هذه الكيفية ، وهو ان ما يدعونه من الخسارة في اللزمة يوزعونه على أهل عملهم باجتهادهم من غير تعقب ولا وازع ، هم المدعون للخسارة وهم الحكام على توزيعها ، هو الذي نقص عمران بلدنا حتى أخذت سبيل الخراب ، ولا بد من ترتيب أداء يستوي فيه كل الناس ، معلوم المقدار ، ونسميه إعانة . وإذا عاد الى المملكة عمرانها نستغني عنه » . وحضر لذلك شيخ الاسلام ، فأنكره وقال له : « ما كان المظنون بك هذا » ، وأشار الى تنقيص التوسع الذي منه النواشن المرصعة ، ومصادرة العمال » ، الى غير ذلك . فلم يصغ له . واتفق الرأي على ذلك . وأمرني بإنشاء منشور الإعانة ونصته :

« الحمد لله الذي أناط العمران بالعدل والإحسان ، وشرف بالتعاون نوع الإنسان ، وأعانه عليه بالاصغرين القلب واللسان ، وجعل المصالح تختلف باختلاف البقاع والازمان ، بما يدفع المضرة ويجلب المنفعة والامان ، وقلد النظر في ذلك بكل قطر لمن يجمع عصابة الإيمان ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بمعجزة القرآن ، الأمر بالتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعُدوان ، الحاث على العدل والرفق والحنان ، وعلى آل وأصحابه السادة القادة الارككان ، الذين بلغوا إلينا شريعته وأحاديثه الصيحاء الحسان ، وتعاونوا على حفظ الملة بالاموال والابدان ، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان .

أما بعد فإنا حررنا هذا المنشور ، المرجو نفعه في الدنيا وثوابه يوم النشور ، لكافة أهل إيلالتنا جعلنا الله وإياهم ممن يهتدون بالحق وبه يعدلون ، ووفقنا لعمران أرضه بالتعاون والله خلقكم وما تعملون .

اعلموا ان الله جلّت قدرته لما قلّدنا القيام بأموركم ، وسياسة مفردكم وجمهوركم ، رأينا أول واجب في الديانة ، حفظ المؤمن على الامانة ، ورجونا من فضل الله القوي القادر

(1) كذا في غ و ح ، ولى ق : « المويسقا » .

الإعانة ، لان الامانة سرٌّ من أسرار الله يُنَاط بها المراد ، ويحاط بها العباد ، ويماط بها الفساد . ولا يتمُّ هذا المراد إلا بأعوان وأجناد ، وحامية في كل بلاد ، ولا قوام لسائر الاعمال ، الا بما يلزم من المال .

وجرت عادة الله في نوع الإنسان ، أن لا مال إلا بعمران ، ولا عمران الا بعدل وأمان ، ولا أمان الا بجزر أهل البغي والعُدوان .

وقد وجدت عمران وطننا الذي حبه من الإيمان ، اعتراه الخلل والنقصان ، وقل من ساكنه العمل ، لضعف الامل ، وإن كان ذلك من ذنوبنا ، وما لا يخفى على الله من عيوبنا ، فاعتمدت [الله] (1) الغني عتاً وعن أعمالنا ، في السعي لصلاح أحوالنا ، وبادرنا الى النظر في أحوال الحيوان ، وهو من أعظم اسباب العمران ، فأبطلنا من الموظف على بيعه ثلاثة أرباعه ، وكشفنا بذلك عن وجه الإعانة بعض قنّاعه ، ولم نلقت الى الاسباب الحاملة على اختراعه . ثم حسمنا مادة تطفيف الكيل ، وتركنا مَرْتَعه الويل ، وأرحنا تاجر الله من ذلك الويل ، وتحملنا نقصه الواضح الثقيل ، وغير ذلك مما أعان عليه المقذور والإمكان ، مما يرجع لتيسير أحوال السكان ، والتخفيف عن مواد البُنيان . ثم التفتنا الآن الى ما يفرض من تباعات الملح والجلد والمحصولات والدخان ، وغير ذلك مما يفرض على أيدي العمال بالاطوان ، فرأيناه يُوزَّع على الفقراء ، وتُصان عنه الاغنياء والكبراء ، مع ما تبعه من سوء سيرة بعض العمال ، المفضية لفساد الاعمال ، ويتعسر فيها لإثبات الشكوى ، ولا يمكن الحكم بمجرد الدعوى ، الى غير ذلك من الاعمال التي لا يحفظها سياج ، ولا يبقى بوجودها عمران ولا إنتاج . فان قطعنا هذه الاحوال — كما هو الامل — من أصولها ، يقع الخلل لقطرنا من نقص محصولها ، إذ لاغنى لارضنا — والحالة هذه — عنها ، والامل في الله الكريم أن يعوّض ذلك مما يخرج منها . وإن أبقينا الامر كما كان ، بقيت أسباب النقصان ، ولم يجر العدل في الخلق — وهم عيال الله — والله يأمر بالعدل في محكم القرآن . فرأينا الآن مصلحة المسلمين ، في سلوك أخفّ الخالين . وعلى العبد أن يسعى ، ومن الله نجاح المسعى . وأبطلنا سائر ما كان يُفرض على الرؤوس من تباعات (2) المحصولات ، والدخان ، والملح ، والجلد ، والاتفاق ، والديوان ، والكبش ،

(1) الزيادة من هامش ع .

(2) كذا في خ و ق ، وفي ع : « تبعات » .



والمجسبي، وخيل الشوك، وثيران الكرستة، وفرس العادة، والضيفة، وسائر الطواريء وغير ذلك من سائر ما اعتيدَ فرضه وتوزيعه، على اختلاف أصنافه وأسمائه وأوصافه، مما يصدق عليه اسم أداء، تقدم العمل به أو تأخر، قلّ أو جلّ، عدا أخصار الحبوب والزيت، وقانون الزيتون والنخيل، فانها زكاة مكاسب لا توزيع فيها على الاشخاص، وعدا ديكت القتلى، لما فيها من الزجر لاهل الفساد، فانها تبقى على حالها المعتاد. أما الجلد فانه لربه، يبيعه لمن شاء، او يستعمله بغير الدبغ. [واما الدبغ] فانه لا يقع الا في المدبغة [السلطانية] (1) المعتادة، ونشتري ما يلزمنا منه لمهمات العسكر مثل الناس.

واما الدخان والملح فأبقينا أماكن بيعها بالبلدان والاسواق لمن يريد الشراء من غير غصب، وفيما يتحصل من ثمنها كفاية.

ومن باع شيئا في سوق أو بلد فانه يؤدي ما رسم على بيعه في الزمام المطبوع لتولي خلاص ذلك، من غير زيادة.

ولا بدّ من جبر هذا المسقط الكثير، المشروح بهذا الظهير، باعانة من نزر يسير، تكملة لما يلزم مصلحة الوطن، وتأمين مَن عبر وقطن. وهو ثلاثة ريات في كل شهر يُعين بها كلُّ ذكر بالغ من أهل إيالتنا مصلحة بلاده، ومدفن آبائه ومنبت أولاده.

ولا يُستثنى من هذه الإعانة أحد من أهل الخيام والمدامر والقُرى والبلدان، يستوي فيها المشروف والشريف، والقوي والضعيف، عدا نواب الشريعة من قضاة ومفتين، فاعانتهم بتقوى الله في نوازل المسلمين.

والمحقق أن المؤمن يسارع الى هذه الإعانة، على مقدار رتبته في الديانة.

وقد جعلنا لكل عامل قدر ما رأيناه له كفاية من بيت مال المسلمين، على اختلاف مراتبهم وأعمالهم، بحيث لا تمتدُّ يده ولا يطمح نظره او تتوق نفسه لاختل شيء من الرعية قلّ أو جلّ، أو زيادة على هذا المقدار.

وان خالف فسترون ما يحلُّ به، من آثار نقم الله وغضبه.

(X) الزيادة في الفقرة من ق.

وبابنا مفتوح لكل متظلم ، وآذاننا لسماع الشكاية واعية ، وأعيننا لما يصدر من العمال راعية . ولكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون .

اما مشايخ العربان الذين عليهم درّك (1) العدد والخلاص والمباشرة ، فقد جعلنا لكل شيخ اربعة ريات ، ثلاثة له وريالا لخلّاصه (2) على كل مائة ، من عين الإعانة التي باشر خلاصها ، فهي من بيت المال لا من الرعية .

وليكن توزيع هذه الإعانة في كل عمل بمحضر علمائه على اختلاف مراتبهم من قضاة ومفتين وفواب وأئمة وعدول وأعيان العمل ووجوه ومشايخه ، بحسب ما في المكان من الاعيان . ويرفع كل عامل اليّنا دفتر ذلك في كل عام ، مصحّحا من العامل ومن حضر من ولاية الشريعة ، وشهادتهم على من حضر من الاشياخ والوجوه ، ليكون مجموعهم مؤاخذا بدرك ما عسى أن يقع من نقص او تقريط أو محاباة أو تغافل عن بعض أشخاص .

ومن قصّر في هذه المصلحة العمومية الإسلامية فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين ، ورفض جبل الله المتين ، وتسبّب لنفسه في العقوبة ، وأعظم بعقوبة خائن ربّه ، وأهل وطنه وحزبه ، ولا يسعنا التجاوز عن خيائته ، وضعف أمانته .

وقد كان الضعيف في هذه المدد ، يدفع أكثر من هذا العدد . فاذا نظر بعين الإنصاف لنفسه ، رأى مزية يومه على أمسه ، بشهادة حاله وحسبه . والموسر ان ثقلت عليه هذه الاعانة ، وتلكأ بعدم الاعتياد وأكبر عنها شأنه ، ومنع من فضل الله لإخوانه ، وقابل بالإساءة نعم الله وإحسانه ، فقد عرّض نعمته للزوال ، بعدم شكر المنعم المتعال . ومن المعلوم بلا نكر ، أن قيد شوارد النعم الشكر ، والتقصير في إعانة المسلمين والإخوان من اقبح الكفران . ومن كفر النعمة ، استوجب النعمة . فمن تلذّد أو تلكأ نعين له ونشدّ عقوبته .

ولا تجول بحول الله يد عامل من العمال في شيء زائد على ما حرّراه ، وأظهرناه وسطرناه . ونظّرنا باعانة الله وراءهم ، صباحهم ومساءهم . ولا يئذاد (3) مظلوم عن بابنا ، من (4) خواصتنا أو حُجّابنا ، لا سيما بعد هذا الإعلام المرقوم في كتابنا .

(1) الدرك : بفتح الراء ، النقل - التبعة (عامية تونسية) .

(2) الخلاص : مستخلص الجباية بتكليف من الشيخ .

(3) كذا في غ و ع ، وفي ق : « ولا يرد » .

(4) أي من طرف .

اما المدن ، وهي القبروان وسوسة والمنستير وصفاقس ، فحسب الاصيل بها من الإعانة ما أبقيناه بها من اللزم المعتادة ، وهي عند الاعتبار اكثر من هذه الإعانة ، لان المدن مَنَاح البضائع والرحال ، وموضع ثمرات الصناعة والانتحال (1) ، في الخِصْب والإحمال ، فلها أحكام تخصتها على كل حال . هذا في أهلها أصالة ، أما الوافد عليها فحكمه حكم بلده أو قبيلته ، ولا أثر لسكنى المدينة في نسبه .

كما أن كل منسوب الى بلد أو عرش ، فانه يعين مع إخوته ، من قبيلته او بلدته ، وإن لم يتزل معهم ، أو باعد موضعهم .

ومبدأ خلاص هذه الإعانة شهر يونية الاعجمي من عام التاريخ .

وأكرر تحريض المظلوم على رفع ظُلامته ، وبث شكايته ، وأبرأ الى الله من مظلمته ، ان لم يبادر لشرح حالته . فلم يُقِمنا الله الا لدفع الضرر عن ساحته ، والتبصر في نازلته .

وأمرنا باعلان هذا المنشور في كافة أهل العمل بمحل اجتماع المسلمين كالمسجد الجامع [والزماله] (2) ويحفظ لكل من يريد قراءته ، حتى تمتلئ به الاسماع ، ويمتدح علمه بالطبائع ، في سائر البقاع ، ويشرع كل عامل على هذا النحو في مباشرة العمل ، ومن الله بلوغ الامل . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

اللهم إنا مددنا اليك يد الضراعة والإبتهاال ، راجين من فضلك الإعانة على صالح الاعمال ، فقد قلتَ وقولك الحق : « أَدْعُونِي اسْتَجِبْ » ، وأنت القاعل للمسبب والسبب ، والله يجعل رعبتنا وسائر المسلمين من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله . والله يرزق من يشاء بغير حساب . والسلام » . [في شوال عام 1272] (3) (جوان 1856 م) .

وهذه الإعانة - على ما هي - حسنة لهذا الباي منسوبة ، وفي جليل خصاله محسوبة ، بالنسبة الى الحالة المتقدمة من عَيْثُ أيدي اللزامة والعمال في أموال الناس ، فهي من أخف الضررين ، وخير الشرين . وقد توعد من خالف . وأتبع القول فعلاً ،

(1) الانتحال : الاحتراف (دوذي) .

(2) الزيادة من ق ، والزماله هي مكان تجمع القبيلة او المسكر .

(3) الزيادة من ق .

فعاقب مشايخ ماجير بالسجن في الكركاكة لما اتفقوا على تنقيص جانب من عددهم ، وكاد أن يفتك بهم . وعاقب آخرين على أخذ الزائد بالسجن والعزل ، وأخذ ما استخلصوه زائداً من أهل الجريد ، لم يبال في ذلك بمقرب أو صهر أو وجيه ، فخافته العمّال ، وقصّرت عن الظلم أيديهم ، وكاد أن ينقطع تعدّيهم . وعاقبه الاجل عن إتمام هذا المراد الحسن ، وكاد أن يرجع العمران للوطن .



وفي هذه المدة توالى ورود المراكب العثمانية والتونسية بمرضى العسكر التونسي ، لانه اتفق ان موضع حربهم كان وبسيء الهواء وخيم المرتع . وتحدثوا أن أميرهم أبا محمد رشيد عانى كثيرا من مرضاهم بنفسه مباشرة ، وأبلى في ذلك البلاء الحسن .

وفي يوم الاحد الثاني (1) من ذي الحجة سنة 1272 (3 أوت 1856 م) ، وصلت المراكب التونسية مع مراكب عثمانية بالعسكر التونسي مع أميرهم رشيد . وقدم رسول من الدولة العلية بنيشان وسيف مرصع للباي ، ونزلوا بشاطئ العبدلية ضحى يوم الاثنين ثالث الشهر (2 ذي الحجة - 4 اوت) . وقلقاهم الباي بنفسه ومن حضر من آل بيته ورجال الدولة (2) . ولما وصل الامير قام اليه الباي وتعرض لاقائه وعانقه وأجلسه حذوه ، والعسكر يتزل جماعة بعد جماعة ويمرّون أمام الباي بعلامات افتخارهم ، وهي قطع من الفضة تشبه المسكوك من الدراهم ، تسمى بالميداليو ، من اختراعات الافرنج ، يعطونها لمن فعل جميلاً حقه أن يذكر ولا ينسى ، ولا تُعطى فيما حقه أن ينسى . وخيموا قرب بستانه في ضيافته ، واشترى لهم غلة الاجنة القرية منهم ، وأباحها لهم ، وسرّ بوصولهم .

ونزل رسول الدولة بدار المملكة بيطحاء القصبة ، وقبله الباي في موكب حافل مشهود ، وقبل النيشان والسيف بتعظيم وإجلال .

واحتفل لقلوم العسكر وزاد في مرتبهم . وأمرني ان اكتب لهم بما نصّه :

«من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور إليه ، المشير محمد باشا باي سدّد الله أعماله ، وبلغه من الخير آماله . الى نخبة الاركان ، وفارس ميادين الجهاد

(1) هو غرة القمهر حسب التقويم .

(2) اتفردت ق بهله الزيادة : « وحضر مع الباي قنصل الفراسيس بغير استدعاء ، حرصا على الامتزاز وطلباً للمداخلة » (ق 3 : 20) .

والعرفان ، أمير الامراء ، وفخر الكبراء ، ابننا رشيد وكافة من معه من ابنائنا ، وشعارنا ودثارنا ، وحامية بلادنا ودارنا ، العساكر التونسية وضباطهم ، تقبل الله جهادهم ، وأدام إسماعدهم ، وقوّى استعدادهم ، وبلغ مرادهم .

أما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان مقام أيكم ، بحسن الاوبة لوطنكم يهنيكم ، ويرجو الله أن يرى أكثر مما رأى فيكم ، وان كان الهناء لنفسي ، لان جمع الشمل بكم أعظم أنسي ، وطالما تعب لفراقكم قلبي وحسني . فالحمد لله على اجتماع الشمل بأولادي الابرار ، وأحبتي الاخيار ، بعد أن حصلوا من السعادة مقدارا جسيما ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيمًا . ونترحم الى (1) من سبق إلى الجنة دار النعيم والقرار ، والدار الآخرة هي الدار . فهنيئا لهم بمزية الشهادة ، والفوز بالسعادة ، والنعم التي لم تزل بفضل الله في تجدد وزيادة . وقد شغلنا السرور لهم (2) عن الحزن عليهم ، لما أعبد الله من جزيل نعمه إليهم . ولا تنأسف الابطال ، على الموت في مواطن القتال . وفخر الرجال ، بالصبر عند الاوجال ، والموت في هذا المجال ، وللأعمار آجال ، لا تزداد بتأخر ولا نقص باستعجال ، سقاهم الله من حياض الرحمة بسجّال .

ثم أهتكم ونفسي على لسان بلادكم ، ومناط حبيكم وغاية مرادكم ، فانها تقول لكم بلسان الحال ، وهو أبلغ من لسان المقال : يا بررة أولادي ، ومن على غيرتهم بعد الله اعتمادي ، قد طال من بعدكم سُهادي ، وتشوّف لخبركم ناظري ومسمعي وفؤادي ، فالحمد لله الذي أكرمني بكم في الخواتم والمبايدي ، وبلغني بجميل سيرتكم مرادي ، ألبستموني أودية الذكر الحسن ، الدائم بدوام الزمن ، بسيرتكم في أحسن السنن . آثاركم والحمد لله مشكورة ، وطاعتكم في الامر والتنهى مذكورة ، وأعلامكم باعانة الله منصورة ، وصيانتكم لأعراضكم مشهورة ، وأخبار عفتكم ونزاهتكم منشورة ، وبهممكم على ما يُشْمِر جميل الذكر لوطنكم مقصورة . فأهلاً وسهلاً بقدومكم ، واجتماع شملكم بسيدكم ومخلصكم ، لقد سرّ بحمد الله خبركم المونس ، أباكم محمدا وأمكم تونس . فالشكر لله على آلائه ، وبالشكر نستزيد من نعمائه .

(1) كذا في غ و ع و ق .

(2) كذا في غ و ع ، وفي ق : « السرور بهم » .

هذا ، وإن الاب يعين ولده على البرور ، ويُجزّيه على الفعل المشكور .  
فلذلك زدنا لجميعكم الخمس في مرتباتكم ، على اختلاف درجاتكم ، لكم ولن لم  
يَحْضُرْ معكم ، من العساكر النظامية إخوانكم ، لقيامهم في مغيبكم بحراسة أوطانكم .  
وأملّي في الله مُبْتَغِ الآمال ، أن نرى منكم أكثر من هذه الخدمة وفوق هذا  
الكمال ، وأوصيكم بالثابرة على صالح الاعمال ، في سائر الاحوال ، فبصالح العمل يدوم  
لكم ذكر هذه الخصال . ويقبح بمن ذُكِرَ بالجميل أن يُتَّبِعَهُ بضدّه ، ويدنّس  
بنفسه وجّهَ مجده ، ويضيع ما حصله بتعبه وكدّه . وبفضل الله لا يضيع لكم  
عمل ، ولا يخيب فيكم أمل .

اللهم يا سامع الاصوات ، ومجيب الدعوات ، احفظ هذا القطر وبنيه ، وعمر  
بالعافية قاصيه ودانيه ، وشيّد بالحق مبانيه ، وبلغ إمامته من المصالح أمانيه ، وأعِنْ  
جميع المسلمين على الاعمال الصالحة ، والمساعي الناجحة ، وتجارات الخير الرابحة ،  
بحرمة المصطفى وأسرار الفاتحة . وكتب في ذي الحجة سنة 1272 (أوت 1856 م) .  
وبعد أن تمت مدة ضيافته للعسكر ، سرحهم لاوطانهم مدة طويلة تناسب مدة مغيبهم .



وفي يوم السبت الثامن عشر (1) من الشهر أبطل مرتب دار الباشا .

وذلك ان الشبان من جند الترك وأبنائهم رسموا في ديوان الجند النظامي ، وبقي في  
مرتب دار الباشا من لا قدرة له على الخدمة . والعادة السابقة في جند الترك أن من يُقْعِدُهُ  
العجزُ عن الخدمة ، يرسم في الدفتر متقاعدًا ، بمعنى أنه يأخذ أربعة نواصر في اليوم ولا  
يباشر خدمة . وأكثر من بقي بدار الباشا أبناء البلاد من أولاد الترك . فقال : « أما  
الترك فقد جاءت بهم أسلافنا من أوطانهم وذهب شبابهم في الخدمة ، فلا بدّ من العناية  
بهم . وأما أبناء البلاد فإن من يخدم العسكر النظامي يأخذ المرتب ، ومن لا يخدم فهو  
كسائر أهل البلاد يعيش بحرفته » . وأغلق دار الباشا ، وجمع سائر الأشياخ والعواجز من  
جند الترك في قشلة واحدة ، وأجرى لكل واحد منهم عشرة ريال في الشهر ، وهي  
أكثر من مرتب المتقاعد بمقتضى العادة السابقة ، ولم يُعْطِهم الخبز المعتاد .

(1) الثامن عشر حسب الرؤية يوافق يوم الثلاثاء 19 أوت ، وحسب التقويم يسوم الاربعاء 20 أوت ،  
لا يسوم السبت .

ولما دالت الدولة لاختيه أبي عبد الله محمد الصادق باي ، أجرى لهم الخبز .  
وصارت دار الباشا لبعض مهمات العسكر النظامي . وصار ديوان الترك دارا لمجلس  
الشرعية أعزها الله تعالى .  
وأمر الباي شيخ الإسلام أبا عبد الله محمد بيرم باصلاحه من حبسه ، وطالت مدة  
الاصلاح .



وفي الشهر ظهر بالحاضرة المرض الوبائي المعروف بالكوليرة . ودام في الحاضرة مدة  
قليلة ، وظهر من صبر الباي وتوكله على الله ما أزال جزع أهل البلاد ، ولم يتحفظ  
منه بكرنتينة ، ووقع بداره فكان يعود المرضى به [كما فعل أبوه زمن الوباء] (1) .  
وفي زمن هذا المرض بلغه ان البعض من عروش جبل باجة امتنعوا من أداء الإعانة  
التي رتبها .

وذلك ان هذه الإعانة لما تربت ، خفت على من قطعت المغارم أوصاله واستأصلت  
آماله ، وثقلت على الاعيان وعلى من لم يعتد الاداء ، وان كان يؤدي أكثر منها من  
جهة الدخان والجلد وغير ذلك ، لما في نفوس المسلمين من نفرة الاداء على الرقاب ، شبه  
الجزية . ومنهم عرش ماكنة وخمير ووشتاة وبعض الشيعية ومن انضم إليهم ، فشنوا  
الغارات على سوائم الناس ، وأخافوا السبيل ، ومدوا أيدي النهب والفساد .

وخشي الباي أن يسري هذا الفساد في المملكة وفي الصحراء وبها يومئذ غومة  
المحمودي في جمع من إخوته يوقد في نار فتنة ، فحسم الداء قبل انتشاره ، وأمر أخاه أبا  
عبد الله محمد الصادق باي بسفر المحلة على العادة ، وزاد في قوتها من عدد العسكر والمدافع ،  
وأمره بغصبتهم على أداء الإعانة أو يقاتلهم ، فخرج بالمحلة يوم الخميس الحادي  
والعشرين (2) من ذي الحجة سنة 1272 (21 اوت 1856 م) ، غير مكترث بوجود المرض

(1) الزيادة من ع و ق .

(2) الخميس هو 20 ذي الحجة حسب الرؤية ، و 19 منه حسب التقويم .

في المملكة ، متدرّعا جُنّة التفويض ، سالكا نهج أخيه [أبيه] (1) في التوكّل على الله وخلص الجباية ، وخاطب هؤلاء العروش بالانقياد إلى هذه المصلحة ، فامتنعوا . وناوِشهم القتال ، فأبَوْا . ثم أَرهف لهم الحدَّ ، وقَاتلهم ، واقتحم جبلهم وأخذَهم . ولما رجع الحسكر ، شكر شجاعته وشدة بأسهم ، بكلام نفيس . وكتاب أخاه بخبر النصر ، والثناء على من معه ، وأنهم أبلوا البلاء الحسن . وطلب منه مكتوبا لهم ، تنشيطا لقلوبهم ، فأمرني أن أكتب لهم بما نصّه :

« من عبد الله سبحانه المتوكّل عليه ، المفوض جميع الامور إليه ، المشير محمد باسا باي سدّد الله أعماله ، وبلّغه من المصلحة آماله ، وأعان عساكره وأعوانه وعَمّاله ، ووفق للخير من قلده أمرهم في كل حاله . إلى أمير الامراء وفخر الكبراء ، وأوثق العُرَى ، والعمدة للمهم اذا طرا ، ومن أراني الله ثمرة خدمته ونؤمّل أن نرى ، أخيه وعصدي ، والسيف الذي نصول به يدي ، وعدّتي ومعتمدي ، أخونا سيدي محمد الصادق باي لا زالت عزائمهم صادقة ، ومحاسنه متناسقة ، وخصاله بالثناء عليه ناطقة ، وعناية الله به وبمن معه مصاحبة مرافقة .

أما بعد سلام كريم ، طيّب عميم ، يعمّ جموعكم وآحادكم ، وأعوانكم وأنجادكم ، فان مكاتيبكم بالغت في الثناء على من معكم ، من أولادنا الطبعيّة ، والعسكر والمخازنية ، الذين أمرتهم بتشريد جملة العصاة من الجبالية ، وانهم بذلوا في خدمتنا نفوسهم الالية ، حتى شهدت لهم الخصال المرضية ، ووقفوا عند أمرك ونهْيِك ، وظهر بهم نجاحُ سعيك ، وأثّرُ رَعْيِك ، وزينوا مواقف الابطال ، وأظهروا شجاعته في كل حال ، وتدرعوا بالصبر في جَوْمَةِ القتال ، وهو أعظم دروع الرجال ، واستسهلوا أوعار الجبال ، وذلك أملنا فيهم ونشكر الله على تحقيق الآمال ، كما ندعوه أن يصلح من رعيّتنا الاعمال . ومن شفقتني عنهم (2) ، أنه يسوؤني ، بشهادة الله ، فقَدْ واحد منهم ، لكن مصلحة جمهورهم ، والسعي في نجاح أمورهم ، يقتضي أكثر من هذا الادب ، وهو أقلُّ من قدر الذنب والغضب . قال الله تعالى في محكم كتابه المبين : « وَلَوْ لَا دَفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » (3) .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذلك ع و ق .

(3) س 251 آ/2



ونرجو الله ان يجعل هذه مقدمة هداية ومتاب ، لا مقدمة تنكيل وعذاب ، ووراء ذلك عقاب الله والله سريع الحساب . ونشكر سعي من اخترتهم ، ولهذه المقدمة أرسلتهم ، عامتهم وأعيانهم ، ورجالهم وفرسانهم . لقد فازوا بمرضي الطاعة ، كما حازوا وصف الشجاعة . ومن العناية بهم أن وجهنا لكم هذا الكتاب المخصوص . في الثناء على صبرهم وإقدامهم وبناء صفتهم المرصوص . جعلهم الله من الذين يقاتلون حتى لا تكون فتنة ، وقوى بهم عضد الصلاح (1) ومتنّه ، وهو المأمول في سائر عساكرنا وفرساننا وأعواننا ، والموفقين من رعيتنا .

وندعو لك حيث فعلت الواجب من الشهادة لكل ذي حق بحقه ، ورسوخ قدم صدقه . فاجمع سائر من مملك من الطبجية ، والعسكر والمخازنية ، والضباط والاعيان ، ووجه لهم من يقرأ كتابنا هذا عليهم في ميدان ، حتى تعب كل أذن واعية ، ويتحققوا أن عيننا لهم راعية ، وأن حميد أثرهم لا يُجحد ولا يُنكر ، بل يُردّد ويشكر .

والله يرزقهم النصر الجميل ، ويحقق في جميعهم التأميل ، ويزيدهم من الغيرة والثبات ، وينصرهم في الصفوف والوثبات ، ويجمعني بهم منصورين محفوظين ، وبعين العناية ملحوظين .

والسلام على من اعتصم بحبل الله المتين ، واتّبع سبيل المؤمنين ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وكتب في 14 صفر سنة 1273 (الثلاثاء 14 أكتوبر 1856 م) .

ولما وصل هذا المکتوب لبای المحال أبي عبد الله محمد الصادق ، جمع الضباط والمخازنية والاعيان من العروش أمام وطقه ، وخرج بنفسه لسماعه مع الجماعة بتوقيع واحترام . وخطب به كتابه البارع ابو عبد الله محمد العزيز بوعتور ، وأثر في نفوس السامعين أثرا جميلا . وختم المشهد بدعاء نفيس من إنشاء كاتبه المذكور ، ونصه :

« سبحانك اللهم يا من تفضل بالنصر المبين ، وأوضح آثار وعده وهو أصدق القائلين . ولك الحمد على ما أسبغت من الصبر الجميل ، وأوليت من النصر الجليل ، لحماة

(1) كذا في ع و ق ، وفي ن : « المصلحة » .

هذه البلاد ، المنزّلين من أميرهم منزلة الاولاد ، العساكر الجهادية ، والفرسان من المخازنية ، ومن بيده من مولانا قيادتهم ، وإلى أمانته موكولة جموعهم وآحادهم . وفرّ الله أعدادهم ، وزان بهم قطرهم وبلادهم ، ورشّح بالاستحسان لآثارهم أبناءهم ، وكبّبت بهم أعداءهم . ولك الشكر على سوابغ النعم ، وما أوليت من الفضل والكرم . والصلاة والسلام على سيد البشر ، وأفضل من انتصر وظهر . وعلى آله وأصحابه فرسان الميادين ، وحفظة الدين ، ما ابتهجت الاسماع بالثناء الحسن ، وتناقل الذكر الجميل من عبّر وقطن .

اللهم انا نستمدّ من فضلك النصر العزيز ، والإعانة على ما يثمر التقديم والتبريز ، لانصار الإسلام ، ومن بهم النقض والإبرام ، ببقاء مولانا وسيدنا قطب الفلك ، ونور الحلك ، والمطاع فيما ملك ، والمقتضى به حيثما سلك ، إمام المسلمين وحافظ الملة بالاجناد والانصار ، ومن على اتباعه المدار ، مولانا وسيدنا المشير أخينا ، ومحلّ أئينا ، ومن بركة مرضاته ظهرت لدينا وفينا ، سيدي محمد باشا باي .

اللهم بلغه ما يؤمل في بلاده ، وآساد جيلاده ، وما يطلبه ويقصده ، ويستحسنه ويحمده . وتجعل الإعانة لسائر الاجناد ، في كل بلاد ، ومن مرضاته التي دل عليها كتابه الكريم ، المبشر بالمبرة والتكريم . وهو المسؤول ان يشمل حضرته وآله بالحفظ والحماية ، ومزيد الرعاية ، وان يجعل هذه الوجهة محمودة العواقب ، متلوة المناقب ، جارية على وفق رأيه الثاقب ، ويمنح من مرضاته الخطط المحمودة ، والآثار التي هي في أنواع المكرمات معدودة ، من (1) هداية من قلده الله أمرهم للطاعة ، ولزوم الجماعة ، ويُجري على يديه الآثار الصالحة ، ويلهمه للاراء الناجحة ، ويجعل نواسم فضله نافعة ، وكتائب نصره غادية رائحة ، بحرمة النبي وأسرار الفاتحة .

وانفضّس الموطن (2) على سرور ، وسعي مشكور .

وأبلى أبو عبد الله محمد الصادق باي في هذه المحلة البلاء الحسن ، ومهّد العافية ، وردّ الحقوق ، وأنصف المظلوم .

وجعل البايع عصيان هؤلاء نسيًا منسيًا ، ونبيذه ظيهرًا كأنه لم يكن ، كما هو الواجب في سياسة الرعيّة .

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « في هداية » .

(2) في ع و ق : « الموكب » .

وفي محرم من سنة 1273 ، ثلاث وسبعين (سبتمبر 1856 م.) ، جهّز الباي حملة قوية أميرها ابو عبد الله محمد خزنة دار عامل سوسة ، وهو يومئذ عامل الاعراض أيضا ، لتشريد غومة المحمودي من الصحراء .

وغومة هذا من سرة قومه المحاميد ، ومن شيعة بيت قرمانلي بطرابلس . ولما ثلّ عرشها باختلاف آلهها ، دخل الصحراء وشنّ الغارات في وطن طرابلس ، والدولة تتربص به الدوائر حتى أوبقه ذنبه وتمكن به الباشا الوالي بطرابلس ، وبعثه معتقلاً إلى اسلابول ، فصدر الحكم عليه بالنفي الذي هو أخفّ عقوبات المفسد . وفرّ من موضع نفيه فأثى وطن طرابلس ، وقد تمهدت فيه العافية بعد مقاساة الشدائد والهرج ، فتوقع الشرّ فأثى الوطن التونسي ، ونزل بأطرافه من جهة الاعراض . وكاتب الباي ليقبله أو يشفع فيه عند الدولة العلية . وتوسل في مطلبه بقنصل الفرنسيس [ليون روش] ، فأثى الباي وحسن له قبوله ، وقال انه استجار بحرمك إلى غير ذلك . وحذّر النصحاء الباي من تداخل قنصل ، اي قنصل كان ، في احوال المملكة ، ومن عاقبة هذا القبول ، فقبله غير مفكر في عاقبة أمره [شأن ملوك الإطلاق] (1) ، واقفا عند ظاهر الحال ، واستهان به ، وكاتب الدولة العلية شافعا فيه ، فأجيب بأنه من المفسدين في الارض ، والحرم لا يعيد فاراً بدم .

وطلبت منه الدولة إعانة الباشا بطرابلس على القبض عليه ، فأنف لذمته أن تخفّر ، وبقي غومة بأطراف المملكة [والرسل تتردد بينه وبين قنصل الفرنسيس] (2) . والتفّ عليه أتباع كسلّ ناعق من اهل الفساد الذين يطلبون الرزق بسلاحهم . وأحسّ الباي منه بمبادئ الشر ، فكاتبه على يد قنصل الفرنسيس بأن يرحل لدواخل العمالة ، قرب القيروان او الحاضرة ، فتعلل بتعذر ذلك عليه لكثرة من معه بسوائهم ، وواسطته قنصل الفرنسيس يحطّيب في حبّله ويستمر مساوئه .

ولم يزل يفسد في العربان ويستميل ضعفاء العقول بالتنفير من أداء الإعانة بأنها جزية مضروبة على العرب المسلمين ، الى غير ذلك . والشح بالمال في الجبلية الإنسانية . وعلى كلّ يُستطاع ، إلاّ نقل الطباع . وكفّ العقارب عن لسعها ، تكليف ما ليس في وسعها .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

ولما تفاقم الامر وكاد أن يتسع الخرق على الراقع ، لزم البايع تلافى الحال ودفع الضرر ، فجهّز هذه المحلّة بالفرسان من المخازنية ، وأمر العروش القرية من تلك الناحية بالالتفاف على المحلّة . وبعث بها آلايا كاملاً من عسكر النظام بالساحل ، وما يلزمه من المدافع والطبجية ، ولم يستقدمهم للحاضرة وفقاً بهم ، وأمر أمير المحلّة بقودهم لما يصل سوسة . وأطلق يده في الاستنجد بمن يريده من العروش والعسكر . وتطوع أمير الامراء ابو محمد رشيد بالسفر مع عسكر المحلّة طوع إذن أميرها ، لما في هذا الامير من السياسة التي يقود بها أنظاره وأكفائه .

ونصّ ما كتبه لهذا الامير :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض جميع الامور إليه ، المشير محمد باشا باي ، وفقه الله لما يرضاه ، وأعانه على ما أولاه ، وإلى طرق الصلاح هداه ، والهدى هدى الله . الى حماة الوطن والدولة ، وأهل الغيرة على الإمرة والصلوة ، خاصة أولادي ، ومن محلّتهم وإن بعدوا في فؤادي ، كافة العسكر والضباط والفسيلات المأمورين منّا بالسفر إلى الاعراض مع أمير الامراء ، وفريدة الكبراء ، وفخر الاركان الوزراء ، السيف الامضى ، والثقة المعتمد الارضى ، ابنا محمد أمير الاعراض ، قرن الله بالنجاح مسعاهم ، وحفّظهم ورعاهم ، وحمى حماهم ، وثبت على قوس الطاعة مرماهم .

أما بعد السلام عليكم ، وملازمة الدعاء إليكم ، فانكم بقوة الله أعظم قوّتي ، ومظهر صولتي ، بغيرتكم أقتاد العصاة من نواصيها ، ولا يبعد بشجاعتكم قاصيها ، ويدين لامر الله بالطاعة متعاصيها . وقد قرن الله سبحانه النجاح والظفر بطاعة المأمور للأمير ، في الشاق واليسير ، والقليل والكثير ، ولا ينبئك مثل خبير . وطاعة الامراء والولاة من أول واجباتكم فلا يخفى عنكم ، وسبحان من يقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » (1) ، والإخلال بواجبها قطع لسلك كل جماعة ، وهو السبب الاعظم ، والعياذ بالله ، في الإضاعة . وأنتم بحمد الله معتصمون فيها بحبل الله المتين ، وإنما امثلت قول الله : « وَذَكَرْكُمْ فَاذْكُرُوا الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » (2) .

(1) س 59 آ/4 .

(2) س 55 آ/51 .

وهذا أمير محلتكم ، المحوطة بأمن الله وهمتكم ، الذي اخترته لإعزاز رأيكم ، وإظهار شجاعتكم ، المبينة على أساس طاعتكم ، كما اخترتكم لبذل النفوس في إنقاذ ما يأمركم به وقد وعاه عني ، اذ هو معكم كالجزة مني . فحسبه أن يأمركم بما هو مأثور به من الاعمال ، وحسبكم المساعدة للامثال ، في أي جهة وعلى كل حال . فارفعوا اليه سائر أموركم ، مما يتعلق بمفردكم وجمهوركم ، وقد أذنته أن يتصرف بما يراه في أميركم ومأمورك .

واعلموا انه يياشركم بيدي ويأمركم بلساني ، وهو وان بعد عني فهو نُصَّب عياني ، لانه الثقة الامين على ما يراه منكم ، وينتهي إلي عنكم .

وأرجو الله أن يسمعني ، ما ينفعكم ويسرني . وهو المسؤول أن يسدّد منكم القول والعمل ، ويلتغني من صلاحكم غاية الامل .

وقد أمرنا العمدة الثقة الاحزم الاحظي نخبة الاركان ، وعمدة أهل الشان ، وفارس ميادين السيف والسنان ، أمير الامراء ابننا رشيد أن يعلن بقراءة هذا الظهير على جمعكم . حتى يمتزج أمره ونهيه بقلوبكم وسمعكم . فأنتم الاولاد البررة الطائعون ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

ويبقى هذا الظهير بعد قراءته في موكبكم ، بيد من قلّدتّه في هذه الوجهة أحكامكم ، وجعلت يده التي هي يدي زمامكم . وقد أمرته ان تكون قراءته بمرأى منه ومسمع ، في ذلك المجمع .

واستودعكم الله الذي ما خاب طائعه ، ولا ضاعت ودائعته ، والله ولي المؤمنين .  
وكتب في العشرين من ذي الحجة الحرام سنة 1273 (السبت 20 سبتمبر 1856) .

ولما وصل هذا الامير الى نحو غومة كاتبه مخيراً له بين أن يرحل لدواخل المملكة أو يبعد عن أطرافها ، وإن خاف يبعث معه من يوصله لمنجاته ، فتعلل (1) . وأفضى الحال الى حرب في مفاوز الصحراء ، فقاتله حتى شتّت جموعه وشرّدهم ، وفرّ ناجياً بنفسه ، وقتل بعد ذلك [في الصحراء] (2) .

(1) في ع و ق : « فامتنع » .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وكانت مدة السفر بهذه المحلة ستة اشهر . [وأبلى هذا الامير البلاء الحسن] ، واستولى على بعض بلدان نفزاوة . وأمره الباي بقطع نخيلها ، فتناقل وراجع الباي واستعطفه . ومهد تلك الجهة ، واعاد لها العافية والراحة ، وأمن الساحة ، ورجع منصورا مشكورا . وظفر بمكاتيب كثيرة [لغومة] (1) من بعض أهل الفساد والتفاق ، أتى بها للباي ، فأعرض عن مطالعتها كسل الإعراض ، وداوى بهذه السياسة القلوب المراض . وذلك أنفع علاج ، في بقاء ما للملك الإطلاق من السياج . ولله درُّ القائل :

إذا أنت لم تغفر ذنوبا كثيرة تريك ، لم يسلم لك الدهر صاحب

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه ، يمتّ وهو عائب

شأن السياسة المرعية ، بين الراعي والرعية (2) .



وانتقل الباي الى سكنى بستانه في المرسى ، أوائل هذه السنة 1273 ، وأناب شقيقه وولي عهده يياشر الامور بيت الباشا في باردو ، بعد ان زاد في بستانه ، ونمّت ما شاء من بنيانه .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) بهامش ق 3 : 28 يوجد ما يأتي :

#### بيان التقادير المذكورة يسره ( ؟ )

بمقتضى التقرير المؤرخ في 25 ربيع الاول ، والتقرير المؤرخ في 26 منه ، سنة 1274 ، أن امير المحلة أمر السكرك والمخازنية بهتك حرمة نساء بني زيد . ولا اشتكوا له من ذلك ، أمر بجلدهم خمسمائة جلدة ، واخذ منهم اموالا . ومقتضى التقرير المؤرخ في 11 ربيع الثاني سنة 1274 أن المحلة رحلت من قبل واخذت منها عشرة (كذا) نساء ، منهن تسعة (كذا) اعطيت للخدام ، وواحدة التي هي احسنهن واصغرهن ، زوجة ابن شيخ قبل ، أتى بها امير المحلة في كروسة ، وجعلها في قيطون تحت نظر عسة ، واصطفاها لنفسه ، وجعل زوجها وحامها في السلاسل ، مع مائة وخمسين من اهل البلد . وبيعت املاك اهل قبل بثمنها للمكرم محمد المنيب بن حسن بن احمد السوداني خليفة تلمين ، بمائة الف وخمسة وعشرين الف ريال صغرى تونسية ، بعد أن هدمت بلادهم ، وهتكت حرمة نساءهم من امير الجيش واتباعه ، ونهى الباقين من اعادة بنائها ، وقد ذكر في رسم البيع المؤرخ في 29 ربيع الاول 1274 ، أن ذلك بئله على حلم مولانا ايده الله وحنانه وشفقته واحسانه ، حيث ساسهم بالحلم ، ولم يعاقبهم على قدر الجرم .

واما جواب امير المحلة للوزير الاكبر عن الامر الصادر له بقطع النخيل ، فقد وجدناه بخطه ، فابتناء هنا بحروفه . ونصه : الحمد لله . سيدى رعاكم الله وبقاكم . قولكم على الشقى غومة ان جاء في يدي تكون مهني منه . وان شاء الله يسعد ولي نعمتنا يحصل ، ان تصبح سى على ساسى . ونازلة النخيل وهدم البلد ، علينا مقصودكم . وربنا ان شاء الله يبقى مولانا ايده الله . وما عرفتنا عن اخينا صاحب الطابع أنه الآن بالاطالية ، عطاه الله سبحانه وتعالى ، هو يتخلع والناس في كراكة . ربنا ان شاء الله يبقى أجود (كذا) المعظم سيدنا ايده الله ونصره بمنه آمين . والسلام من مقبل ايديكم محمد . ليلة الاحد في 15 صفر سنة 1274 .

وفي صفر من السنة 1273 (أكتوبر 1856 م.) ، قدم أبو محمد خير الدين من  
فرانسة ، لأمور تتعلق بنازلة محمود بن عياد ، ورجع في الشهر بعد أيام .



وفي أوائل ربيع الأنور (أوائل نوفمبر ) ، تفضل الباي بنيشان آل بيته على وزيره  
وثقته أبي النخبة مصطفى خزنه دار ، وتشرف الوزير بقبوله ، وقال له : « ان آل بيتك  
يحملون هذا بلا مكتوب ، اعتمادا على نسبهم الشهير الواضح ، ومثلي لا يحمله الا  
بمكتوب ، ليقع الفرق [بين من يستحقه أصالةً ، ومن يناله بمحض الفضل] (1) ،  
فأمرني بإنشاء مكتوب له ونصه :

« الحمد لله الذي أَلَفَ بين قلوبنا فأصبحنا بنعمته إخوانا ، وأقام صالح العمل على  
الرضى عنوانا ، وخصَّ باسعاده مَنْ شاء من عباده تفضلاً وامتناناً ، فأطلق بالخير منهم  
يدا وأنطق بالصدق منهم لسانا ، أحمدته وكل شيء يسبح بحمده سرا وإعلانا ، والصلاة  
والسلام على سيدنا محمد المبعوث لكافة الخلق رحمةً وأماناً ، فملأ القلوب نورا وإيمانا ،  
وجزى المحسن إحسانا ، وناهيك أن جعل من آل بيته سكرمانا ، وعلى آله وأصحابه الذين  
شيدوا من معالم ملته بنيانا ، وبلغوا البنا سيرةً وأحاديثه صيحا حسانا ، وانتضوا لإعزاز  
كلمته صارما وسنانا ، وكانوا على البِرِّ والتقوى أعوانا ، فلو أنفق أحدٌ مثلَ أحدٍ ذهابا  
ما بلغ مدَى أحدٍ هم جزاءٌ ووزِانا .

أما بعد فإنا أصدرنا هذا الظهير ، والإعلان الشهير ، لكافة الافاضل أهل مجلسنا  
العلي بالشرعية المحمدية ، ونوابنا في القضايا الدينية الشرعية ، وحماة مملكتنا الاركان  
الوزراء ، والاعيان أمراء الامراء ، وأمراء الالوية وأمراء الآلايات ، وقائمي المقامات ، وأمناء  
الآلايات والبنباشية ، وسائر الجنود العسكرية ، والقواد والمخازنية ، وأولي الولايات العرفية ،  
على تعدد أصنافهم ، واختلاف أوصافهم ، ليعلموا أن الوزير ، الصدر الشهير ، أثير  
الدولة ، ومن له في ميادين الكمال سبق وجولة ، نخبة الاركان ، وفخر أهل الرفعة والشان ،  
تربية بيتنا ، المقرب عند حيّنا وميتنا المستحق للايثار ، لحמיד الآثار ، وزير العمالة وأمير

(1) الزيادة عن ع و ق .

الامراء إبننا مصطفى خزنة دار ، لا زال جميل الذكر ، عند أولي الذكر ، تحققنا من أمانته ، ونصحه وكفايته ، ونجاح تدبيره وحسن درايته ، وبدل الوسع في خدمتنا إلى منتهى غايته ، وقصره على مصالحنا بقلبه وقالبه وعنايته ، فأحمدنا به الخير ، ويحمد به الخير ، حتى رأيت به بمتزلة الابن الصالح الابن ، ولا غرو في تنزيل أهل صدق الوداد ، متزلة الاقارب والاولاد ، وقد قيل : المودة في اهل النهى نسب ، ومن فاته النسب الموروث لم يفته النسب المكتسب ، وهو أول ما يعد من مفاخر الحسب ، لا سيما والنسب الروحاني ، يعادل النسب الجسماني . فلذلك طوقنا هذا الوزير الذي وجدناه أزرًا واقيا ، وذخرا إن شاء الله تعالى باقيا ، بنشان بيتنا ، المخصوص بآلنا في مملكتنا ، ولم نجد لإظهار عنايتنا سواه ، وهو الاهل لما ناله بما حواه ، تقدم لنيله بنفسه ، على أبناء جنسه ، ومنابت غرسه ، والشكر على الجميل واجب ، والعمل الصالح لا يحجب حاجب ، والله يقول : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » (1) ، وذلك مقتضى الطبع والعقل والعادة ، وبه قادت السادة .

وقد ألبسته النيشان قائما بيدي ، اذ هو الجزء من جسدي ، داعيا الى الله أن يسد منه القول والعمل ، ويبلغني من ثمرات خدمته غاية الامل ، وهو ولي إعانته وتوفيقه ، وما توفيقني الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

والسلام من الفقير إلى ربه عبده المشير محمد باشا باي صاحب المملكة التونسية .  
وكتب في أشرف الربيعين سنة 1273 .



وفي يوم الخميس السادس عشر (2) من الشهر (13 نوفمبر 1856 م.) ، جمع الباي رجال دولته وأتى دار الشريعة التي كانت ديوان جند الترك ، بعد أن تم إصلاحها . وتلقاه أهل المجلس الشرعي ، ووقف أمام بيت الحكم ، وقرأ على لسانه شيخ الاسلام ابو عبد الله محمد بيرم خطبة بليغة من إنشائه . وبعد تمامها دخل بيت الحكم وجلس بموضعه منها ، والعلماء عن يمينه وشماله ، وأذن للخصوم فدخلوا ، وانفصلت نوازل ، ثم قرأ الفاتحة وخرج .

(1) س 26 / 10

(2) هو 15 حسب التقويم .



ونص ما خطب به الشيخ وأمضاه الباي ، وهو الآن معلق ببيت الحكم :

« الحمد لله الذي جعل الشريعة المحمدية ديوانا للأحكام جامعا ، وفرض على كل مسلم أن يكون لما تُبَرِّمُهُ وتَنْقُضُهُ سميعا طائعا ، وحضّر عبادة على الانقياد إليها ، والتعويل فيما يعرض لهم عليها ، فقال في مُحْكَم كتابه تقريرا لمن حاد عن ذلك وتفهيما : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (1) . والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيدنا محمد يَنْبُوع أحكامها ، ومُسْك زِمَامها ، وناشر أعلامها ، ويميز حلالها من حرامها ، وعلى آلِه وأصحابه القائمين في نُصْرَة شريعته الغراء بقلوبهم وقولبيهم ، المنقولة في حفظها وتأسيسها واضحات مسالكهم ومدونات مذاهبهم .

هذا والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ ، وما عظمت فائدته جدير أن يُتَلَقَّى بالقبول ويستمع ، خصوصا ما كان مشمرا لإعلاء منار الشريعة ، ومظهرا لجلالته ومناسبا لمكانتها الرفيعة ، وذريعة لأن يمتد لأحكامها البساط ، ويُجْرَى قانون أهلها على أقوم صراط ، من المثابرة على الانتصاب لتلقي الخصوم ، وتعجيل إيصال الحقوق إلى أربابها والمبادرة إلى كشف ظلامة المظلوم ، والتمكن من تشاور العلماء الذي لا تلمع بروقه في سماء المذاكرة إلا تبعها الغيث النافع ، واجتماع الكلمة الذي هو أعون على الإذعان فلا ينقلب المحكوم عليه إلا وهو لما جرى عليه من الحكم خاضع . وسدَّ باب روغان المتحيّلين ، بطلب عرض قضاياهم على العلماء المفتين ، فيجدون بذلك فسحة لنسج حلل تنقنها أنامل التزوير ، ويعسر تمزيقها بعد ذلك النسج المحكم حتى على الناقد البصير . ويطول على الغرباء الوافدين على الحضرة لفصل قضاياهم المشكّلة الالامد ، وتلزمهم المصاريف الوافرة وتمضي عليهم في تحمل هذا العناء الشديد الليالي ذوات العدد . وقد صدر الأمر العالي الجالب لجانب الشريعة جميع ما ذكر من المحاسن ، الصارف عنها ما أشير إليه مما هو لساحتها المطهرة شائن ، من حضرة ملك القطر الأفريقي وإمامه ، ومن ملكه الله سبحانه مقاليد أحكامه ، وجعل نظره ورعايته شاملين لعامته وخاصته وولاته وحكامه ، سيدنا ومولانا المشير محمد باشا باي ، ألهمه الله سبحانه من الصواب ما تَقَرَّر به أعين

رعاياه ، وأكثر في قطره المحروس من مناقبه ومزاياه ، بما صورته أن عيّن هذا المحل المعمور الذي سماه « دار الشريعة » لتنفيذ الاحكام الشرعية ، وتحرير الامور الدينية ، وإجرائها على وجه يخرج به الراعي من ربة التفريط وتصلح به ان شاء الله احوال الرعية .

وحجّرَ على جميع ولاية الشرع الحكمَ الآ بهاته الدار ، جمعا لكلمة الشريعة وصوبنا لها عن التشتت والانتشار ، ونخصّ هذا البيت بانعقاد مجلس فيه يحضره شيخ الاسلام والمفتّون والقاضيان وينضمّ السيد الداي ، يستمرّ ذلك من كل اسبوع في يوم خميسه ، وأمر بفتحه واجتماع المشايخ المذكورين به ليلة الصوم والإفطار لتحرير أمر الرؤية وإنهاء ما يثبت الى الحضرة العلية ، ولو أفضى الحال إلى استيعاب الليل كله ، قربا لما يردّ من شهادات الاماكن النائية ، كما يفتح ايضا لعروض أمرهم . وعين البهو الغربي لجلوس القاضيين في بقية الايام ، الا يوم الجمعة والعيدين واليومين المواليين له ، ويوم الاحد حيث انعقد المجلس بباردو المعمور . كما عين البهو الشرقي لجلوس مفتّين حنفي ومالكي على التناوب ، يتصبان به لإرشاد المستفتين ولشاركة القاضيين في النظر اذا طلب الخصوم ذلك ، ولباشرة تنفيذ الحكم اذا تخلّف أحد القاضيين بعذر يبيّن قوياً ، على ان تكون الاحكام الصادرة منهم ، والمراسلات المخاطب بها منهم قضاة الكور ، مختومة بخواتم رئيسهم .

وأمدّ الجلوس لتلقّي الخصوم على مرور الايام أربع ساعات تنتهي بمضي ساعة من الزوال لا يتقص منها شيء ، فان في ذلك اجحافا بحقوق المسلمين ، ولو قلت القضايا في بعض الاحيان ، ليكون الشغل المتعلق بالخطّة من ختم ما يحتاج الى الختم ، والإذن فيما يتوقف على الاذن ، انما هو في ذلك الوقت ، ويتفرغ صاحبها اذا رجع الى محله لمباشرة شؤونه الضرورية ، واغتنام راحته الفكرية والبدنية ، ولا يطرق بابه من الخصوم مشاغب ، ولا يجلس أمامه مطلوب ولا طالب . ولا يلزمهم العود آخر النهار ، ويكون الاذن في الشروع في مباشرة الخصوم لا كبر الحاضرين خطّة ، وانفصال الموطن بقيامه ، بحيث لا ينصرفون أفلاذا .

وعيّن البيت الملاصق لمحل القاضيين لجلوس ستة من العدول ، اما اثنان فقارّان لا يتبدّلان ، والاربعة الباقيون يكونون من عموم العدول على التناوب . وحصر عدد الاعوان في ثلاثين ، وجعل انتخابهم لشيخ الاسلام وتوليّتهم بتذكّره منه . وحصر الوكلاء في

عشرة ، وانتخابهم وتولييتهم كالأعوان ، ولا يجمع لواحد بين الوظيفتين . وأمر بتعيين أجورهم بحسب الاجتهاد على قدر المسافات التي يتوجهون إليها ، ومجالس الخصومات التي يباشرونها ، لا يتجاوزون المقادير المعينة لهم .

ولما كانت الذكرى النافعة للمؤمنين مأمورا بها بنصّ الكتاب ، والإصغاء اليها مستحسنا عند أولي الالباب ، فان أمير المؤمنين أيده الله تعالى يأمر بما أمر الله به سبحانه من تقواه التي هي للخير جماع ، وفي يد من أمسكها سيف قاطع لمّاع ، وبالرجوع الى الحق اذا تبيّن ، وطرح الاغراض النفسانية فانه من الامر المتعين ، فانما هي حقوق توصل الى أربابها ، وسفارة عن الشارع أوقف الله تعالى هؤلاء الجماعة على بابها ، ومشاجرة تضمحل<sup>١</sup> وان طالت ويبقى ليوم العرض ثوابها أو عقابها . وعليهم بحفظ مناصبهم الشرعية ، وملاحظة مراتب خططهم فيما بينهم فانها لديه نصره الله معتبرة مرعية ، ومواظبة المباشرة من كل واحد فان فائدة حضوره المشروحة تتعطل بمغيبه ، اذ كل واحد منهم آخذ من عمارة هذا المحل بنصيبه ، على ان السيوف إنما اتخذت لاصلاحها ، والجياد العتيقة لا تظهر فائدتها الا في ميادين غاراتها .

وقد أذن مولانا لجميعهم في استخلاف بعضهم بعضا اذا تبين العذر ، وتعين أن يرتكب لاجل الضرورة ذلك الامر . اما إخلاء تلك المراتب في كل يوم عن حاضر ، والتهاون بها حتى يُرى محل<sup>٢</sup> منها وهو عمن يعمره شاغر ، فان دائرة التجاوز بعد الإذن في الاستخلاف لا تسعّه ، والأذن المتهتة للاصغاء للأعداء المقبولة لا تسمعه ، لما فيه من امتداد الالدي الى نقض ما وقع إبرامه ، والسعي في توهين بناء من أعظم مصالح دين الاسلام قد أجيد لإحكامه .

والله تعالى يبلغ مولانا من إعزاز الشريعة وأهلها الامل ، ويجعل جميع من عين بهذا المرسوم الكريم ممن اذا سمع محسن القول أتبعه<sup>٣</sup> من الانقياد اليه حسن العمل . آمين .

وقد تكلم علماء المالكية في هذا المنشور بأن مضمونه حصر الرئاسة في كبير علماء الحنفية ، وقد كان لكبير المالكية في جماعته رئاسة ، بل غالب احكام البلاد على المذهب المالكي ، لانهم السواد الاعظم ، الى غير ذلك من نتائج المنافسة والغيرة بين الاكفاء ، ولا يخلو المرء من ودود يمدح ، وعدو يقلدح .

وفي هذه السنة ، 1273 ، أعلن الباي منشوره في شأن الفلاحة ، وهي من أعظم حسناته المذكورة ، وآثاره المشكورة .

وذلك أن ثروة البلدان على قدر ما يخرج من نتائجها للغير ، ولو من نتائج أفكارهم ، كإجادة المصنوعات .

وهذه المملكة متأخرة عن غيرها في إجادة الصناعة ، حتى إن غالب ثياب أهلها ، شعارا ودثارا ، من غيرها . والخارج من مصنوعات قليل ، كالشاشية ، وموادها من خارج ، ونسج جربة والجريد ونحوها وذلك نزر يسير ، [حتى أن الملوك لا يأخذون على إخراج ذلك شيئا ، تسهلاً لخروجه] ، فثروتها الحقيقية هي ما يخرج من أرضها وتربتها الطيبة الخصبة [بالنسبة لما جاورها] (1) .

وقد ثقلت الاعشار على متحلي الفلاحة ، وكادت أن تخلو منها الساحة ، لتجاوزها حدود المغارم تجاوزا واضحا [فظيعا] ، أفضى الى نقص مرثي<sup>٢</sup> بالعين ، حتى أن الفلاح في سنة الجذب [بقلة المطر] (2) يبيع المواشي وآلات الفلاحة ولا يكاد يخلص في مغرمها المسمى بالعرش ، لا سيما إذا كان ابن عياد ومن على قدمه يقبل العشر ، لانه يخلص من الفلاح ضعف ما يقدره الامناء على فلاحته ، مع تجاوز أمناء التقدير للحد المشبه .

وأرض المملكة عشرية غير مأمونة الري<sup>٣</sup> ، حتى كان أحمد باي يشتري القمح والشعير في اواخر مدته من خارج المملكة لعساكره ، وإن كان في الحقيقة اشتراه من لزّامه محمود بن عياد ، كما تقدم .

ولهذا الباي شغف بالفلاحة والشجر [المثمر] ، وكان ينتحلها ، وعلم بالعيان ، الغني عن البيان ما يقاسي أهلها . ولم يزل حال الفلاحة نُصَّبَ عينه منذ جلس على سرير الملك ، والوزراء يقولون له : « لا قوام لعسكرنا الا بهذه الحالة ، وربما يلزمنا الاقتراض إن نقصنا » ، فيخشى ذلك ، الى أن قال : « ان أكثر عسكرنا الآن مسرّح ، وأي داع لنا في الزيادة على ما يلزمنا لهناء مملكتنا من العسكر ، وقد نقص منه في الوجهة الى الدولة العلية عدد كثير ، والباقي تسرّح كسهوله وشيوخه . وبقاؤنا على هذه الحالة

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

يفضي إلى موت المملكة وتشتت عسكرها » . وظهر له أن يلزم سائر المسلمين العشر ، فقال له بعض رجاله : « ان أهل المنعة من أقاصي العربان والجبالي ممن لم يعتد دفع العشر ربما يمتنعون ، ولا يمكن إلزامهم الا بحرب » ، فقال : « المسلم من حيث هو مسلم لا يمتنع من العشر ، وهو حق الله [ومن قواعد الاسلام الخمس] ، انما يمتنع مما يتولد منه [مما افضى بالبلاد الى العدم] (1) ، فنخفف ما استطعنا ، حتى لا تنفر نفوسهم مما أوجب الله عليهم » ، فقالوا له (2) : « نرتب أداء على الارض » ، فقال : « ان أرضنا ليست كأرض مصر مأمونة الري ، وهي اكثر من سكانها ، وغالب اهلها فقراء . فاذا جاء الجذب وقع الضرر في رؤوس أموالهم . ولو رأى من تقدمنا في ذلك نفعا ، ما تأخر عنه » ، وعرض عليه هذا الرأي وهو في مضيق ، فاجاب بهذا ، « وأي داع لنا في مخالفة الشريعة ، والبركة والخير في اتباعها » .

ولم يزل [هذا حديثه مع الوزراء ، ينفق مما امتلأت به اسماعه في معرض الاعتراض على من تقدمه ، والوزراء يحاولون الجواب ، وهو في ذلك] (3) يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، الى ان اعتمد على فضل الله وتوكل عليه ، وعامله الله بنيته الحسنة ، وأمرني أن اكتب عنه لسائر اقطار المملكة ، غير محاش جهة من الجهات ، مخاطباً للعمال والقضاة والمفتين والمشايخ والاعيان ، ونصه بعد افتتاحه :

« اما بعد ، فان عنايتنا ، باعانة الله ، لم تزل مصروفة الى زيادة العمران ، في سائر ما لنا من الاوطان ، وظهر لنا من أسبابه التخفيف على أهل الفلاحة ، ليكثر البذر في كل ساحة ، ورأينا القانون في العشر لا يخلو من إجحاف ، أو زيادة في التقدير أو إسراف ، وبعض الاوطان تؤدي العشر بالحزر والتقدير ، وبعضها لا يؤدي حتى النزر اليسير . والعشر حق لله على عباده ، في سائر أرضه وبلاده ، وهو من قواعد الاسلام ، الواجب لها الاذعان والاستسلام . وقد ذكرناه في منشور الإعانة ، وأخرنا تربيته وبيانه ، حتى أعملنا الفكر فيما نغصب عليه من المقدار ، وهو بحلول الله من حميد الآثار . فجعلنا في كل عام على كل ماشية باعتبار بذرها المختلف باختلاف الاوطان ربع قفيز

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) كذا في خ ، ولى ع و ق : « فقال له بعض الجهلة : لو رتبنا اداء مناسباً » .

(3) الزيادة عن ع و ق .

من القمح ومثله من الشعير . ومن بذر نصف ماشية يؤدي نصف ما على الماشية ، ومن بذر ربع ماشية يؤدي ربع ما على الماشية ، وهلم جرا بنسبة ما على الماشية ، يدفعه رب الفلاحة في وطنه ويقبله العامل في محل عمله ، الا الاوطان الجاري عملها بالدفع في الرابطة أو غيرها ، فانها تبقى على عادتها المألوفة في محل الدفع .

ومعيار القبول هو الوية التي أحدثناها بالرابطة ، قطعاً لتطفيف الكيل على ذلك [الشكل (1)] الذي يصعب به التطفيف ، ويزال منه الزائد على ظرفها بالمسح . ولا توجه لحزر زرعه أمناء ، وإنما كل عامل يحقق لنا مقدار ما في عمله من الفلاحة بثقات يوجههم لتحقيق ذلك ، وهم مشايخ العمل ، ليكون ذلك منوطاً بعهدتهم ، ومظهرها لامانتهم أو خيانتهم . ويجزي الله الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى .  
وان وقع اختلال في التقدير (2) ، يوجه أمين وعدلان لتحقيق الامر . فان كان كما ذكر ، فمصرفو التوجه على رب الزرع . وان كان أقل فمصرفو التوجه على العامل .  
ولا يتعطل أرباب الفلاحة في درس زرعهم على طلوع الامناء .

ولا نلزم الفلاح شيئاً زائداً على ما ذكر ، سوى أجر المشايخ النظار ، وهو ريالان على كل ماشية ، وأجر الكيل والخدمة وقد ذكره الخلاص على عادة الرابطة .  
وبهذا الترتيب المبني على أساس المصلحة ، يكون الفلاح عالماً بمقدار ما يلزم لفلاحته في كل عام .

فاقرؤوا هذا الظهير على كافة أهل عملكم ، حتى يتحققه الخاص والعام ويبادروا لامتنال مأموره ، وما حرر في مسطوره .

وقد أعملت الفكر في المصلحة والرفق فيما أمرت ، وما أريد الا الإصلاح ما استطعت .

والله يجعلنا ممن يهدون بالحق وبه يعدلون ، ويجعلكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه . ومن لم يقابل هذه النعم بالشكر ، فما له عند العقوبة من عذر ، ومن قابلها بما يجب من الشكر استحق المزيد ، قال تعالى : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ »

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذا في ع ، وفي ح : « اختلاف بالتقدير » ، وفي ق : « خلاف في التقدير » .

لَا زِيْدَتَكُمْ وَلَتَيْنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» (1) ، والله بعين الجميع على شكر المنعم سبحانه ، ويوفقنا لصالح العمل ، ويمنّ على عباده بالعافية والخصب من فضله ، والله ذو الفضل العظيم .

وكتب في ربيع الثاني سنة 1273 (ديسمبر 1856 م) .

ثم ان القُبَّاض أوهموه بأنه لو خيّر الفلاح بين ان يدفع عشرة حبوبا للعامل أو دراهم ، ربما يكون أخفّ على الدافع . وفائدة ذلك انما هي لهم في أخذ ما يسمونه « قباضة » لانفسهم ، والا فيقاؤه في ذمة العمل (2) أنفع لاهل الوطن في سني الجذب ، يشترونه بأخفّ من جلبه من وطن لوطن ، فراج لديه ربيهم (3) ، وقوم أداء الماشية خمسين ريالاً لمن يريد دفع عشره دراهم ، وجعل الخيار للدافع في الاوطان البعيدة التي لم تعتد دفع العشر ، وكتب بذلك أوامره .

وبهذا التخفيف استبشرت العباد وانتعشت الآمال ، وتحركت الايدي للأعمال ، واخضرت الارض بعد بياضها وربت ، وبشكر الله أعربت . ورجع من لاخذ بالفرار الى وطنه .

واختار لقبول النعمة بالرابطة مملوك أبيه [ومربيّه] (4) أبا القداء اسماعيل قائد السبسي فوقف عند الامر والنهي . وهو دين ثقة أمين جدّي الطبع ، فصار من يأتي بالعشر الى الرابطة اذا فضل له شيء بعد الكيل يقول له المأمور المذكور : « رجّع متاعك » ، فمنهم من يقول : « لا أرجعه ، وهو هدية مني الى الرابطة » ، فلا يقبله منه ، ومنهم من يتصدق به شكراً لله على نعمته ، ومنهم من يرجعه ، وصار قويّ الإيمان يحاسب نفسه على ما بقي لله في ذمته من العشر الواجب ويتصدق به .

ودانت لهذا العشر سائر الاوطان القاصية ، وتمّ له ما لم يتمّ لآبيه من إلزام سائر الاوطان [لعشر الذمة] سنة 1244 ، اربع وأربعين ومائتين وألف (1828/29 م) . [والقليل في الكثير كثير] (5) .

(1) ص 71/24 .

(2) في ع و ق : « في ذمة العامل » .

(3) في ع و ق : « فراج عليه ذلك » .

(4) الزيادة عن ع و ق .

(5) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

وظهر أثر ذلك في دخل الدولة ، [والعمران] (1) من العام الثاني .  
وغلت اسعار البقر وأكرية الارضين ، حتى ان البعض أكرى هنشيره بقدر ما  
اشتراه به زمن تراجع الفلاحة .  
هذا وعيونه ترقب في ذلك اعمال العُمّال ، فخافوه وأقصرّوا ، لانه مرهف الحد<sup>٢</sup>  
في المخالفة [لا يقبل فيها عثرة] (2) .  
ولم يزل حال الفلاحة في نمو<sup>٣</sup> ، إن سلم (3) من ولاة السوء النائمين في مهد الإمهال .  
[ويمهل الله الظالم] (4) وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .



وفي ذي الحجة من السنة 1273 (جويلية - أوت 1857 م) ، بعث الباي خاصته المقرب  
لديه ، صهره أبا الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، ومعه أمير اللواء ابو الضياء رستم ،  
والامير آلاي فليسي راف ، بزواج من الخيل وسرج عربي وغير ذلك من نتائج البلاد  
الى دولة النمسة هدية<sup>٤</sup> .

وقبل سلطانها الرسل أحسن قبول ، [وميزهم بنواشين] ، وكان معهم في السفر قنصل  
النمسة [بالحاضرة] (5) .

ورجعوا عن قريب مسرورين بحسن المباشرة والعناية والإكرام .  
ولا سبب لهذا السفر الا هذا المرام ، وإنشاء وصلة مع تلك الدولة العظيمة ، واطها،  
شأن الرسول .

---

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) كلما في خ و ق ، وفي ع : « الى ان سلم »

(4) الزيادة عن ع و ق .

(5) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .



عَلَيْهِ السَّلَامُ



وفي العشرين (1) من محرم الحرام ، فاتح شهور سنة 1274 ، اربع وسبعين (الاربعاء 9 سبتمبر 1857 م.) ، منح الباي عهد الامان لسائر اهل المملكة والسكّان .  
وهو ما كان يتوقّعه احمد باي ، ولاجله تفادى من الجلوس في المحكمة للحكم بما يراه .

وذلك ان هذا الباي لما جلس على سرير المملكة ، وكان ينكر على ابن عمه عدم مباشرة الحكم ، لازم الجلوس بالمحكمة لظنه ان ذلك هو معنى الملك . إلا أنه ابتداء من حيث انتهى أسلافه . فقد كانوا يحكمون باجتهادهم في قُطَاع الطريق واللبصوص وما يرونه فسادا في الارض ، وغير ذلك مما رخصت فيه السياسة الشرعية الاعتماد على القرائن وشهادة الحال ونحو ذلك مما يفعله صاحب المظالم والشرطة ، ويسمعون الشكايات من ظلامات العمّال ، ويصرفون نوازل المعاملات والقصاص الى القضاة واهل المجلس الشرعي ، ونوازل التجارات الى المجلس المتجري المعروف بال عشرة الكبار ، ونوازل الغصب على خلاص الحقوق الثابتة يباشرها الداي وأغة القصة وأغة الكرسي وغيرهم . فباشر هذا الباي سائر النوازل على اختلاف أصنافها ، من غير تخجير على غيره ، يحكم فيها بما يظهر لأجتهاده ، من غير توقف للتأمل ولا مراجعة ، ولم يكن عنده من آلات الاجتهاد ما يستتر به .

وكان جريئا على تنفيذ ما يراه بسرعة في الحين ، كقتل محمد السقا ، وكان يلزمه تعزيز لا يبلغ القتل ، بعد ثبوت الدعوى بطريق من طرق الثبوت المعتبرة عقلا أو سياسة ، وقتل جماعة من اهل المرسى ، يعلمهم من أهل الدعارة والفساد ، وقعت بينهم معركة في مجلس لهو. انجرح فيه أحدهم ، فحملته أمه شاكية ممن جرح ابنها ، فأمر بقتله مع المدعى عليه وغيره ، وهو بروشن قصره في بستانه بالمرسى ، في غير ديوان حكمه بالمحكمة ، وأخذ أموال أبي عبد الله محمد المرابط وصالح شيبوب ونقييهما ، ولا ذنب لهما الا

(1) هو 19 حسب التقويم .

خدمتهما في ابن عمه كغيرهما من خدّامه الذين طردهم وانتزع ما ربحوه بخدمتهم  
التي ضاعت فيها أعمارهم : وتفرقهم شذر مذر ، الى غير ذلك مما لا يقتضيه حال من  
الاحوال زمن أبيه وجدّه .

دخل اليه رجل من صعاليك الاعراب وجفاتهم ، يحمل مزودا به رأس رجل ورأس  
امرأة وقال له : « ان أمرأتي هذه وجدتها مع هذا الرجل فقطعت الرأسين ، وها أنا بين  
يديك » ، فقال له بديهة : « أحسنت » . وأمر ان يكتب له باسقاط ديتهما وعدم  
المطالبة بدمهما ، بمجرد دعواه ، قبل ان يثبت عنده ان المرأة زوج القاتل ، وان الرجل  
اجنبي عنها وهو محصن ، الى غير ذلك مما يجب لصون النفوس المحرمة . اذ من الممكن  
القريب ، باعتبار شاهد الحال ، ان هذا الرجل قتل رجلاً وامرأته لاختذ مال او لعداوة ،  
وتستّر بهذه الدعوى ، الى غير ذلك من الاحتمالات التي لا يزيلها الا التثبت في طرق  
القبول .

ومع ذلك يلزم هذا المقرّ بالقتل الادب ، للافتيات على الحكم ، اذ ليس لكل  
أحد ان يقيم الحدّ ، والا انعدمت فائدة كتاب اللعان ونصب الإمام .

ولما كلمه بعض النصحاء في ذلك ، احتجّ لحكمه بأن والده حكم بقريب من هذا ،  
وهو أن رجلاً قتل رجلاً وأقرّ بالقتل ، مدّعياً أنه وجدّه مع امرأته ، فقال له : « لو قتلتهما  
معا ، سرحتك ، اما اذا قتلت الرجل وأبقيت امرأتك ، فيلزمك القصاص لإقرارك » ،  
وأمر بقتله .

ومن يقدر ان يقول له « ان والدك [الذي استندت الى قوله] (1) غير معصوم ؟ » والحال  
ان والده غير معصوم من الخطأ . الى غير ذلك من نوازل المحكمة المنافية للمعقول والمنقول ،  
وقد تقدم شيء من بيان حالها في العقد الاول من مقدمة هذا الكتاب .

واتفق ان عسكرياً قتل يهودياً وأخذ سلعته ، وأتى اولياء اليهودي بشهادة على ذلك من  
لقيب الناس ، فصدر الحكم بقتل العسكري من غير سماع لجوابه .

وبلغ الباي من المحتسب وغيره ان الناس تكلموا في ذلك .

(1) الزيادة عن ع و ق .

وبعدها بأيام قامت شهادة من لفيف الناس بالحاضرة على يهودي من سوقة اليهود اسمه باطو يخدم على كرطون للقايد نسيم رئيس اليهود ، بأنه شتم مسلماً وسب دينه . وكان اليهودي حال الشتم بحالة سكر على عادته المعروفة منه .

ولما رفعت الوثيقة للباي ، امتنع من تعزيز اليهودي على مذهبه الحنفي الجاري به عمل آله ، لعموم البلوى ، وعزم على نشر النازلة بالمجلس الشرعي ، فقال له الوزير أبو النخبة مصطفى خزنة دار : « الانسب بحال الوقت ان سيادتكم تبأشر الحكم في هذه النازلة بما تراه من العقوبة غير القتل ، وستر أمثال هذه النوازل هو ما يطلبه الوقت من السياسة ، كما كان يفعل أسلافك » ، فقال له : « بالامس قتلنا عسكرياً مسلماً لقتله يهودياً » .

وأمر بنشر النازلة في المجلس الشرعي ، وأتى الطالب للجماعة المالكية ، ومذهبهم شديد في أمثال هذه النوازل ، فرأوها من المسائل التي توجب القتل بلا استتابة . ويد المحتسب جائلة في النازلة ، جرياً مع غرض الباي ، ولحاجة في نفسه على متبوعه القايد نسيم على ما يقال ، والله أعلم . حتى إنه توعد من يتوكل عليه (1) من وكلاء المجلس الشرعي . وأحضروا اليهودي بالمجلس ، وقرئت عليه الشهادة ، فأنكر صدور ذلك منه ، فقبل له : « ان الامر ثابت عليك بالشهادة » ، فأصرَّ على الإنكار ، فقبل له : « ما تقول في هؤلاء الشهود ؟ » ، فأصرَّ على الإنكار ، وفي المذهب الحنفي ان الإنكار في أمثال هذه النوازل توبة ، ولم يطلب شيئاً . ولشيخ الاسلام أبي عبد الله محمد يرم ميل إلى اجراء الحكم في النازلة بمقتضى المذهب المالكي ، فقال له شيخنا العلامة أبو عبد الله محمد بن الخوجة : « ان هذه النازلة ذكرها صاحب البحر » ، فأجابه بأن البحر فيه البلاغات ، فأحجم شيخنا .

وأثنى المترجم الاول بدارالفرنسيس ، واسمه رؤسو (2) ، من اعيان الفرنسيس وحذاقهم وفصحائهم بالعربية ، الى دار الشريعة ، راثماً توقيف إبرام الحكم في النازلة ، فلم يحصل على مراده بشيء . وآل الامر الى الحكم بقتل اليهودي من غير استتابة ، على خلاف المذهب الحنفي .

(1) في ع و ق : « على اليهودي » .

(2) Rousseau (قائماج ص 46)

ولما ارتفع الخلاف بالحكم المالكي ، حكم شيخ الاسلام بصحة الحكم وإمضائه .  
ورفع إلى الباي أوائل ذي الحجة في يوم جمعة (2 ذي الحجة -- 24 جويلية 1857 م) ،  
وهو ببستانه في المرسى ، فأمر بنفوذه في اليوم وهو في غير ديوان حكمه . [وقُتِل اليهودي  
بالسيف] (1) ، واندعرت اليهود وعقلاء الحاضرة من الاستعجال في نفوذ الامر بالقتل ، بل  
والحرص عليه . ولا يوجد العجول محمودا ، ولا يعدم الصرعة صاحب السرعة . وآفة القوة  
استضعاف الخصم .

وهذا الباي كان يَنْقِم على ابن عمه التريص في ذلك ، ويراها من تأخير الحدود ،  
ويقول : « السجن ملآن بالمحبوسين للقصاص » ، وان كان أكثرهم في حبس الشريعة  
لعدم توفر بعض الموجبات ، فقتل منهم - سياسة - من حبسته السياسة .

ولما وصل الحال الى حد<sup>8</sup> بقاؤه من المحال ، أناه قنصل الفرنسيس ليون روش المتقدم  
ذكره ، وقال له : « ان محبتي فيك وفي بلادك حملتني على نصحك » . وأخذ يعدد له  
أحكاما صدرت منه باستعجال من غير روية ولا إعمال فكر في الحقوق . « ولا بد<sup>9</sup>  
لكل زمان من سياسة تخصه . وان الدولة العثمانية ، وهي ما هي ، سارت بما يقتضيه  
حال الزمان من السياسة ، وان جلوسك للحكم في الجنايات بما تراه وحدك ، يحملك على  
هذه البوادر . لانك إن توقفت أو شاورت ، ترى أنك خالفت عادة آلك . وتلك العادة  
لم يبق لها موقع في الوجود ، وان كان يثقل عليك ذلك ، كما انه يستحيل ان تبقى أمة  
برأسها في أكثر معمر الدنيا » ، الى غير ذلك ، حتى ظهر له انه نصيحته ، فعزم على  
جعل مجلس للحكم في الجنايات ، وكاتب بذلك مجلس الشريعة والداي ومشايخ البلاد  
الثلاثة وغيرهم . وكان ذلك في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة 1273 (الخميس 13  
أوت 1857 م) . ونصه بعد صدره واسم المخاطب : « أما بعد فانا عزمنا ، بإعانة الله لما  
رأيناه من المصالح ، ان نرتب ديوانا مركبا من أعيان المسلمين من رعايانا ، للنظر في أحوال  
سائر الجنايات على اختلاف أنواعها ، والتأمل في حججها ، ويرفعوا إلينا ما يقع عليه  
انقصالهم ، ولنا النظر بعد ذلك . وكذلك نجعل ديوانا للأحكام المتجرية ، ينظرون في  
أحوال المتجر وما يقع بين التجار . ويكون الديوان من أعيان المسلمين من رعيننا . ونأمر

(1) الزيادة عن ع و ق .

أعيانا من رجال دولتنا لترتيب قوانين ما يحكم به الديوان المذكور ، ونختار منها ما نحكم بامضائه . اما النوازل الشرعية فالنظر فيها للشرع العزيز . ومن الله الإعانة ، والسلام » .

فقال له القنصل : « لا بدّ من قانون يكون ضامنا لذلك » . وتقاع بهذا المكتوب وقال : « نرجو الله ان يكون هذا كافيا في سكوت الدول عنك » .

ويقال ان اليهود بباريس لما بلغهم ما حلّ بأنحيهم في الديانة ، وهم يرّدون من مياه الحرية ويتنفسون من هوائها ، رفعوا أمرهم على يد أحد العظماء منهم للدولة قائلين : « ان اخواننا بتونس ، والحالة هذه ، غير آمنين بسبب ديانتهم » ، فأتى الاسطول الفرنسي في اوائل محرم سنة 1274 ، اربع وسبعين (اواخر اوت 1857 م.) ، به تسعة أجناف ، بها نحو السبعمائة مدفع ، وأميره عظيم من شيوخ الفرنسيين اسمه تريوار .

ولما رسا بحلق الوادي تحير الباي ، وذهبت نفسه كلّ مذهب ممكن ، ونزل أمير هذا الاسطول ومعه أعيان ممن معه ، واجتمع بالباي في بستانه بالمرسى ، وترجم بينهما الوزير الكنت جوزاب راف ، فقال هذا الامير للباي ، وكان بالمكان المكين من السياسة وحسكة التجريب ، : « إني ، عن إذن سلطاني ، أتيت بهذه القوة لإعانتك على من يخالف أمرك في إعطاء الحرية لرعيثك ، والامن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وأديانهم . وحاشا مثلك ان يُغصب على العدل وهو من أصول ملتكم . وأنت تعلم انه يلزمك ان تكون كالدول ، وهذا السلطان العثماني نحن منحه الدول المرتبة . وأطلب منك تعجيل الجواب . وإن ما أشرتُ به عليك أنفع لسياستك وسياسة دولتنا معك » . والقنصل [جالس] (1) لم يتكلم كثيرا .

ومن الغد جاء قنصل الانقليز واسمه ريشارد هود (2) ، وييده مكتوب له من دولته مضمونه مثل مضمون كلام أمير الاسطول . وطلب الاجتماع بالباي فقابله ومعه رجال دولته . وقال لي الباي : « كالمه أنت فيما يتعلق بأمر الدين » . وكان هذا القنصل من أفراد جنسه ، عالي الهمة ، فصيح اللسان ، ثاقب الفكر ، محجاجا منصفيا ، حنّكته التجارب والاسفار ، معتبرا في دولته ، يتكلم بالعربية ، خالط العلماء بأرض الشام ،

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) Richard Wood

وتكلم مع الباي في غرض النصيحة طلق العنان ، والقوم سكوت ، فقلت له : « إن هذا الترتيب المطلوب منا ربما يمس ديننا » ، فقال لي [بديهة] (1) : « إن أردت دينكم الذي كان عليه سلفكم ، وبه هُدم في ثمانين سنة ما بناه الرومان في ثمانمائة سنة ، فهو المطلوب منكم ، وإن أردت تلوين فتاوى الفقهاء على حسب أغراض الملك (2) ، فمعاذ الله أن يكون هذا ديننا . وغاية المطلوب منكم لإجراء أصول دينكم ، ويقبح بأمة يغصبها على العمل بدينها أجنبي منه » ، فأخجلني ولم أجد جوابا . ومغالبا الحق مغلوب ، ومكابر البرهان بالجهل موسوم .

وقد قيل : قول المرء يكشف عقله ويسدي سجاياه وما كان يكتُم ثم أعرض عني وقال للباي : « اذا سمعت نصيحتي فبادر الى هذا الامر ، لان أسطولنا في مالطة ينتظر جوابي مع فابور حاضرا لحمله ، واذا طال مقام الاسطول الفرنسي ، فلا جرم ان دولتي تبعث أسطولها ، ولا يبعد ان الاسطول العثماني يقدم ، ولا نعلم ما يكون ، وربما يتسع الخرق على الراقع ، اذ لا قدرة لك على ثلاث دول عظام مطلبهم واحد . ودولتكم مأمورة بذلك من سلطانكم العثماني ، وأتاكم فرمانها في التنظيمات الخيرية ، وأجبتكم بالامثال ، وهو الحق المعقول والمنقول من شريعتكم ، والا ما ساغ للدولة العثمانية ان تقدم على ذلك » . ثم قال للباي : « فائدة هذا الامان راجعة لبنيك ، ونفرض انك تعيش خمسمائة سنة او ما شئت ان تعيش ، أليس بعد ذلك كله الموت ؟ والمتولي بعدك يفعل ببنيك ما يظهر له ، من غير قانون يمنعه . وقد كان رجل من بني عمك سجنه أبوك وهو صبي لم يبلغ الحلم ، حتى سرحته انت لما تحقق عندك انه على حال من العتة ، فاترك أولاك في أمان » ، الى غير ذلك من الكلام المؤيد بقواطع البرهان . ثم قال له : « نترك وقتا تتفاوض فيه مع وزرائك ونصحائك ، فان المطلوب منك واقع لا محالة ولو بعد حين ، فافعله باختيارك واغتنم فخره عند الدول واربح به المحبة من رعيتك » ، وانصرف .

ومن الغد جاء قنصل الفرنسيس ليون روش ، وكان خبيرا بأصول الملة الاسلامية ، وقال : « انني لم أتكلم بمحضر امير الاسطول حتى سمعتم كلامه ، واطنكم سمعتم

(1) الزيادة من ع و ق .

(2) في ع و ق : « الملوك » .



كلام قنصل الانقليز ، والآن أتيت ناصحا . وخاتمة كلامه « ان هذا المطلوب لا بد من إتمامه ، لا سيما وقد فعله سلطان المسلمين . وقد أتاني مكتوب من جناب الوزير ، جوابا عن مكتوبي ، وقد عربته بنفسه ، وناوله للباي . »

وقد كان كل واحد من قنصل الانقليز والفرنسيس المذكورين لخص رسالته في مكتوب منه وبعثها للباي ، ومضمونها ما تقدم [من النصح] (1) .

اما مكتوب الوزير فنصّ تعريبه على ألفاظه وتراكيبه : « هذه نسخة من نسخة مكتوب المعظم الكونت فالسكي ، وزير الامور الخارجية بدولة فرنسا ، الى موسى (2) روش ، قنصل جنرال ومتولي كافة أمور فرنسا في عمالة تونس » ، وتاريخه في 20 يولييه سنة 1857 (الخميس 29 ذي الحجة 1273 هـ) . وغالبه اطناب في غرض التشجيع على الباي [في نازلة قتل اليهودي] (3) وعدم سماع نصيحة القنصل .

[ومن دعاء الناس الى ذمتهم ذمتوه بالحق وبالباطل] (4)

ونذكر من فصوله ما يتعلق بالنازلة بلفظه ، فمنها :

« ويكفيني ان أقول في وقتنا هذا ، لو توجد دولة لا اقتدار لها ان توافق سيرتها مثلما هو جاري في جميع الاقاليم ، فلا يعتبر بها أحد ولا تستاهل حماية الدول العظماء ، ولا شك ان الباي يعلم ويتيقن بذلك لو كان يستفسر ما أثر في اروبا من سيرته في هاته النازلة . ولو كان يترك قول بعض المشيرين اليه من اهل الجهل بمعزقة الامور الدنيوية والسياسية . ودليل غلطته المضرة الذي لا زال يلام عليه فيها ، هو ان صورة سيرته هاته ليست موافقة لسيرة دولة السلطان عبد المجيد الذي فرض عليه طاعته فيما يتعلق بأمر الدين ، وان اليهودي الذي قُتل بتونس لم كان يوجب قتله باسلامبول ، بوجود ما وقع من الشروط والترتيب والمساعدات في هذا الزمان الذي اتفقوا عليه جميع مشايخ الاسلام بالحضرة العلية العثمانية ، وحكموا بأن جميع ذلك ليس مخالفا لقواعد دين الاسلام . فبسبب ذلك حين الباي أمضى حكمه بقتل هذا اليهودي قد غيّر اولاً قلوب اهل اروبا ، وثانيا عصى السلطان القائم بدين الاسلام الذي يوجب اطاعته في امور الدين » .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) كذلك عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

(4) البيت ساقط من ع ، مثبت في ع و ق .

ومن فصوله ما نصّه بلفظه : « واننا ليس تعريضنا في هذه النازلة فقط ، بل انما تعريضنا لسيرة الدولة التونسية التي هي غير مستقيمة ، وقد نتجت منها الواقعة المشار اليها . ونحن منذ ثلاثين سنة مجتهدين باسلامبول وباذلين حرصنا واقتدارنا لترك السلطان البعض من سيرته القديمة ، وليجعل عوضها ترتيبا موافقا لما يطلبه زماننا هذا ، وقبيلنا جميع مقصودنا . فكيف الآن نترك باي تونس ، اي هذا الامير الذي لم كان تحريره من اسلامبول الا باعانة دولة فرانس ، فكيف نتركه يتبع سيرة مخالفة للسيرة التي استجلبنا دخول أكبر سلاطين الاسلام اليها » اهـ . ومنها أيضا بلفظه : « واما خطابي هذا كله فيما مضى ، واما قولي الآن فيما سيقع في المستقبل ، هو أنه تأمرك بتوجه الى الباي وتقرأ عليه جوابي هذا ، وتبين له انه لا بدّ ومن الواجب عليه ان يجعل في سيرة دولته ترتيب صالح مثل ما جعل ورتب سلطان الاسلام . وقد كان هذا الامير محمد باي واعدا سابقا بذلك . وبهذا الترتيب تزول هذه الحالة المضرة التي هي غير مقبولة وليس لنا اطاقة على حملها أبدا . وسنبيّن لك البعض من هذا الترتيب الذي لا بدّ له ان يقع بعمالة تونس . منهم أولاّ الطريونات ، يعني المجالس ، احدهم مختص بحكم امور المتجرية ، وغيرهم فيما يتعلق بكافة الجنايات . وان السلطان عبد المجيد لما أراد ترسيم هذا الترتيب في هذا الحكم الجديد ، استعان بجميع وزرائه ، وبمشورة جميع المشائخ والعلماء جعل تلك المجالس ، وأذن ان يكونوا أربابهم مختارين من جميع الاديان ، وصرف حكم تلك المجالس فيما يقع بين الاسلام والنصارى وغيرهم من اهل الكتاب . وان باي تونس قادر أن يحتمي بما رتب السلطان ، ويجعل ببلده ترتيبا مثل ما فعل السلطان ، من غير خوف من أحد .

وينتج من هذا الترتيب فائدتين ، أولهما قطع وقوع نازلة مثل ما وقعت على اليهودي الذي قتل ، وثانيهما انه ينال الباي [بها] (1) أعظم حقوق السلطنة ، وهو العفو لرعيته . وينتج أيضا من هذا الترتيب منفعة أخرى للعامة ، هو ان جميع الخلق تقبل شهادتهم لدى تلك المجالس مثل شهادة سائر المسلمين . ومن جملة التراتيب أيضا الرجوع والتمسك بشروط التجارة الواقعة بين تونس واجناس اروبا من غير خلاف . وايضا التسريح بجميع الصنائع لكافة الخلق . وايضا التسريح لجميع الخلق أن يملكون العقارات مثل اهل

(1) الزيادة عن ع و ق .

البلد ، وما أشبه ذلك . ومن غير شك عندنا ان الباي لا يتوقف في اظهار امثاله لما ارادت منه الاروبا ، ولا يمكن له الامتناع من ذلك . ومن المعلوم ان الملك يضيع قدرته السلطانية اذا يتصرف بها على كيفيته التي لا يقبلها لا العقل ولا الحنانة البشرية . وبالعكس لو أن الملك يترك جميع أغراض النفس (1) ، ولا يستنصت لما لا يصلح في الوقت ، فيزيد حيثل فخرا في تلك القدرة السلطانية . ولا شك عندنا ان الباي في هذه الحالة لا يستشار من أناس الذين قادوه بمشورتهم لامور غير صالحة ، وأوقعوا له الاختبال في عقله كم من مرة . فتتقرب تَعْلِمُنَا بما ينتج من مخاطبتك بهذا الجواب مع الباي ، لنعرضه الى حضرة جناب الانبراتور سلطان فرانسة « . اه . تمام مكتوب الوزير .

ومكتوب في آخر هذا التعريب بخط القنصل باللغة العربية ما نصه : صح من كاتبه بيده الفانية ، عبد ربه سبحانه ليون روش ، قنصل جنرال الانبراتور ، ومتولي امور فرانسة في عمالة تونس . وبعده تصحيحه بالقلم الفرنسي .

وهذه المكاتيب المذكورة موجودة الى الآن بأعيانها في خزائن الدولة .

و [بعد ذلك] (2) ناول الباي ايضا تقييدا بخطه في اصول القانون وانصرف ، فجمع الباي رجال دولته ، ومنهم شيخ الإسلام ابو عبد الله محمد بيرم صهره ، وقرأ عليهم اصول القانون ، وهي اصول التنظيمات الخيرية . وكان شيخ الاسلام أسرع الحاضرين للاجابة ، مستندا الى الغضب الذي لا قدرة لنا على دفعه . وهو المشار اليه في تعاريف مكاتيب الوزير من الذين قادوه بمشورتهم لامور غير صالحة ، وأوقعوا له الاختبال في عقله كم من مرة ، فقلت له : « ان القوم لم يصرحوا بالغضب ولا آذنوا بحرب وانما نصبحوا » ، فقال : « نخشى الغضب من الدولة العلية ، واصول التنظيمات لا تخالف ديننا » .

وتسارع الباي الى القبول ، غير مفكر في معنى ما التزم به ، وفي طبعه الرفق والعدل فيما لا يعارض شهوته ، فقلت له بمحضر اولئك الجماعة : « يا سيدي ، ان الامر صعب على مثلك ، فاعرف ما تلتزم به ، فانك بهذا الامر تكون يدك هكذا » ، وقبضت يدي الى جنبي ، فقال لي : « لاجل نفع الرعية نرضى ان تكون يدي هكذا » ، وقبضهما الى جنبيه قبضا أشد من قبضي ، فقلت له : « هنيئا لك » .

(1) في ع و ق : « النفس » .

(2) الزيادة عن ع و ق .

وأمرني بإنشاء مكتوب عهد الأمان بمحضر الجماعة ، فقلت له : « ان الأمر ثقيل يضعف متني على حمله ، والليلة نكتبه ومن الغد يحضر هذا الجمع للتأمل فيه ، حتى يكون منسوباً للجميع » .

ومن الغد حضروا ، وقرأته عليهم مرارا ، فزادوا في معانيه ونقصوا . واطلع عليه قنصل الفرنسي وقنصل الانكليز فاستحسناه . واخذ قنصل الفرنسي نسخة منه للتأمل فيه قبل قراءته في الموكب .

ووقع الاتفاق على قراءته ضحى يوم الاربعاء العشرين (1) من محرم السنة 1274 (9 سبتمبر 1857 م) ، فاستدعى الباي سائر اهل المجلس الشرعي ، وأعيان الدولة ، وأمير الاسطول ومن معه من الاعيان ، وقناصل الدول ، وكبير الاساقفة والرهبان ، واحبار اليهود ، وغيرهم من اعيان الوافدين . ولبس ثياب الزينة ، ورجال دولته كذلك . وكان المشهد « بالبيت الكبرى » بصراية باردو .

ولما اخذت الناس مواقفهم ، أمرني بقراءته ، فقرأتُ شيئا من خطبته بتكلف وتعجب ، لسعال كان بي يومئذ ، وأتمَّ قراءته صاحبنا الكاتب البارع ابو عبد الله محمد الباجي المسعودي . ونصه :

« الحمد لله الذي اوضح للحق سبيلا ، وجعل العدل لحفظ نظام العالم كفيلا ، نزل الاحكام على قدر المصالح تنزيلا ، ووعد العادل وتوعد الجائر ومن أحسن من الله قبيلا . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي مدحه في كتابه بالرووف الرحيم وفضله تفضيلا ، وبعثه بالحنيفية السمحاء فيبينها تبيينا وفصلها تفصيلا ، ورتبها كما أمره ربه لإباحة وندبا وتحريما وتحليلا ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ، وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علما لمن اقتدى ودليلا ، وفهموا الشريعة نصبا وتأويلا ، وأبقوا سيرتهم الفاضلة واحكامهم العادلة أمانا جليلا ، ونستوهب منك اللهم توفيقا يوصل الى الاسعاد برضاك توصيلا ، وعونا على امور الإمارة التي من حملها فقد حمل عبءا ثقيلا ، فقد توكلنا عليك والتجأنا إليك وكفى بالله وكبيلا . اما بعد فان هذا الأمر الذي قلّنا الله منه ما قلّده ، وأسند اليّنا من امور خلقه بهذا القطر ما أسنده ،

ألزمتنا فيه حقوقا واجبة ، وفروضا لازمة راقبة ، لا تستطاع الا باعائته التي عليها الاعتماد ، ولولاها فمن يقوم بحق الله وحق العباد ، فَمَحَضْنَا النصيحة لله في عباده ، وأرضه وبلاده . والامل أن لا نبقي فيهم ظلما ولا هضمًا ، ولا نخرم لهم في اقامة حقوقهم نظاما . وأنتى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيتته ، من يعلم ان الله لا يظلم مثقال ذرة ولا يحب الظالم في بريته ، فقد قال لنبيه المعصوم الاواب : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » (1) .

والله يرى اني آثرتُ في قبول هذا الامر ، على خطره ، مصلحة الوطن على ذاتي ، وعمرتُ بخدمته الفكرية والبدنية غالب اوقاتي ، وقدّمتُ من التخفيفات في الجباية ما علم خبره ، وظهر بعون الله أثره ، فانتشرت الآمال ، وتشوفت النفوس الى ثمرات الاعمال ، وانقبضت عن التعدي ايدي العمال ، واستقصاء المصالح يقتضي تقديم اجمال ، ومن رامها جملة فقد عرّضها ، بسبب التعذر ، للاهمال .

ورأينا غالب اهل القطر لم تحصل لهم الامنية ، باجراء ما عقدنا عليه النية .

وجرت عادة الله ان العمران لا يقع من نوع الانسان ، الا اذا علم ان براءته هي الامن له والامان ، وتحقق ان سياج العدل يدفع عنه خوف العدوان ، وان لا وصول لهلك ستر من حرمانه الا بقوة الدليل ووضوح البرهان ، ولا يكفي لتحقيقه الواحد والاثنان . فاذا رأى الجاني تعدد الانظار غلط ، ان كان منصفًا ، حدّسه ، وقال : « ومن يتعدّد حدود الله فقد ظلم نفسه » .

وقد رأينا سلطنة الاسلام ، والدول العظام ، الذين على سياستهم الدنيوية اعمال الاعلام في النقض والإبرام ، يؤكدون الامان من أنفسهم للرعية ، ويرونه من الحقوق المرعية . وهو أمر يستحسنه العقل والطبع ، واذا اعتبرت مصلحة فهو مما يشهد باعتباره الشرع . لان الشريعة جاءت لإخراج المكلف عن داعية الهوى ، ومن التزم العدل وأقسم عليه فهو أقرب للتقوى ، وبالامن تطمئن القلوب وتقوى .

(1) س 26 1/38 .

وقبل هذا كاتبنا علماء الملة الاركان ، وبعض الاعيان ، بعزمنا على ترتيب مجالس ذات اركان ، للنظر في احوال الجنائيات من نوع الانسان ، والمتاجر التي بها ثروة البلدان . وشرعنا في فصوله السياسية ، بما لا يصادم . ان شاء الله ، القواعد الشرعية . هذا وأحكام الشريعة ، أعزها الله ، جارية مطاعة ، والله يُديم العمل بها الى قيام الساعة .

وهذا القانون السياسي يستدعي زمنا لتحرير تربيته ، وتدوينه وتهذيبه . وأرجو الله الذي ينظر الى قلوبنا أن تستقيم به أحوال الرئاسة ، ولا يخالفه ما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة ، وأنا العبد الفقير أعجل لمرضاة ربي بما تطمئن اليه النفوس ، وتكون منزلته في النفس منزلة المشاهد المحسوس . وتأسيسه على قواعد :

الاولى : تأكيد الامان ، لسائر رعيتنا وسكان اياتنا على اختلاف الاديان ، والالسنه والالوان ، في ابدانهم المكرمه ، واموالهم المحرمة ، وأعراضهم المحترمة ، الا بحق يوجبه نظر المجلس بالمشورة ويرفعه إلينا ، ولنا النظر في الإمضاء او التخفيف ما أمكن او الإذن باعادة النظر .

الثانية : تساوي الناس في اصل قانون الاداء المرتب او ما يترتب ، وان اختلف باختلاف الكمية ، بحيث لا يسقط القانون عن العظيم لعظمته ، ولا يحط على الحقيق لحقارته ، ويأتي بيانه موضحا .

الثالثة : التسوية بين المسلم وغيره من سكان الإيالة في استحقاق الإنصاف ، لان استحقاقه لذلك بوصف الانسانية لا بغيره من الاوصاف . والعدل في الارض هو الميزان المستوي ، يؤخذ به للمُحِقِّ من المبطل وللضعيف من القوي .

الرابعة : ان الذمّي من رعيتنا لا يُجبر على تبديل دينه ولا يمنع من إجراء ما يلزم ديانتة ، ولا تُمتنّ مجامعهم ويكون لها الامان من الاذاية والامتهان ، لان ذمتهم تقتضي أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

الخامسة : لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع ، ومصلحته تعمُّ المجموع ، ولا بدّ للانسان من زمن لتدبير عيشه والقيام على أهله ، فلا نأخذ العسكر الا بترتيب وقرعة ، ولا يبقى العسكري في الخدمة اكثر من مدة معلومة ، كما نحرره في قانون العسكر .

السادسة : ان مجلس النظر في الجنايات ، اذا كان الحكم فيه بعقوبة على أحد من أهل الذمة ، يلزم ان يحضره من نعيته من كبرائهم ، تأنيسا لنفوسهم ودفعاً لما يتوقعونه من الحيف ، والشرعية توصي بهم خيراً .

السابعة : ان نجعل مجلساً للتجارة برئيس وكاتب وأعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا احبابنا الدول للنظر في نوازل التجارات ، بعد الاتفاق مع احبابنا الدول العظام في كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس ، كما يأتي ايضاح تفصيله ، قطعاً لتشعب الخصام .

الثامنة : ان سائر رعيتنا من المسلمين وغيرهم ، لهم المساواة في الامور العرفية والقوانين الحكمية ، لا فضل لاحدهم على الآخر في ذلك .

التاسعة : تسريح المتجر من اختصاص أحد به ، بل يكون مباحاً لكل أحد . ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها . وتكون العناية باعانة عموم المتجر ومنع اسباب تعطيله .

العاشرة : ان الوافدين على اياتنا لهم ان يحترفوا سائر الصنائع والخدم ، بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتي يمكن ان تترتب ، مثل سائر اهل البلاد لا فضل لاحدهم على الآخر ، بعد انفصالنا مع دولهم في كيفية دخولهم تحت ذلك ، كما يأتي بيانه .

الحادية عشرة : ان الوافدين على اياتنا من سائر اتباع الدول لهم ان يشتروا سائر ما يملك من الدور والاجنة والارضين ، مثل سائر اهل البلاد ، بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتي تترتب من غير امتناع : ولا فرق في أدنى شيء من قوانين البلاد . ونبين بعد هذا كيفية السكنى ، بحيث ان المالك يكون عالماً بذلك ، داخلاً على اعتباره ، بعد الاتفاق مع احبابنا الدول .

فعلي عهد الله وميثاقه ان نجري هذه الاصول التي سطرناها ، على نحو ما بينناها ، ووراءها البيان لمعناها . وأشهد الله وهذا الجمع العظيم ، المرموق بعين التعظيم ، في حق نفسي ومن يكون من بعدي ، ان لا يتم له أمر الا باليمين على هذا الامان الذي بذلت فيه جهدي ، وجعلت فيه سائر الحاضرين من نواب الدول العظام واعيان رعيتنا شهداء على عهدي ، والله يعلم ان هذا القصد الذي أظهرته ، وجمعت له هؤلاء الاعيان وأشهرته ، هو

ما اودعه الله في نيتي ، وإجراء أصوله وفروعه فورا ، أعظم أمنيته . والمرء مطلوب بجُهدِه ، ومن عاهد الله لزمه الوفاء بعهدِه . والحق هو العروة الوثقى ، والآخرة خير وأبقى .

وأستحلف مَنْ حوّلِي من هؤلاء الثقات ، والحماة الكفاة ، ان يكونوا معي في إجراء هذه المصلحة يدا واحدة ، بقلوب سليمة متعاضدة ، واقول لهم : « ولا تَنْقُضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ » .

اللهم من أعاننا على مصالح عبادك فكن له مُعيناً ، وأوردْهُ من توفيقك عذبا مُعيناً . اللهم اجعل لنا من عنايتك وإعانتك مددا ، وهب لنا من لدنك رحمة وهيئْ لنا من أمرنا رشداً ، منك الإعانة على ما أوليت ، والمهدي مَنْ هديت . والخير كله فيما قضيت . هذه مقدمة انتجتها الاستشارة ورآها العبد الفقير ناجحة صالحة ، فأعنا اللهم ببركة القرآن واسرار الفاتحة .

والسلام من الفقير الى ربه تعالى ، عبده المشير محمد باشا باي صاحب المملكة التونسية . في 20 محرم الحرام فاتح سنة 1274 هـ .

وكتب بخطه في عدة من نسخه ما لفظه : « صح من كاتبه المشير محمد باشا باي ، والله على ما نقول وكيل » .

ولما تمت قراءة العهد في ذلك المشهد ، تقدم قنصل الدولة الفرنسية وترجم قواعده ومضمونه [باللغة الفرنسية لمن لا يعرف العربية] (1) في ذلك الموكب .

وكذلك تكلم كبير الاساقفة بما معناه : « ان العدل مما اجتمعت عليه الملل ، [وهو ميزان الله في الارض] (2) . وشكر صنيع هذا الباي .

وبعد ذلك ارتفعت الاصوات بالدعاء لهذا الباي ، واعلنت مدافع الفرج والتهاني ، بأمان هذا النوع الانساني ، وعمّ السرور القاصي والداني . وأعظم بها مَنَقَبَةً يبقى ذكرها في بني الوطن مع الاحقاب ، « وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .



وأعطى نسخة لأمير الاسطول ليبلغها لدولته .

وبعث لكل قنصل من قناصل الدول نسخة منه مصححة بخطه وختمه ، توثيقا لالتزامه ،  
ومع كل نسخة مكتوب منه لكل قنصل ، نصه بعد افتتاحه واسم المخاطب به :

« أما بعد فالواصل لكم نسخة من العهد الذي قرأناه لجميعكم في موكب يوم  
الاربعاء في 20 محرم سنة 1274 ، بمحضر اهل مجلسنا الشرعي وكافة اركان دولتنا  
واعيانها . والنسخة مصححة بخطنا ومطبوعة بختمنا ، لتكون عندكم معلومة محفوظة ،  
وبعين الاعتبار لما فيها ملحوظة . فقد اشهدناكم على إجراء العمل بما فيها ، وترك ما  
يُنَافِيها . والله يجعل في مضمونها الخير والصلاح ، واليمن والنجاح . ودمتم في  
أمن الله وحفظه » .

وكاتب بذلك أخاه بالمحلة ، ووجه نسخة لاهل المجلس الشرعي ولإمام الجامع  
الاعظم واهل البلاد ، وفرق نسخا كثيرة في جهات المملكة ، وانتشرت في الآفاق ،  
وصارت حديث الرفاق .

واستضاف أميرُ الاسطول الفرنسي الباي قبل سفره ، فأتاه الباي  
برجال دولته بلباس الزينة ، فغظم مقدمه ، وصنع تعليما بالمدافع على كيفيات  
تدهش الفكر .

وبقي الباي بعد هذا العهد يحكم بمحكمته ويقضي في النوازل بمشيئته ، جريا  
على عادته ، الى ان تعدى رجل مغربي على مثله من خدمة بستان الباي وقتله . وجيء  
اليه برجل قيل له ان هذا هو القاتل ، فأمر بقتله في الحين قبل ان يسمع منه جوابا ، ولا  
حضر أحد من ورثة القتيل يطلب القصاص . وعلى ما قيل ان ابناء عمه ، ورثة دمه ، عفووا  
عن القصاص ورَضُوا بالدية .

وظن الباي ان المراد بعهد الامان قد تمَّ بوجود حروفه في الصحف المنشرة ، والامر  
وراء ذلك .

وارتمض لهذا الامر قنصل الفرنسي وقال له : « قد بعثت بنسخة من عهد الامان  
مصححة بخطك ومطبوعة بختمك الى دولتي مع امير أسطولها ، واشهدتني وانا نائب  
سلطاني ، كما اشهدت امثالي ، أنسخر بالدول ام بالتزامك ؟ وما ضرك ان هذا القاتل

يبقى في السجن الى ان يقتل على نهج حق او قريب منه ؟ ولا نرى ان دولتي تسكت عن ذلك ، اعتبارا لمقامها » ، الى غير ذلك من التهويل . وأجابه الباي بأن « القتل وقع تحت اشجار بستانني وفيها قصر مسكني ، ولا بد من تشديد الحال خشية الجسارة » ، الى غير ذلك مما لم يحرك العاقل له أذنا ، ولا يحسن فيه الاستعجال بقتل حيوان مملوك ، شنيئة اهل الإطلاق من المملوك .

ولله در الحكيم في وصفهم : « يستصغرون في العقاب ضرب الرقاب ، ويستعظمون في الثواب ردّ الجواب » .

وصار القنصل يبحث عن ورثة القتيل ، ويتجأ بالتشنيع على علماء الاسلام ورجال الدولة والوزراء ، وينسبهم الى كتمان النصيحة ، فقال للباي نصحاؤه : « ان الحال اذا بقي على ما كان ، ولم يظهر فيه شيء من التبديل الذي تراه الاعين ، ربما يقع الغصب على إلزام ما وقع الالتزام به . ووراءنا غصب الدولة العثمانية ، وتسخر بنا الاقاليم . واصول عهد الامان مجملة قابلة لكل معنى يحتمله اللفظ ، ونخشى ان يفسره غيرنا بما يظهر له ويصلح به » .

فتحقق النصيحة لنفسه ، وأمر الوزير ابا النخبة مصطفى خزنه دار بجمع اعيان من رجال الدولة لتفسير تلك القواعد وايضاها ، فقال له الوزير : « أمرك مطاع ، والمناسب في هذا الامر الخطير ان ينتخب سيدنا أعيانا ، منهم بعض اهل المجلس الشرعي ، ويكتب لهم أمرا يعتمدونه في ذلك » ، فاستحسن رأيه ، وانتخب أفرادا . وتلكا [الشيخ محمد بيرم] (1) شيخ الاسلام عن الحضور ، لامر يعلمه الله ، فقال له الباي : « قد أفتيتنا بالقبول من اول الامر ، وأن التنظيمات الخيرية لا تعارض ديننا ، فما بالك تمتنع من الحضور الآن ؟ » ، وألزمه الحضور .

وكتب للجماعة بما نصه : « أمرنا هذا الى العلماء الاعلام ، الفقهاء الاعيان ، الجلّة الفضلاء من اهل مجلسنا الشرعي العلي ، شيخ الاسلام سي محمد بيرم ، والشيخ سي احمد بن حسين باش مفتي المالكية ، والشيخ سي محمد بن الخوجة المفتي الحنفي ، والشيخ سي محمد البنا المفتي المالكي ، والوزراء الاعيان ، النصحاء الاركان ،

(1) الزيادة عن ع و ق .

اولي الرفعة والشان ، ابننا الاعز وزير العمالة مصطفى خزنه دار ، ووزير الحرب امير الامراء ابننا مصطفى باش آغه ، ووزير البحر امير الامراء ابننا خير الدين ، ووزيرنا الاحظي امير الامراء ابننا اسماعيل صاحب الطابع ، والاحظي امير الامراء ابننا محمد امير الاعراض ، وكاتب سرنا امير اللواء محبنا الشيخ سي احمد بن ابي الضياف ، حرس الله جميعهم ، واحسن صنيعهم . واننا امرناهم بالاجتماع في دارنا بالقصبة يومين في كل اسبوع ، وهما الاربعاء والخميس ، للتفاوض في شرح الفصول المسطرة في عهد الامان ، وكل واحد يتكلم بما يدين الله به على مقتضى آداب البحث في الادلة وايضاها ، ولا يخجل من لم تنهض حجته ، فالحق أحق بالتباعد . وأمرناهم قبل ذلك بقراءة ما رتبته الدولة العلية العثمانية وغيرها من الدول ، ليُجسروا الترايب على ما يصلح ببلادنا ، بعد استفتاء من ذُكر من العلماء فيما تتوقفون فيه من الامور ، ويرفعوا الينا عمل كل اجتماع لتنظره ونمضي ما عليه اكثر رأي الجماعة . ولا يلزم الفقهاء المذكورين الحضور الا يوم الاربعاء ، لاشتغالهم يوم الخميس بالمجلس الشرعي بصدار الشريعة .

والله تعالى ولي اعانتهم وتوفيقهم على هذه المصلحة التي يعم نفعها بحول الله تعالى ، والسلام .

وكتب في 16 اشرف الربيعين سنة 1274 (الاربعاء 4 نوفمبر 1857 م) .

ورتب لهذا المجلس من نبهاء الكتاب وحذاقهم الامير آلاي ابا عبد الله محمد البكوش ، والفقير الاكتب ابا المحاسن يوسف جعيط ، وربما حضر معهم الالمعي المنصف البارع ابو عبد الله حسين رئيس المجلس البلدي وأمير لواء ، يكتبون ما يقع بين الجماعة من المراجعات والمحاورات .

واجتمع هذا المجلس بدار الباي ، رئيسه الوزير مصطفى خزنه دار .

وقرئ عليهم ما فسرته به القاعدة الاولى من عهد الامان ، فاستحسنوه حتى قال شيخ الاسلام : « يمكن لي أن أخطب يوم الجمعة بشرح هذه القاعدة وأصلي بعدها الجمعة ، اذ هي ملاك أمر الدين والدنيا » . وطلب الوزير ابو محمد خير الدين من الفقهاء الحاضرين ان يكتب كل واحد على قواعد عهد الامان ما يراه ويدين الله به ، فأجابوه

لمطلبه لما رأوا من توقد فكرته وكمال فطنته ، فكتبوا وتقاربوا في المرمى [على قوس واحدة] (1) ، وجلى شيخ الاسلام فيما كتبه بشهادتهم ، ولولا الاطالة نقلنا ذلك .

وفي هذه الايام قدم رسول مخصوص من الدولة العلية في رتبة امير لواء اسمه نصرت باي ، بالخط الشريف وتعرييه . ونقل « ان الدولة العلية تعجبت من عدم إجراء التنظيمات لهذا الوقت ، وعندها جواب مَن تقدمكم بامثالها والدخول تحت احكامها » ، الى غير ذلك من التحريض . وأجيب بأنه وقع الشروع في العمل كما تراه .

وكان نزوله بدار الباي بالقصبة ايام اجتماعنا بها ، وسافر بجواب مرضي<sup>2</sup> ، مكرما مسرورا .

ثم طلب الفقهاء المذكورون الاستعفاء من الحضور بهذا المجلس ، واذا توقف بقية المجلس في امر يتعلق بهم من الفقه ، يسألهم ويجيبون بالكتابة .

وكان الظن بهم تقديم هذه الطاعة المتعدية على غيرها من الطاعات القاصرة . وتعللوا بأن منصبهم الشرعي لا يناسبه مباشرة الامور السياسية ، الى غير ذلك من المعاذير التي لو لم نرها بقلمهم ما نقلتها (2) .

وقبل هذا الباي عذرهم ، وأراحهم من تعب الحضور ، ولسان حال المسلمين بهذه الايالة المسكينة يقول : « مما يجب اعتقاده ان الله الذي دينه النصيحة لا يمة المسلمين وعامتهم ، ومن أوامره الواجبة على عباده تغيير المنكر ولو بالقلب ، ومن شريعته السماح ارتكاب أخف الضررين عند العجز عن السلامة منهما ، الى غير ذلك من تيسير هذه الشريعة الصالحة لكل زمان ، يسألهم عن ذلك يوم تبلى السرائر ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم » .

وكيف يروج تعللهم وهم الاعلام السابقون في ميادين العلوم المعقولة . فوا أسفا على العالم الصالح (3) ابراهيم الرياحي الذي كان يهتف بهذه النعمة ، لو كان حيا وجاءته [نعمة الله هذه اتراه يبدلها بما يناسب المنصب وما لا يناسب ؟] (4) .

(1) الزيادة من ع و ق .

(2) في ع و ق : « ... بقلم رئيسهم ما صدقت بها » .

(3) في ع و ق : « فوا أسفا على شيخ الشيوخ العالم السامع » .

(4) الزيادة عن ع و ق .

أقول هذا ، وإن كان احدهم من أشياخي في الحنفية ، لانهم ضيَّعوا بذلك فرصة تفاق سوق العلم وتقدم أهله ، وزادوا أهله بُعْداً على بعد ، والله غيب السماوات والأرض واليه يرجع الامر كله .

وعالج بقية الجماعة فصول القانون ، كلٌّ على حسب استعداده ، والله لا يضيع أجر من احسن عملاً .

وتدبر بعضهم جنة من نار الصبر محتسباً ، والاعمال بالنيات .

وجعل الباى مجلساً لنفسه ، من أعضائه شيخ الاسلام أبو عبد الله محمد يرم ، والوزير ابو النخبة مصطفى صاحب الطابع ، والوزير الكُنْت جوزاب راف وغيرهم ، يقبل فيه ما يعرضه هذا المجلس المأمور ، مع حضورهم (1) بأنفسهم يوم العرض .

ولما أتممنا شرح القاعدة الاولى ، وهي قاعدة كل القواعد ، وقرأناها على الباى في ذلك المجلس ، بدرت من بعضهم بادرة يغفر الله له فيها ، وهي أن قال : « أي شيء بقي لسيدنا ؟ » ، ووافقه على ذلك بعض المتزلفين ، والباى ساكت ، لانه قبض يديه بجنبه (2) لاجل نفع الرعية ، حين هوَّلت عليه الامر ، كما تقدم ، فوجمنا لهذه البادرة الباردة ، فتكلم الوزير خير الدين ، وكان أثبت القوم جبنًا ، وإن شئت قلت وأقواهم إيماناً ، وقال له : « نعم ، يبقى لسيدنا ما بقي للسلطان عبد المجيد ، وما بقي لسلطان فرنسا وسلطانة بريطانيا وغيرهم من السلاطين بالقانون » (3) . ثم قلت لهذا القائل : « هلا قلت هذا عند سماعك لهذه القاعدة ، وهلاًّ أعملت الفكر في فهمها قبل ان تسلمها والمراكب بحلق الوادي ؟ » ، وأتيته بنسخة مصححة من عهد الامان ، فأعاد قراءة القاعدة ، واعتلر بنسيانها خجلاً .

وسبحان من تتره عن الخطأ والنسيان ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

(1) في ع و ق : « حضور أهله » .

(2) في ع و ق : « الى جنبه » .

(3) في ع و ق : « من سلاطين القانون » .

وفي هذه السنة أمر هذا الباي بجعل قانون لاثبات العسكر بالقرعة ، وانتخب لذلك امير الامراء ابا محمد خير الدين ، وامير الامراء ابا محمد رشيد امير عساكر الساحل ، وامير الامراء ابا عبد الله محمد عامل الساحل ، وامير الامراء ابا القداء اسماعيل صاحب الطابع (1) ، والاكتب البارع ابا عبد الله محمد الباجي المسعودي ، فاجتمعوا بمنوبة في بستان امير الامراء أبي محمد خير الدين ، ونظروا في قانون الافرنج وقانون اسلامبول ، وقد كان الامير رشيد عرّبهما ، واختاروا منهما ما يصلح للبلاد (2) ، وسموه « الصباح المسفر » ، في ترتيب ثبوت العسكر « وتم بعد ان سرح العسكر (3) ، كما تراه في منشوره بالتسريح ، حيث حضّتهم فيه على الاستعجال باتمامه ، لانه وقع لهم تعطيل ، وتم في اواخر ايامه ، وطبع بعد وفاته ، وهو القانون المعروف للعسكر باسمه .



وفي صفر من السنة 1274 (سبتمبر - اكتوبر 1857 م) ، جعل الباي ترتيبا لعشر الزيت بالحاضرة ، وقد كان صاحب الزيتون في عناء من أداء يسمى بأسماء اصطلاحية فتنت أيدي الجور في تلويته ، بحيث لا يعصر زيتونه كما يريد بل كما يراد منه ، الى غير ذلك مما يعلمه اهل الحاضرة ، مع بليّة التطفيف .

وكان الفلاح يدفع من زيتة نحو الخمس او الربع ، فحسم هذا الامر ، وكتب في ذلك منشورا خاطب به كل شيخ من مشايخ الحاضرة وكافة ارباب الزيتون .

ونص المقصود منه : « اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان عنايتنا لم نزل لمصالحكم مصروفة ، وعلى منافعكم باعانة الله موقوفة ، وقد فرغنا من ترتيب اعشار الحبوب على حسب ما خفّفناه ، وأجرينا العمل بمقتضاه ، ونظرنا الآن في عشر الزيتون فوجدناه مُجحفًا بأربابه ، متلفًا لامل أصحابه ، والامل أساس الفلاح ، والثروة والنجاح ، وبه على غراسة الشجرة المباركة تتوفر الدواعي ، وتنجح ان شاء الله المساعي . فأسقطنا سائر ما اعتيد على المعاصر من المسمى بالحقوق والسخارة والصرقة وبوقال الرسم ، وغير ذلك مما مجموعه يناهز خمسن المال . واقتضى النظر لمصلحة الجمهور ، ان نرتبه على عشرة أمور :

(1) الاسطر الاربعة من « وفي هذه السنة » الى « صاحب الطابع » ، بياض في ع ، وفي ق بياض ملء بما في غ بخط مفاير .

(2) في ع و ق : « ما يناسب حال البلاد » .

(3) في ع و ق : « وسرح الباي العسكر قبل اتمامه »

الاول : ان الفلاح لا يؤدي من زيتة الا الجزء العاشر فقط ، بقُلَّة المعصرة التي يكيل بها زيتة ، من غير زيادة ولا تطفيف ، ولو في نزر خفيف .

الامر الثاني : ان نجعل نظارا وعدولا في المعاصر بحاضرتنا التونسية مع الرِّبَّاس (1) ، على حسب ما يظهر لنا في ترقيب ضبط العشر الذي هو تطهير للأموال ، والسبب في بركة الاعمال .

الامر الثالث : ان الفلاح يدفع كراء الجمل صاعا واحدا من الزيت على كل ادالة ، سواء كانت حبا او بندا (2) حيا او بندا ميتا . والصاع بالمعيار التونسي من غير تطفيف .

الامر الرابع : ان الادالة تكون بثلاثين شامية فقط ، مملوءة بحسب ما يظهر للفلاح .

الامر الخامس : ان الفلاح لا يلزمه خدمة الخمسة أطرق وله أن يستخرج زيتة من زيتونه بحسب ما يظهر له في العصر . وان لم يأت صاحب المعصرة بالجمال الصباح يرفع أمره إلينا لنغضبه .

الامر السادس : يدفع الفلاح على كل ادالة حب قُلَّة زيت واحدة بمعيار المعصرة الذي يأخذ به الفلاح زيتة ، وذلك كراء المعصرة وآلاتها والمعاصرة (3) ، ولا تلزمه مؤونة المعاصرة ، لانها داخلة فيما ذكر . ولا يلزمه على الابناد بنوعها غير القُلَّة المذكورة على ادالة الحب .

الامر السابع : ان الفيتورة ، بعد ان يستوفي ربُّها عصرها بما يريد ، تكون لجانب البايلك (4) ، على العادة .

الامر الثامن : لكل واحد من رعيتنا ان ييني معصرة من غير منع ، بحيث تكون في اطراف البلاد من الاماكن المناسبة ، ولا ينشأ منها ضرر لجيرانه ، ويكون كراؤها وكراء جمالها والمعاصرة مثل ما رتبناه في معاصر البايلك ، وكراء خواصرها له ، وليس للبايلك منها الا حق الله في العشر ، على نحو ما بين أعلاه ، والفيتورة بعد احكام عصرها . ونجعل فيها ناظرا لحفظ العشر .

(1) الرياس ج رايس وهو رئيس العملة .

(2) في ق مشكولة بضم الباء وسكون النون ، ومعنى البند الى المصور ثانيا ، والميت المصور ثالثا .

(3) عملة المعصرة .

(4) البايلك: حكومة الباي .

الامر التاسع : ان الخواصر (1) تكري على العادة المقررة ، وبها يأخذ الفلاح الطريق في العصر ، الا اذا فسد زيتونه وثبت بشهادة عدول الغابة والامناء وأعيان الفلاحة والقايد ، فان الضرر يزال عن صاحبه بتقديمه في العصر .

الامر العاشر : ان سائر ما يتعلق [باجراء هذه الامور ، وما يقع بين ارباب الزيتون مما يتعلق] (2) بأحواله واحوال المعاصر ، يكون نظره لمشايخ البلاد الثلاثة وشهود الغابة والامناء والاعيان من الفلاحة وقايد الغابة . وما يقع عليه اتفاق الاكثرين يرفع اليها لنامر بامضائه .

وحسب صاحب المعصرة ورب الزيتون ان يكون عمله على ما حررناه ، وسطرناه وأمضيناه ، والى اهل الحاضرة شحناه ، وما سواه فقد اسقطناه ، والله أسأل الاعانة على صلاحكم ، وزيادة مكاسبكم ونمو ارباحكم . وأرجو أن يكون هذا من أسباب العمران ، وتكثير الشجرة المملوكة في القرآن . وأمرنا بقراءة هذا الظهير على سائر الفلاحة ، ومن اراد نسخه فله ذلك ، ويبقى بيد الشيخ حجة يرجع اليها ، ويعول عليها .

والله ولي التوفيق ، والهداية الى اقوم طريق .

وكتب في عاشر صفر من سنة 1274 (الاربعاء 30 سبتمبر 1857 م) .

والاسماء المذكورة في هذا المنشور هي اصطلاح التخاطب في عرف اهل الزيتون ، معروفة عندهم .

والنتيجة انه أسقط من جباية الزيت قدر النصف . وبنيت بعد هذا معاصر ، واقبلت الناس على غراسة الزيتون ، لا سيما بمرناق ، وازداد في الغابة كثير من أصوله ، مشاهد بالعيان ، [لما] (3) خفَّ ثقل مغرمه .

وهذا في الحاضرة ، اما غيرها من بلدان المملكة فانه أبقاه على عادته اذ لم يكن فيه كبير ضرر .

(1) الخواصر هي مستودعات للزيتون تعرف الآن بالمصارف

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .



ثم ان المعاصرة ، وهم اهل صناعة العصر [للزيتون] (1) استقلّوا ما قدّر لهم من الاجر في المنشور ، وليس في الحاضرة غيرهم ، وهي صناعة ضرورية اتفق أهلها على عدم عملها الا بأجر فادح يحصل منه الضرر ، فأمر مشايخ البلاد وعدول الغابة والامناء وأعيان الفلاحة ان يجتمعوا لتقدير أجر مثلي لهؤلاء لا ضرر فيه على الجانبين ، وما وقع عليه اتفاقهم رفعوه إليه وامضاه بأمر مؤرخ بالثاني عشر من جمادى الاولى سنة 1274 ، (الثلاثاء 29 ديسمبر 1857 م.) ، وهو الآن بيد المشايخ يرجع اليه .

وازداد للشجرة المباركة بهذه العناية نور على نور . وحذا هذا الباى في زيتون الحاضرة حذو جده الاعلى بانى البيت حسين بن علي ، فانه خفف عنه ما استطاع ، وأبطل القانون الذي كان على اصول الزيتون أجذب أم أنخصب ، وسلّمت الناس في أملاكها ، وكادت الغابة ان تضمحلّ ويطفأ نورها ، فجعل فيه ترتيباً أمنه للاحتفاظ عليه والرجوع اليه في ديوان الترك ، لكن بقي اسمه وزال مسماه بنهب الزّامة وتغافل الملوك للتغالي في ثمن الزّمة .

وقدّم لآمر الغابة من قدّمه للأعشار بالرابطة ، وهو ابو الفداء اسماعيل المعروف بقائد السبسي [المتقدم ذكره] (2) ، وهو بمكان من الامانة والوقوف عند الامر ، إلا أنه أطلق عنان خيل الغابة فيما يوجد فيها وبقربها من الانعام والمواشي لا كل ثمرها وفساد شجرها ، يعاقب على ذلك بالمال على العادة السابقة من دفع ظلم بظلم ، حتى انه يقال عند العامة : « الغابة جورها عدل » ، اي الجور في حراستها عدل لحفظها ، وأغضى له الباى عن ذلك .



وفي ذي الحجة من السنة 1274 (جويلية — اوت 1858 م.) أمر الباى بإبدال سكة النحاس ، وصيّر رواجها بنصف ما كانت . وذلك انها كثرت في البلاد كثرة فادحة فوق المظنون . واكثر الباى من ضربها ولم يقف عند حدّ من تقدمه ، بحيث صارت دار السكة لا تضرب الا سكة النحاس ، لكثرة ما فيها من [اسم الريس] (3) الفائدة للدولة ، حتى كاد ان لا يكون التعامل إلا بها .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة عن ع و ق .

والاصل في سائر الاقطار ان سكة النحاس انما هي إعانة في كسور احد النقدين .  
وقلت الفضة حتى كادت ان تعدم ، لان التجار يخرجونها من المملكة اذا لم  
يجدوا سلعة يشترونها عوض سلعتهم .

وضاق الحال وصار الوافدون من التجار يشترطون في اثمان سلعتهم الفضة او  
الذهب (1) ، والشرط أملك .

وضجَّ تجار الافرنج من ذلك ، ورفعوا شكائتهم بتعطيل المتجر بواسطة قناصلهم .  
وظهر التعطيل واضطره الحال الى تبديلها ، فأعلم سائر اهل البلاد بما عزم عليه من تبديلها ،  
وكاتب قناصل الدول الاجانب (2) بما نصه :

« اما بعد ، فاننا أمرنا بجمع قطع النحاس المسكوكة من سائر إياتنا في دار السكة .  
والقطع هي ابو ربع وابو ستة وابو خروبة وابو ناصري وابو فلس . وجعلنا الاجل للقبول  
بالمكان ثلاثين يوما من يوم التاريخ . واول ما يقبل ابو ربع وابو ستة في مدة الثلاثين  
يوما . ويبقى ما عداهما من سكة النحاس للتعامل به بين المحتاجين بسعره الاصلي في مدة  
الثلاثين يوما . وبعد ذلك يقبل ابو ثلاثة وابو ناصري وابو فلس في مدة ثلاثين يوما  
اخرى . وكل من يأتي بما عنده من سكة النحاس يأخذ توصيلا في مقداره من المأمور  
بدار السكة .

وبعد مضي الثلاثين يوما يصير رواج سكة النحاس بنصف ما كان . فأبو ربع  
ريال يصير ثمن ريال ، وابو ستة يصير خروبة ، وابو ثلاثة نواصر يصير ناصري ونصف ،  
والناصرى يصير فلسا ، والفلس يصير نصف فلس . وكل من اتى بدراهم ويبيده توصيل  
فيها ، يأخذ من دار السكة ، بعد مضي الثلاثين يوما ، نصف المقدار الذي أتى به نحاسا  
على السعر الثاني الذي حكمنا به ، والنصف الآخر يأخذ فيه تذكرتنا ليقبضه على أربعة  
اعوام في اربع كرات ، الاولى بعد مضي عام من تاريخ التذكرة ، وهلم جرا حتى  
يكون خالصا عند انقضاء العام الرابع . وكل كرة يقبضها حامل التذكرة يقيد على  
ظاهاها التوصيل . ومن يبقى بيده شيء من سكة النحاس ولم يأت به في المدة المعينة لا

(1) في ع و ق : « ما جعله الله ثمن كل مثن وهو النقدين » .

(2) في ع و ق : « الدول الاحباب » .

يقبل بدار السكة ، ويمضي بالسعر الثاني الذي حكمنا به ، ونخسارته على ربه لانه فرط .  
فالمراد ان تُعَلِّمُوا مَنْ لِنَظَرِهِمْ بِذَلِكَ ، ودمتم في أمن الله .

وعند ذلك لا ذت الناس بأصحاب الناض من التجار ، لاسيما أهل أوربا ، يدفعون  
لهم ما بأيديهم من سكة النحاس يأخذون صرفها فضة او ذهباً ، على إسقاط شيء من  
رأس المال . وبلغ ذلك الى إسقاط الخمس والربع من المال . وربح فيها مَنْ أخذ  
النحاس نصف ماله في اربع سنين ، دون ما اخذه من الصرف العاجل ، اذ لا وثوق  
لرعايا ملوك الاطلاق بأمرائهم فلا أمان عندهم ، والتجار الافرنج في حماية دولهم .

ولاقي الفقراء من ذلك شدة على شدة وبؤسا على بؤس .

وخسرت الدولة في ذلك اكثر مما توهمت في ضربها من الربح العاجل .

وهكذا الشأن في كل دولة تتجر في نقودها ، إما تخسر ذلك الربح عاجلاً  
كمحالتنا ، او تخسر المملكة بنقصانها المؤدي الى خرابها شيئاً بعد شيء حتى تضمحل .

✽

وفي محرم غرة سنة 1275 ، خمس وسبعين (اوت - سبتمبر 1858 م.) ، رتب الباي  
المجلس البلدي للنظر في مصالح أبنية البلاد وتوسيع الطرق وغير ذلك مما تدعو الحاجة  
لوجوده او رفعه .

وجعل له نظر أمناء المعاش ، وصيرهم ثلاثة ، وجعل رئيسه النقيب ابا عبد الله  
حسين احد اعيان الممالك ، وجرى على نهج استقامة فيما أمير به ، واتسعت بعض الطرق  
بهدم ما كان يعطل المارئين ، مثل الدكاكن والستائر المجعلولة على أبواب الحوانيت ، إلا  
أنه مال للتحسين قبل استكمال الضروري والحاجي ، من جعل الطرق من تونس الى  
باردو ، وغرس اشجار لا ثمرة فيها على حافتيها ، مشتراة من خارج المملكة بمال له  
بال ، الى غير ذلك مما يدعو له تمام العمران ومزيد الثروة .

✽

ولم يزل هذا الباي يستعظم شأن المصاريف على العسكر ، إظهاراً لغلط مَنْ تقدّمه ،  
لانه كان يسمع التشنيع عليه في ذلك على أنحاء مختلفة ، ويقول للوزراء في معرض

الاعتراض على مخدومهم الاول : « ان الدنيا الآن رتبها عظماء الدول على الحقوق ، ولو كانت على حسب القوة ما يمنع الدولة القوية ان تستولي على الضعيفة . وحسبنا من العسكر ما نستعين به على الهناء ودوام الراحة لبلادنا وتربية الجهال منهم . وأي فائدة في بقاء عسكر محبوس في قشلة تصرف عليه المملكة ، مع نقص عمله منها » . فيلوذ بعضهم بأن الملك لا بد له من شعار وفخامة ، فيجيبهم بأن الفخامة انما هي بال عمران والثروة والعافية والهناء ، الى غير ذلك من الكلام المسلم الدائر على مركز المصلحة ، باعتبار الحال والمكان والزمان . [وما درى ان المساكين الوزراء عاثوا في معارضة من تقدّمه كما يعانون في معارضته] (1) .

وآل أمره الى التنقيص ، بعد ان تفاوض مع الوزراء في ذلك واتفق الرأي عليه ، فأمرني أن نكتب لوزير الحرب بما نصّه :

« من عبد الله سبحانه المتوكل عليه ، المفوض بجميع الامور اليه ، المشير محمد باشا باي . سدّد الله أعماله ، وبلغه من عمران هذا القطر آماله . الى فخر الوزراء الاركان ، وعمدة اهل الرفعة والشان ، وفارس ميادين الكمال والعرفان ، الثقة العمدة الخلاصة الاوفى النصوح المقرب ، وزير الحرب أمير الامراء ابننا مصطفى باش آغة ، لا زالت مساعيه ناجحة ، وآثار خدمته الجميلة واضحة .

اما بعد السلام عليكم ورحمة الله ، فان النظر في الترتيب العسكرية من اهم الامور ، وباستقامته على قوانينه صلاح الخاصة والجمهور . وقد أجبنا الفكر ، وأطلنا النظر ، وتفاوضنا في المشورة مع ثقافتنا ورجال دولتنا فيما يجب فيه النظر من احوال عسكرنا وإيالتنا ، فرأينا بعض الآلايات وقع في أعدادها النقصان ، من الوجهة الجهادية ، والا لجل المحتوم على كل انسان ، بعد أن سرّحنا من الموجودين من استوجب التسريح ، بالعدر الثابت الواضح المبيح ، ولا مساغ لتعطيل من هذا حاله ، وكل عسكري فالى التسريح مآله . ومن المعقول الواقع في الاقاليم ان حال العسكر كثرة وقلة يتبع حال الوقت من سلم أو حرب . والسلم بحمد الله ثابت الاساس في غالب المعمور ، فإيالتنا الآن والحالة هذه احوج لتكثير العمران ، من تكميل ما وقع في الآلايات من النقصان . واذا صار

(1) الزيادة عن ع و ق .

الدفاع فرضا عينيا ، صار كل<sup>١</sup> مسلم عسكريا . ونتيجة هذه المقدمات التي حرزناها ، وإلى الاسماع وضّحناها ، ان تحضر معك نخبة الاكابر الاركان ، وفارس ميادين الحرب ، والعرفان ، وعمدة أهل الشان ، الثقة الخلاصة الاعز أمير امراء عساكر السواحل (1) ابننا رشيد ، وأمرأه الالوية المباشرين للخدمة العسكرية ، واقراً على مجموعهم هذا المنشور ، ليعلموا ان خدمتهم معك في هذه الامور :

الامر الاول : ان تنتخبوا من سائر امراء الآلايات الموجودين الآن من يصلح لخطته من جهة المعرفة بالتعاليم العسكرية ، والعلم بكيفية إجرائها ، مع مراعاة السن والقوة البدنية التي تتحمل تعب المباشرة من الآن . والذي يقع عليه الاختيار يكون من اعضاء مجلسكم لانتخاب بقية الضباط .

الامر الثاني : ان من ينتخب من قائمي المقامات يكون من اعضاء مجلسكم ايضا لانتخاب بقية الضباط .

الامر الثالث : ان المنتخب من أمناء الآلايات والبناشية يكون من اعضاء مجلسكم لانتخاب بقية الضباط .

الامر الرابع : ان الضباط الذين تنتخبونهم يكون قدر كفاية ثلاثة آلايات من ثلاثة طوابير ، لان ذلك هو ما اقتضته المصلحة الآن ، والاحكام تتبع المصالح الوقتية ، ويقع مثل ذلك في الطبيعية . وبعد هذا نعيّن لكم المقدار الذي يلزم .

الامر الخامس : ان تنتخبوا من آلايات الخيالة طابورا واحدا لعستنا بضباطهم ، ويكون انتخابهم باعتبار المروءة الانسانية والسن والقوة والفروسية .

الامر السادس : ان تضيفوا عسكر آلايات الخيالة والآلاي السابع الى الآلاي الاول .

الامر السابع : ان تضيفوا الآلاي الثالث والآلاي الرابع الى الآلاي الثاني .

الامر الثامن : ان من يبقى في هذه الآلايات الخدامة من المعاضين وغيرهم ، يُسَرَّحون لما يتم<sup>٢</sup> القانون الذي امرناكم به في نزول العسكر على قانونه بالقرعة عن قريب ان شاء الله تعالى ، ونحثكم على إتمامه فورا .

(1) كذا في غ و ع ، وفي ق : « امير عساكر الساحل » .

الامر التاسع : ان تضيفوا الآلاي السادس الى الآلاي الخامس .

الامر العاشر : ان من يفضل من الضباط على (1) قوام الآلايات الثلاثة ، حرروا لنا في زوام اسماءهم وحالهم في الخدمة العسكرية ومدة اقامتهم في الخدمة مباشرة ، ليجزى كل على حسب عمله . فليس من باشر الخدمة كمن لم يباشرها الا بالاسم ، وليس من خدم المدة الطويلة حتى ذهب فيها اطيح عمره كمن خدم المدة القصيرة . حرروا لنا كل نوع وحده .

واوصيكم ، سدّد الله حالنا وحالكم وقرن بالاصابة أعمالنا وأعمالكم ، امثالاً لقول الله تعالى « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » ، ان تثبتوا وتمنعوا النظر في هذا الامر المهم الذي وثقت فيه بكفائتكم ، ونظرت به بعين أمانتكم ، فانها مصلحة تعم الوطن والجمهور ، ومثلكم من يعلم مقادير هذه الامور .

وتفاوضوا فيها بالاستشارة فلا خاب من استشار .

وقد استعملتكم في هذه الخدمة وانتظرت ما يرد علي فيها من أترككم الجميل ، وانتم بحمد الله محل هذا التأميل .

فبادروا لإتمامها فوراً باعانة الله والتوكل عليه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، والسلام .

واجتمع هذا المجلس ، وانتخبوا ما أمروا به على الوجه المقرر لهم في الامر . وسرح من افراد العسكر من طالت مدته او ضعف بدنه ، ومن بقي من الضباط زائداً على مقدار العسكر سرحه وأبقى له نصف مرتبه . وكتب لكل واحد منهم جبراً لخاطرهم ما نصه ، بعد افتتاحه وذكر اسمه :

« اما بعد فاننا لما رتبنا العسكر على ما اقتضته المصلحة في الوقت والحال . وابقينا من امثاله من يقوم بضبط اولئك الرجال ، انفتحت حميتنا العسكرية من طرحه واهماله ، ولا مقتضى لها من حاله ، اذ لم يصدر منه عيب ، ولا شك أن خدمته العسكرية بريب ، مع عدم الحاجة لإبقائه بلا عمل في خدمته ، وتعطيل مصلحته ، فسرحناه من مباشرة الخدمة العسكرية ، وابقينا له نصف مرتبه واستحققه بسالف خدمته المرعية ، مدة حياته

(1) كذا في خ ، وفي ع و ق : « عن » .

الدينية ، مع اعتبار ما ناله من العناية والاحترام ، باعتبار الخطأ والمقام ، فهو وإن لم يباشر الخدمة العسكرية ، يؤمّل ان يباشر ما يستكفى به في خدمتنا السياسية ، وبأبنا له مفتوح ، وإكرامنا له ممنوح ، خصوصية له ولا مثاله ، ممن دخل في الخدمة على منواله ، وأوصينا له بالرعي والاحترام ، وإن لا يقاس بما يقاس به العوام ، لأنه وإن لم يكن في العسكر الآن ، فله من الاحترام عين ما كان ، وأوصيناه ان يسلك السبيل المرضية ، ويصون احترامه ان ترفع به شكية ، والله ولي التوفيق ، الى اقوم طريق ، والسلام » .

وكل من أصيب في بدنه من العسكر او من الضباط ابقى له مرتبه كاملاً وسرّحه وكتب له ما نصه :

« امرنا هذا بيد ولدنا فلان ، وانه لما توجه مهاجرا الى الله ورسوله في هذه الوجهة الجهادية ، وخدمة الدولة العلية ، وصدر منه ما يدل على نظافة العرض ، ويزين الوطن والارض ، وقام احسن قيام بالفرض ، والاثر في بدنه شاهد بحسن خدمته ، وهو اعظم نشان لخدمته ، فسرحناه لعجزه عن الخدمة العسكرية ، وابقينا رواتبه مَجْرِيّة ، ما دام في الحياة الدينية ، وله منا مزيد التقريب والعناية والاحترام ، على ممر الدوام ، وهو مع تسريحه محسوب من عساكر الاسلام ، لا يقاس بما يقاس به غيره ولا يضام ، والله لا يضيع أجر من احسن عملا » .



وفي خامس صفر من السنة 1275 (الثلاثاء 14 سبتمبر 1858 م.) ، صدر امر الباي بتسريح اليهود للباس الشاشية الحمراء ، وشراء ما يملك من الربع والعقار بالحاضرة وغيرها ، وانتحال الفلاحة ، وهو من التسوية بمقتضى عهد الامان ، بل بمقتضى العدل وما يقتضيه حال كل زمان . وذلك ان تعيين زي مخصوص لاهل الذمة ليس من أصول الدين ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يغير زي يهود المدينة ، وهم من سكانها معه .

وأول من أمر بتغيير الزي لاهل الذمة ، الخليفة المتوكل العباسي في سنة خمسمائة من الهجرة (1) ، على عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما حكاه صاحب (2) « محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر » ، وكان ذلك ايام تراجع الخلافة العباسية .

(1) كذا في غ و ع و ق .

(2) هو على دده ، المتوفى سنة 1007 هـ (كشف الظنون ص 1610 - بروكلمان ذيل 2 ص 635) .

وقد كان اليهود في ايلة تونس بل وفي المغرب كله على حالة من المدلة والامتهان والاذابة التي اقتضت غيرة الله على مصنوعه ، لا سيما مع قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « استوصوا بالذمة خيرا » ، وقوله صلى الله عليه وسلم ، عند انتقاله الى الرفيق الاعلى : « احفظوني في ذمتي » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « من آذى لي ذميا فأنا خصمه » ، ولا شك ان الصغائر غير الاذابة .

واما شراء الربع والعقار فقد كان سابقا بلا حَجْر ، من حيث انهم من رعايا المملكة ، ورسوم المتأصلين منهم في ملك دُورهم تشهد بذلك ، اذ لا مانع منه شرعا ، ومنعهم من ذلك ابو محمد حمودة باشا الحسيني اوائل دولته ، لسياسة ظهرت له وقتئذ ، حتى غلت اكسرية دورهم ، وتضايقوا بسبب ذلك في السكنى مضايقة افضت الى تعفن الهواء وأسباب الامراض ، ولا داعي لذلك من صحيح الاغراض .

ولما وقع هذا التسريح من الباي ، أنيف جهالُ الحاضرة [وغيرها] (1) من ذلك ، ورأوه لجهلهم من أشرط الساعة ، وما دروا ان ما حلَّ بالقطر من النقص في الاموال والانفس والثمرات ، من أعظم أسبابه ظلمُ أهل ذمتنا ، وترك وصية نبينا .

ولعل البعض ممن يطالع على هذا الموضوع يرى ان عهد الذمة انتقض ، فأقول له عليك بمطالعة « الاشباه والنظائر » (2) من كتب الحنفية في احكام الذمي ، ومطالعة « الاحكام السلطانية » للماوردي من كتب الشافعية ، ومطالعة الفرق الثامن عشر (3) والمائة والفرق الذي بعده [من فروق القرافي] (4) من كتب المالكية ، ترى معنى الذمة وما ينتقضها وما لا ينتقضها .

وما درى الجهال بثمرة التسوية ان جهلهم أوجب فيهم عدم مساواة ، والمكافأة من جنس العمل ، حتى صاروا عبيد جباية وآلة لغيرهم ، ليس لهم من ثمرات خطط بلادهم الا مشاهدة استئثار غيرهم بها ، وربّ مكرم لنفسه وهو مهين لها ، ورب مهين لنفسه وهو مكرم لها .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الاشباه والنظائر لابن نجيم المتوفى سنة 970 (كشف الظنون ص 98) .

(3) كذا في غ و ع ، وفي ق : « الثالث عشر » .

(4) الزيادة عن ع و ق .



## الخبر عن ماء زغوان

التشبيه بسيل المسموم  
على هذه الايالة

كان في ذي الحجة من السنة 1275 (جويلية 1859 م.) قدم لهذه الحاضرة مهندس فرنساوي اسمه كولان ، وتعلق بقنصل الفرنسيين ليون روش المتقدم ذكره ، ودبر معه لفائدة نفسه في ان جلب الماء من زغوان وحُقِّقَ يمكن وصوله بلا كلفة الى الحاضرة وباردو وحلق الوادي والمرسى على الحنايا القديمة والمجاري السابقة في أنابيب من معدن يؤتى بها من فرانسة .

ويقال انه ساهم القنصل بجزء وافر من الربح ، والله اعلم ، غير ان اجتهاد القنصل في جلب هذا الماء ، والحرص على اتمام العقدة حرص السمسارين ، لا يُبعد هذا الظن ، لانه كان يترامى على الامتراج بالباي كما تقدم ، غير معتبر لخطته ، حتى انه كان يطرّقه ليلاً في بستانه واوقات راحته ، لامر هو يعلمه .

فأتى الباي مرة وقال له : « من سعادتك ان مهندسا فرنساويا ظهر له ان الماء يجلب من زغوان للحاضرة وحلق الوادي والمرسى بأيسر مصروف » .

وتردد على الباي في ذلك تردد السمسار الملحّ ، وهو يرغل في احترام دولته . وسؤل له ان هذا الماء لما يصل للحاضرة تهرع الناس الى شراء انابيب منه لدورهم ، ويوفرون ثمن الدلاء والحبال ، ويستغنون عن مصانع الماء ، ويشتري منه من يريد شغل الارض بالاشجار والنبات ، وتكثر الاشجار وتنمو الفلاحة ، ويحصل من ثمن ما يباع من الماء أضعاف ما يدفع في جلبه ، الى غير ذلك مما ينمّقه البائع في تحسين مبيعته .

ولما سمع الباي ألفاظ نمو العمران ، وشغل الارض بما يقتضي التخفيف من الجباية الموظفة على الرؤوس ، اذ كانت مناط نظره ، لا سيما وقد وعد باسقاطها في مشور الاعانة ، لان الاداء على الرؤوس مما تستثقله النفس الانسانية ، لا سيما الامة المسلمة ، لِمَا يروونه من الشبه بالجزية التي من اسرار ضربها على الكافر الجاهل الى الدخول في الملة الذي هو مناط نظر الشارع . ولما سمع ذكر التخفيف ، مال الى استحسانها ورآها صلاحاً ، واكثر مصارع الرجال تحت بروق الاطماع ، فاغتنمها القنصل .

وكان هذا الباي جدي<sup>٢</sup> السجية ، يبنّي الامور على ظواهرها ، ويطمع في كل ما يسمع ، من غير إعمال فكر ولا تبصر في العواقب .

ومن الغد جمع رجال دولته وقص عليهم اضغاث رؤياه لهذه المصلحة ، فبادروا بالانكار على لسان واحد ، وهو المتبادر على البديهة ، وبينوا له شُبَهَ المغالطات ، عدا الوزير ابني النخبة مصطفى خزنه دار ، لانه حضر الموطن مع القنصل ، ورأى شرَهَ الباي وشهوته ، فطفق يُحَسِّنُ بمقدمات خطائية ، شأن الوزراء للملك الإطلاق ، كما تقدم في العقد الاول من المقدمة .

واما الوزير خير الدين فانه علم استحسان الباي لهذه المصلحة وانه انفصل فيها مع القنصل فسكت ، وربما اعان اعانة من يعلم ان حضوره للسماع لا للمشورة الحقيقية ، وظهر ذلك من حاله .

وحاصل ما قال له رجال الدولة في هذه المصلحة ، التي هي في الحقيقة للمهندس ومن كان على شاكلته ، ان هذه الحاضرة اتفق تأسيسها على غير ماء ، فاتخذ أهلها المصانع في دُورهم لجمع ماء المطر للشرب ، ولا تخلو دار من بئر للاستعمال في غير الشرب ، وتأسيس أبنتها على هذا الاعتبار ، وبها من الفساق لجمع ماء المطر ما يكفي لو صلحت ، وسقاياتها مجلوب لها الماء من عين الجبل الاحمر ، حتى قال له ابو عبد الله محمد عامل الساحل : « ان جلب الماء من زغوان يستدعي مصروفا كبيرا ، فأعطني عشرة أصلح منه سائر الفساق وأُجَرِ الماء لسائر السقايات وأُحْكَمُ بناء الساقية ، واذا لم يكف أكمل ذلك من عندي » ، فقال له : « ان القصد بيع الماء » ، فقال له : « هل تريد الغصب على شرائه ؟ » ، فقال : « لا يمكن ذلك » ، فقالوا له : « إذا لا يشتري أحد ، إذ لا داعي له ، إلا من يريد التزهة بجريان الماء ونبعه ، وهم أقل من القليل ، مع انهم يقولون ان ماء زغوان وخيم ، على أن ماء زغوان ثلاثة ارباعه مملوكة لاربابها ، اشتروها بأموالهم من الدولة ، يقتسمونها بينهم لدورهم وأرحيتهم وأشجارهم ، فاذا أخذ لهم (١) تنضّر أشجارهم المعتادة بالسقي ، ويؤدي ذلك الى نقص في عمران الإيالة بموت هذه الاشجار ، ولا ضرورة لذلك الا مجرد التحسين . مع ان الانابيب الجاري فيها

(١) اخذ لهم : اخذ منهم (عامية تولسية)

الماء لا تخلو من صرف كثير دائم بدوامها ، وهذا مصرف زائد لا داعي له . وليس هذا مما يحسن فيه الاقتراض ، لان التداين يغتفر في الامور الضرورية » ، الى غير ذلك مما يُعلم بالبداهة . لكن الشهوة حجاب يغطي نور العقل ، ومن أطاع هواه ضلّ ، ومن اشترى ما لا يحتاج اليه باع ما يحتاج اليه ، ومن ساس نفسه ساس جنسه .

ولما لم يجد قوة لردّ شهوته ، قال للجماعة : « أعطيت كلمتي للقنصل في ذلك » ، فعند ذلك تنفّس الامير خير الدين ، وقال له : « أي فائدة لجمعنا حيث أعطيت كلمتك ، وحسبنا سماع هذا الخبر من سيادتكم » ، فقلت له : « قد وقع الوعد ولم يقع انفصال ، ولا أقل من ان نشدد في شروط هذا الاتفاق حتى يكون الامتناع من جهته » ، فقال لي : « المؤمن عند لفظه » . ولما خرجنا ضرب بيده على كتفي ، وقال لي : « ان شاء الله يصل هذا الماء لتونس وتطلب الشراء منه ولا نبيعه لك » ، فأمنتُ على دعائه .

وأمر بعمل الاتفاق مع المهندس على يد القنصل ، وعصله سبعة ملايين ونصف مليون فرنك تدفع للمهندس مكاتيب على آجال ، والدولة تدفع ربا المكاتيب ستة على المائة ، وتدفع ثمن الاتاييب حالا ، الى غير ذلك مما سوّدت به وجوه الطروس ، في ذلك الاتفاق المنحوس ، الذي نتيجته ان الدولة تدانبت بربا لتحسين موهوم ، اذ لا ناضر عندها ، وازداد بذلك صرف على الدولة لا قبّل لها به ، وأفضي الى زيادة وهن وضعف .

وان كان هذا الباي خلّص هذه الإيالة باعانة الوزير خير الدين من ورطة الدين الذي أمر به ابن عمه المشير احمد باي ، ليصرفه على العسكر التونسي باسلامبول ، الا انه أوقعها في ورطة أفظع وأشنع ، ومحا حسنته الاولى بسيئة هذا الماء التي هي اعظم أسباب الخراب ، لانه أتى بها ومزاج الدولة والمملكة في مرض الهرم .

وهذا من ثمرات الملك المطلق ، وسبحان من انفرد به وهو الحكيم الخبير . وحسب الوزراء انهم لما رأوه عمد الى خرق السفينة تكلموا ، ولما أراهم شهوته وجموا ، ولو كان لهم قانون أخذوا به على يده فسليم وسلموا ، لكنهم خافوا فأحجموا ، ولما أدركها الغرق ندموا ، فكانوا كما قيل :

تبغي النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجري على اليبس

وهذا الماء هو السبب الذي جرَّ الى ما بعده من اسباب النقصان والخراب . وكذلك يُريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم . والله فينا علم غيب نحن صائرون اليه . والمرجو من فضله وحلمه اللطف بعباده الذين قادتهم أعمالهم الى ربقة القهر ، ولا يظلم ربك أحدا .



وفي محرم غرة سنة 1276 ، ست وسبعين (أوت 1859 م) ، وجّه الباي أخاه ابا عبد الله محمد الصادق باي بمحلة الصيف على العادة ، فأمن السبل وقرّر الهناء وخلّص الحقوق ، وأتاه اهل الجبل فرحين مستبشرين طائعين .



ومرض الباي في مغيب أخيه ، سادس صفر (الاحد 4 سبتمبر 1859 م) ، قبل ان يختتم اتفاق جلب الماء المنحوس .

ولم يزل مرضه يزداد ، وطلب له قنصل الفرنسي طبيباً من دولته . وهو في مرضه يوصي بكتمان حاله عن أخيه ، حتى ان اخاه لما بلغه الخبر وجّه ثقة من اعيان مماليكه ، وهو ابو عبد الله حسين ، ليحكي له ما يشاهده من حال أخيه . ولما دخل اليه وهو بفراشه ، حذّره ان يقول لأخيه ما رآه من حاله ، وكاتبه بخبر العافية .

وفي اثناء ذلك بعث أخوه يطلب الاذن في القدوم ، فلم يأذن له ، فقال له وزرائه : « انه تمّم الخلاص او كاد ، فلا مقتضى لبقائه بالمحلة » ، فغضّ عنهم ، وأشار لهم بأن مرضه غير مخوف ، فأحجموا عن الكلام .

وكاتب الوزير ابو النخبة مصطفى خزنه دار أخاه بحال سيده ، وان مرضه مخوف [باتفاق الاطباء] (1) ، غير انه ثابت الذهن ، كامل الميز ، يتعلل الكلام معه في شأن قدومك والحالة هذه ، وهكذا كلما كاتبه بحال أخيه .

ولم يزل مزاجه يضعف ، وأمله في الحياة يقوى ، الى ان توفاه الله عشية يوم الخميس الرابع والعشرين من صفر سنة 1276 ، ست وسبعين (22 سبتمبر 1859 م) ، ببستانه في

(1) الزيادة عن ع و ق .

المرسى ، ورأيت طريحا على الارض كما قاله لما رأى ابن عمه طريحا على الارض في قصره بحلق الوادي .

وبعث الوزراء في الحين لشقيقه وولي عهده مع أمير لواء العسة ابي الضياء رستم ، ودفنوا خواتيمه ، بعد ان ختموا عليها ، لاكبر الحاضرين من اخوته وهو ابو محمد حمودة باي ، وأبقوا نظر القصر وما فيه لشقيقه ابي الحسن علي باي ، وطلبوا منه ان يبقى به حافظا ، بحيث لم يشهد جنازة أخيه .

و [من الغد] حملوا الميت الى داره بياردو ، وانتظروا قدوم ولي العهد ، فقدم عشية يوم الجمعة ، [ونزل بدار أخيه] (1) ، وعانق أخاه ميتا وقبله باكيا ، وذرفت عيون الحاضرين . ومن الغد وهو يوم السبت ، دفن بالتربة [حذو والده] (2) ، بموكب حافل مثل ابن عمه ، رحمهم الله .

### حال هذا البلى

كان كريم النفس مقداما ، فارسا راميا ، طلق المحيا يغلب عليه الحياء ، سليم الصدر سوي الظاهر والباطن ، بعيدا عن العسف في الجباية ، رفيقا بمجموع الرعية ، ضاربا على أيدي العمال خاضدا شوكة تعدّيهم ، لا يكاد يتجاوز في ذلك ولو للمقربين لديه زلفى من أصهاره وخاصته ، حتى خافه العمال واحترسوا من ان ينسب إليهم شيء من أخذ المال ، حتى ان صهره على شقيقته المقرب لديه أبا الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، ازداد له مولود فبعث له اهل جربة ، وكان عاملا عليهم ، بخمسين الف ريال ، على وجه الهدية للمولود ، فتخوف من قبولها وردّها ، وطلب مني أن أكتب لهم على لسانه بما يجمل من الاعتذار ، ويزيل وحشة الردّ لما سموه هدية وكرامة .

اشتكى له قايد ناجعة من العربان برجل مسنّ ادّعى انه أفسد عليه [في عمله] ، وحاله تنافي الدعوى ، وقدم حجة من الزيوف التي لا [تروج ولا] (3) تنفق الا بمحكمة تونس .

(1) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق .

(3) الزيادة في الفقرة عن ع و ق .

ولما قرأتها عليه اذا مضمونها ان افرادا شهدوا على هذا الرجل بأنه يفسد على القايد ، فقال للقايد : « بيّن لي إجمال الامور التي أفسد فيها » ، فتلجلج ، فعزله في الحين واولى المشتكى به عوضه ، بمحضر اعيان العرش في وقت الحكم بالوطق امام بستانه بالمرسى .

يكره الاسراف في فخامة المملكة بما لا تتحمله طاقتها ، ومن سعادة الجسد الوقوف عند الحد ، غير جاهل بقدر المملكة ولا متجاهل ، والمتشبع بما ليس عنده كلابس ثوبي زور ، حتى انه أبطل نواشين الذهب المرصعة المميزة لخطط العسكر ، وأبدلها بنجوم من فضة يعلم بها مقام حاملها ، وأبطل نواشن الافتخار المرصعة ، الا عن آل بيته ، وجعل عوضها فضة مزججة من عمل البلاد ، إلا أنه محا اسم من ابتكرها وهو المشير احمد باشا باي واثبت فيها اسمه . غير السجية ، والمؤمن غر كريم ، يقبل ما يسمع من غير إعمال فكر ، حسن الظن ، جريئا في أحكامه ، يستعجل في إنفاذها من غير ميل للتأني حتى في القتل ، يصعب عليه كظم الغيظ ، وربما يعقبه حليم .

يميل الى العادات المألوفة ويصعب عليه تركها لاي سبب كان ، حتى انه همّ بنقض ما أحكمه ابن عمّه من منع ملك الإنسان ، كما تقدم في الباب السادس ، فثبطه الوزراء عن ذلك ، وقرروا له خطره ، وبيتوا له سياسة ابن عمّه وان الدول استحسنوا نظره في ذلك . وما زالوا به الى ان قال : « يبقى المنع عليكم وأنا أملك » . ولما لم يجد من يأتي له بذلك من أرض السودان عاجلاً ، أخذ من أولاد الذين كانوا مملوكين في نواجع العربان ، وبالغ في الغصب على ذلك حتى أخذ بنات الاحرار المستولدات من الإماء السود ، بل أخذ المحصنات من تحت أزواجهن للخدمة بداره على حال فظيع ، واذا اتاه زوج المرأة شاكياً محتجاً برسم صداقه ، يأمر باش حانبه بتمزيقه قبل قراءته ويطرده .

وكلما مال خاصته الى ستر ذلك ، يميل الى اظهاره ويقول : « إن أقاصي العربان يملكون العبيد ، فمالي لا أملك وأنا سيد الناس » ، وقوفا مع العوائد السابقة ، ولو مع زوال المقتضي وجود المانع .

يحب الانفراد بالمجد والاستئثار بنفائس الاشياء ، وإظهار النعمة عليه بظهورها في داره . وبالغ في ذلك الى ان تجاوز حد السرف وأثقل ظهر المملكة بشراء ما يشتهي نسيئة .

ذا شفقة ورأفة غريزية ، انكسر شقف من الافرنج على شاطئء حمام الانف ، وهو به يومئذ ، فركب جواده في يوم ماطر بارد عاصف الريح ، في أفراد من اتباعه ، حتى وصل الشاطئء وأعان الفرقي ، وحث الحاضرين على إنقاذهم وإعانتهم ، وهو معهم ، وكساهم وحملهم الى محل أعدّه لهم بما يلزمهم ضرورة من غطاء ووطاء وطعام ، وبعث لهم طبيبه ، وقابلهم مقابلة الكريم لضيفه المضطر . وأتاه في ذلك نيشان من السلطنة الفرنسية ، وفواشن لمن أعان على ذلك ، كوزير البحر أبي محمد خير الدين ، وأبي الفداء اسماعيل صاحب الطابع ، فقد فعلا في ذلك ما يحسن خبره .

حَسَنَ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ ، لَا يَتَطَيَّرُ وَلَا يَخْشَى الْعَدُوَّ بَلْ وَلَا يَحْتَمِي ، وَقَوَّى بِذَلِكَ قُلُوبَ النَّاسِ لَمَّا وَقَعَ مَرَضُ الْكُولِيرَا فِي أَيَّامِهِ ، وَوَقَعَ فِي دَارِهِ فَلَمْ يَكْتَرِثْ بِذَلِكَ ، وَلَا حَجَزَ أَوْلَادَهُ عَنْ مَبَاشَرَةِ الْمَرْضَى ، كَمَا فَعَلَ وَالِدُهُ زَمَنُ الْوَبَاءِ بِتُونِسَ .

وله من المآثر إتمام القنطرة البديعة على وادي مجردة في طريق بتزرت ، وقد ابتدأها والده وعاقه عن إتمامها الاجل المحتوم .

ومن أسباب النقص في بعض الممالك الاسلامية أن كل من ابتدأ شيئا ومات قبل إتمامه ، يتطير من يأتي بعده باكماله ، ولذلك ترى بعض الجوامع صوامعها غير تامة ، ولما دالت الدولة له أمر باتمامها : غير مكترث بهذا الهوس ، ومن المقدور لا يغني الحذر . ولما تمت ركب لها بنفسه وعبر عليها ، وهي من المصالح العامة المعتبرة [انفع من بناء جامع بالحاضرة] (1) .

وبنى قنطرة ابي حميدة الضرورية ، ورمم غيرها من القناطر [التي اشرفت على الخراب] (2) فسهل بذلك العبور على الاودية .

وقصور بستانه في المرسى ، والدار التي انشأها بباردو لسكناه (3) ، ولم يبن مثلها في المملكة ، وهي الآن مسكن ملك العصر .

وله صدقات سرية على من يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

(1) الزيادة عن ع و ق .

(2) الزيادة عن ع و ق ، وقنطرة ابي حميدة هي قنطرة الفص .

(3) هي متحف باردو الآن .

قريبا الى الامية [جدا] (1) ، تشق عليه الكتابة والقراءة ، لعدم مزاولته الكتب .  
والعيب في ذلك على أبيه ، حيث أرسله في مراتع الجهل ولم يختار له إنسانا يدلُّه على أخلاق  
الكمال الانساني التي منها حركة الفكر في كل ما يسمع ، ولو تدرب على ذلك ما  
راجت عنده زيوف المخادعة في جلب ماء زغوان الذي هدم به ما بناه ، اذ ليس من العقل  
الثقة بالظن ، ومن امات شهوته أحيا مروءته . وربما يعذره من يعلم حاله من المنصفين ،  
باعتبار الحال في هذا القطر وأهله . وعلى كل حال فهو من البشر ، محلّ الخطأ والنسيان ،  
والاساءة والاحسان ، والكمال متعذر في غير المعصومين من نوع الانسان ، ويكفيه ما  
فعله من التخفيف واسباب العمران ، والضرب على ايدي العدوان ، وأعظم بما تزوده لمعاده  
من مثقبة عهد الامان ، الباقي بها ذكره على ممر الاحقاب والازمان ، وان كان ما كان ،  
فسبحان من كل يوم هو في شان .

تقبل الله سعيه وقابله بما هو اهله من سعة الرحمة والغفران .



## فهرس الموضوعات

للمجلد الرابع من كتاب

« اتحاف أهل الزمان، بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان »

الصفحة

الموضوع

### 6) المشير احمد باشا باي

19	.....	إيفاد الشيخ ابراهيم الرياحي الى اسلامبول لطلب
25	.....	الفاء الاعانة
34	.....	الاكتثار من العساكر
36	.....	التسوية بين علماء المذهبين الحنفي والمالكي
37	.....	تكوين مكتب حربي بباردو
43	.....	ورود فرمان التنظيمات الخيرية
49	.....	ترتيب قانون الزيتون بالساحل
53	.....	تأسيس المكتبة « الاحمدية »
55	.....	تفخيم الاحتفال بالمولد النبوي
58	.....	التزام محمد بن عياد وظيفة « دار الجلد »
59	.....	اهداء كروية حربية تونسية الصناعة الى الدولة العلية
65	.....	ما كان بين المؤلف وبعض رجالات اسلامبول من حديث
69	.....	حول التنظيمات والاعانة
69	.....	ترتيب التعليم بجامع الزيتونة
69	.....	تأسيس « المحمدية » واسبابه

76	تأسيس دار صناعة الملف .....
79	اسعاف النصارى بارض دولية لتوسيع كنيستهم .....
80	احداث لزمة للدخان والجلد .....
86	عتق المماليك .....
92	عزم الباي على السفر لفرنسا .....
99	برامج زيارته فى الرحلة .....
113	طبع سكة فضية خالصة واحداث اوراق مالية « ودار المال »
128	وباء الكوليرة .....
137	ترتيب قانون الزيتون بصفاقس .....
144	العجز المالى واسبابه .....
150	هروب محمود بن عياد .....
155	تكليف خير الدين بمباشرة نازلة ابن عياد بفرنسا .....
	ارسال مدد عسكرى حربى لاعانة الدولة العلية فى
157	حرب القرم .....
167	ترجمة احمد باى .....

## (7) المشير محمد باشا باى

	ارسال بقية المدد الحربى لاسلامبول مع محمد خزندار
188	وتكليفه بطلب فرمان الولاية .....
193	التنقيص من عدد الشهود .....
198	منع استخدام الضباط للعسكر وامتهانهم .....
201	ضرب سكة ذهبية مجحفة .....
203	منشور الاعانة .....
208	رجوع العسكر بعد انتهاء حرب القرم .....
211	ظهور مرض الكوليرة بتونس .....
	خروج محلة لتشريد غومة المحمودى الثائر على الدولة
215	العثمانية .....
220	انشاء « دار الشريعة » وترتيب العمل بها .....
224	منشور الفلاحة .....

## عهد الأمان

- 231 استبداد الباي بالحكم المطلق وجراته على سفك الدماء  
233 نازلة اليهودى وقتله .....  
اغتنام فرنسا وانقلترا النازلة للضغط على الباي  
234 لاعلان الدستور .....  
قراءة منشور « عهد الامان » فى باردو ، بحضور قناصل  
240 الدول ، والاميرال الفرنسى .....  
تكليف لجنة من رجال الشرع والادارة لتفسير قواعد  
246 عهد الامان .....  
تكليف لجنة بتنظيم قانون اثبات العسكر .....  
250 ترتيب عشر الزيت بالحاضرة .....  
250 ابدال سكة النحاس والنقص من قيمتها .....  
253 احداث « المجلس البلدى » .....  
256 التنقيص من العسكر .....  
259 تسوية اليهود بغيرهم من المواطنين .....  
261 جلب ماء زغوان الى تونس .....  
265 ترجمة محمد باي .....

ISBN : 9973-10-189-8 (T.2)

---

الإيجاز الفني، مخبر الجرافيك.

4، شارع محيي الدين القليبي - المنار 2 - تونس

الهاتف : 888 255 - الفاكس : 888 365

طبع بالمطبعة الأساسية المنطقة الصناعية 2 - بن عروس تونس

الماتفر : 380.301 : 781